

BERNARD LAW MONTGOMERY



مذكرات قادة الحرب العالمية الثانية

مذكرات مونتغمري



مكتبة النافذة

مذكرات قادة العرب العالمية الثانية

مذكرات مونتجمري

مذكرات قادة العرب العالمية الثانية

مذكرات مونتجمري

عرض وتحليل وتقديم

د. أيمن محمد عادل

مكتبة النافذة

مذكرات مونتجمرى

الطبعة الأولى / ٢٠٠٧
رقم الإيداع ١١٦٣٤ / ٢٠٠٧

الطبعة

دار طبعة للطباعة - الجيزة

كل الحقوق
محفوظة

الناشر: مكتبة النافذة

المدير المسئول: سعيد عثمان

الجيزة ٢ شارع الشهيد أحمد حمدى

الثلاثين (ميدان الساعة) - فيصل

تليفون وفاكس: ٧٢٤١٨٠٣

alnafezah@hotmail.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الفيلد مارشال مونتجومرى . . هذا القائد العسكرى البريطانى الفذ، هذا القائد الذى خاض غمار معارك الحرب العالمية الاولى كضابط صغير، واشترك فى الحرب العالمية الثانية ووصل خلالها إلى أعلى المناصب العسكرية محققا النصر تلو الآخر.

لقد عاش حياته العسكرية، مخلصا لوطنه ومليكه، مدافعا عن الحق غير مبال لومة لائم، أو نقد حاسد.

وكان فكره العسكرى يسبق عصره، وقد جاهد كل الجهد ليحقق فكره، وليثبت لأقرانه ورؤسائه صحة رأيه.

عرفه العدو قبل الصديق، عرف مهارته وحذقه، واستطاع أن يكسب حب جنوده وضباطه، لإيمانه الشديد بأنهم أساس أى انتصار.

كما انتصر فى الحرب، انتصر فى السلم، فلقد كان مصرا كل الإصرار على تقوية وتحديث الجيش الإنجليزى، وعلى تنظيم الدفاع الغربى فى أوروبا.

إنه أحد القواد العسكرين العظام خلال القرن الماضى، والعسكرية الحديثة اليوم مدينة لهؤلاء بكل تقدم فى مجالها.

إن هذه المذكرات القيمة التى أقدمها لك أيها القارئ العزيز، مذكرات الفيلد مارشال مونتجومرى التى كتبها بنفسه، وانتهى من كتابتها فى سبتمبر ١٩٥٨ تروى أخطر فترة من فترات تاريخ العالم ١٩١٤ - ١٩٥٨، بما فيها من أحداث غيرت وجه التاريخ، فواجب كل مسئول وكل قائد، بل كل مواطن عربى، قراءة هذه المذكرات التاريخية الرائعة

أيمن محمد عادل

مقدمة المؤلف

لم أقدم على وضع هذا الكتاب لميل خاص إلى الأدب، ولا حاجة إلى شهرة أوسع، وإنما دفعنى إلى ذلك رغبتى فى أن بعض ما يشتمل عليه من أفكار قد يكون ذا نفع. وهدفى من هذا الكتاب، أن أنقل إلى الأجيال المقبلة الانطباعات التى تجمعت لى خلال حياة لم تكن تخلو من متعة، وأن أحدد المبادئ التى كانت تسدد خطاى فى الفكر والعمل.

ولقد كتبت كل أحرف هذا الكتاب فى البداية بقلمى، وكنت كلما أنهيت فصلا من فصوله دفعته إلى النسخ على الآلة الكاتبة، ثم يقرأه ثلاثة أصدقاء، لى فيهم كل الثقة ولآرائهم عندى كل التقدير، وكنت بعد ذلك أعود فأناقح هذه الفصول على ضوء ما يبدونه لى من تعليقات وملاحظات، وأخيرا عاد هؤلاء الأصدقاء الثلاثة أنفسهم النظر فى الكتاب بمجملة زيادة فى التدقيق.

وأبرز هؤلاء الأصدقاء البريجادير «أ. ت. وليامز» مدير رودس هاوس فى أوكسفورد، وقد ذكرته مرارا فى كتابى باسم بيل وليامز.

وثانيهم، السير «جايمس جريج»، الذى أشرت إليه أيضا فى عدة مواضع من الكتاب، وأما الصديق الثالث، فهو السير «أرثر بريانت»، ذلك المؤرخ الكبير الذى خصص جزءا من وقته لمراجعة فصول الكتاب.

فإلى هؤلاء الأصدقاء الثلاثة أوجه جزيل شكرى.

وأنا مدين بالشكر أيضا للذين عملوا فى النسخ على الآلة الكاتبة، والذين أذنوا لى بنشر مقتطفات من رسائلهم وكتبهم، وأعتذر فى الوقت نفسه عما قد يتضمنه الكتاب من مقتبسات نشرت دون إذن سابق.

لم أخش يوما أن أقول ما أعتقد أنه حق، ولم أتردد يوما في التمسك بما أقول
عندما أكون مقتنعا بصواب ما أقول، وأعترف بأن هذا كثير ما سبب لي إزعاجات.
ولم أقصد في هذا الكتاب إلى الرد على الانتقادات التي كانت توجه إليّ، وإنما
أردت أن أروي قصة حياتي العسكرية الطويلة على أبسط وجه ممكن.
ولقد سبقني الكثير من رفقائي في السلاح في الحرب العالمية الثانية أن رروا قصة
حياتهم واليوم يجيء دوري.

الفيلد مارشال مونتجومري

آلتون - هامبشاير

سبتمبر ١٩٥٨

الفصل الأول السنوات الأولى

ولدت فى لندن، بأبرشية سانت مارك فى السابع عشر من نوفمبر عام ١٨٨٧، واستطيع أن أؤكد أن طفولتى كانت طفولة بائسة، وقد نتج ذلك عن اصطدام إرادتى بإرادة والدتى لقد كنا على ما أعلم، عائلة من العائلات الفيكتورية الأصيلة، وكان عمر والدتى حين خطبها والدى أربعة عشر عاماً، وما كادت تغادر المدرسة حتى تزوجته فى شهر يوليو ١٨٨١، وبعد شهر واحد من زواجها، احتفلت بعيد ميلادها السابع عشر فى ٢٣ أغسطس ١٨٨١، وكان والدى آنذاك راعى أبرشية سانت مارك، فى حي «كتجن أوفال».

وما لبث الزوجان أن رزقا أولاداً، ولم تكن والدتى قد بلغت الخامسة والعشرين حين بلغ عدد أولادها خمسة، وفى ١٨٨٩، عين والدى أسقفا لتاسمانيا.

وكنى الولد الرابع، وبعد انقطاع عن الحمل دام سبع سنوات، رزق والدى طفلين آخرين فى تاسمانيا، وبعد خمس سنوات ولد لهما طفل آخر، بينما لم ير أخى الأصغر «بريان» النور إلا بعد عودتنا إلى لندن.

لقد أعطت والدتى الحياة إذن لتسعة أولاد، أما البكر، وكانت بتا، فقد ماتت بعد وصولنا إلى تسمانيا بقليل، كما مات أحد أخوتى الصغار عام ١٩١٩، بينما كنت فى الهند ملتحقاً بفيلقى، وهكذا بقى سبعة أولاد، جميعهم ما يزالون على قيد الحياة لليوم.

وكان أطفال آخرون يعيشون معنا، فى بيت الخورى فى كتجنون، كان يعيش ثلاثة فتيان هم من أبناء العمومة البعيدة الذين ذهب آبائهم إلى الهند، وفى

تاسمانيا، وصلنا من إنجلترا أبناء عم لنا منحرفوا الصحة يحتاجون إلى الهواء الطلق، وفي لندن، بعد عودتنا من تاسمانيا، كانت العائلة أيضا وافرة العدد باستمرار، فكان يستحيل بالفعل على والدتي أن تضطلع بواجباتها كزوجة راع لندني، أو كزوجة أسقف، وأن تخصص وقتها في آن واحد لأولادها وللأولاد الذين يعيشون معنا، وكان سبيلها إلى القيام بذلك فرض نظام قاس على العائلة كي تستطيع أن تجد الوقت الكافي لأداء مهمتها إزاء الأبرشية أو الأسقفية، التي هي مهمة أساسية.

أما بالنسبة إلينا نحن الأولاد، فكانت أصول النظام محددة بوضوح، وعلينا أن نتقيد بها بدقة، وكل من يعصاها ينال عقابه على الفور.

ولم يكن إخوتي وأخواتي مزعجين بمقدار ما كنت أنا، بل كانوا يتكيفون وفقا للنظام تكييفا أفضل ولا يخلقون المتاعب، أما أنا فكانت ولد العائلة الثائر المتمرد المتعب، وكانت النتيجة أنني تعلمت في سن مبكرة أن أتحمل مسئولياتي، ولم نعرف نحن الأخوة الكبار روح العائلة إلا قليلا، وربما حظى بها أخوتي الصغار، لأن والدتي أصبحت مع تقدمها في السن أكثر لينا وتفهما.

وكانت والدتي امرأة ممتازة ذات مزاج يتميز بالنشاط وخلق يتحلى بالاستقامة، لقد نشأت أولادها على طريقتها، فعلمتنا أن نقول الحقيقة على الدوام مهما حصل.

ولقد كنت أخشى والدتي طوال سني طفولتي الأولى، ثم جاء وقت لم تعد فيه سلطتها ذات تأثير على، فزالت الخشية وحل محلها الاحترام، ومنذ انتسابي إلى الجيش حتى وفاة والدتي، كان إعجابي بشخصيتها يزداد كل يوم، واتضح لي بوضوح أنني أنا كنت المسئول الأول عن المتاعب التي شهدتها طفولتي.

ومهما يكن من أمر، فلا عجب أن يتجه كل حبي وكل عاطفتي كطفل في هذه الظروف نحو والدي، لقد كنت أحبه حتى العبادة، إذ كان صديقا لي.

وتوفى والدى فى عام ١٩٣٢ بينما كنت أقود الفوج الأول من فيلق وروكشاير الملكى فى مصر، وكانت وفاته خسارة كبرى، لقد كان والدى وزوجتى وابنى أشخاصاً لهم فى نفسى مقام إستثنائى.

وعندما عدنا من تاسمانيا فى آخر عام ١٩٠١، دخلت أنا وأخى دونالد مدرسة سانت بول فى لندن فى يناير ١٩٠٢، وكان عمى آنذاك أربعة عشر عاماً، ولم أكن قد أعددت للحياة فى كلية إنجليزية، ففى تاسمانيا عهد بأمر تعليمى إلى أساتذة قادمين من إنجلترا، وتعلمت أشياء قليلة، وكنت أصبح كالمسكة، متين البنية قوياً، بالغ النشاط، ولم أكن أعرف لا الكريكت ولا كرة القدم، وانغمست فى الرياضة حتى أصبحت فى خلال ثلاث سنوات رئيس فريق الروغبى الخامس عشر وفريق الكريكت الحادى عشر، أما دروسى فكان نجاحى فيها ضئيلاً.

وكانت علاماتى الدراسية صدمة لى، فقد كنت أطمح إلى دخول الكلية العسكرية، ولذلك انصرفت بجد إلى الدرس، فاجتزت الإمتحان دون صعوبة، وقبلت فى يناير عام ١٩٠٧ فى كلية ساند هورست العسكرية الملكية.

وسانت بول مدرسة ممتازة شرط أن تتوفر لدى الطالب إرادة الدرس، ولأول مرة فى حياتى استطعت أن أقوم بعمل يبدو لى فيه سلطان، فلأول مرة أتيح لى أن أرسم خططى فى القتال على أرض ملعب كرة القدم، وكانت الانتقادات التى وجهت إلى هذه الخطط بالغة العنف، فقد وجد بعض زملائى تكتيكى غير مألوف.

وكان عمى تسعة عشر عاماً عندما تركت مدرسة سانت بول، وكانت الأعوام التى قضيتها فيها مفيدة للغاية،

والحرية فى الكلية أكبر منها فى المدرسة الإعدادية أو الخاصة، حيث يخشى أن يخلط الطفل بين الحرية وترك الحبل على الغارب، ولقد طبعت سانت بول أخلاقى بطابعها، وأسفت لفراقها أبلغ الأسف، وكانت المرحلة التالية لى فى ساند هورست.

وعندما أصبحت رجلاً تركت الصيانات كما يقال، ودخلت إلى ساند هورست في يناير ١٩٠٧.

إن بعض الناس يستطيعون بلا شك إذ يلقون نظرة جديدة على طفولتهم، أن يجدوا فيها ما يقولون مرة أخرى، أما فيما يتعلق بي فهناك أمران يدعوان إلى الأسف، وكلاهما يعودان إلى أن والدتي كانت هي التي تحكم العائلة، وأن والدي بقي في الخط الخلفي، لقد تعلمت الخوف في سن مبكرة جداً، فأنكملت شيئاً فشيئاً داخل قوقعتي مدافعا عن نفسي وحيداً، وكان لهذا، بدون أدنى شك، نتائج عظمى أثرت على التطور اللاحق لمزاجي، أضف إلى ذلك أنه قد قذف بي في كلية كبرى دون أن تفسر لي مسبقاً بعض الأمور، فاضطرت لأن أبدأ في فهمها في مضطرب الحياة المدرسية القاسي دون أن أصل مع ذلك إلى معرفة كل شيء قبل دخولي إلى ساند هورست في التاسعة عشرة من عمري، وكان يمكن أن يكون لهذا الإهمال نتائج سيئة، ولكني لا أظن أنه أدى فعلاً إلى شيء منها، وعندما غادرت الكلية، كانت فكرة هامة قد أخذت تتجلى في ذهني، فحواها أن الحياة معركة قاسية، وأن على الفتى أن يكون قادراً على مواجهة الصراع ومواجهة النكسات، كما أنه عليه لكي ينجح أن يكتسب كثيراً من الصفات، اثنتان منها أساسيتان، هما العمل الجاد والتجرد المطلق، ولم تكن قد بدت لي بعد ضرورة الأساس الديني، وكان والدي يأمل دائماً في أن أصبح من رجال الدين، ولكن هذا لم يحدث، وما أزال أذكر خيبة والدي عندما قلت له: إنني أريد أن أصبح جندياً، ولم يحاول أبداً أن يبدل من اقتناعي، ولو أتيح لي أن أحيا حياتي مرة أخرى، لما تصرفت على غير هذا النحو، ولاخترت أن أكون جندياً.

* * * *

الفصل الثانى

أيامى الأولى فى الجيش

فى عام ١٩٠٧ ، كان الالتحاق بكلية ساند هورست العسكرية الملكية يجرى إثر مسابقة ، فكان هناك أولا إمتحان لابد أن يثبت المرشح فيه إمتلاكه لحد أدنى من الطاقات العقلية ، ثم تجرى المسابقة بعد حوالى عام لاختيار المتفوقين ، ولقد استطعت اجتياز هاتين العقبتين دون صعوبة ، واحتلت المرتبة الثانية والسبعين من بين ١٧٠ ناجحاً.

وكانت التكاليف فى ساندهورست تبلغ ١٥٠ جنيه فى العام لمن كان من أبناء المدنيين ، وتشتمل على نفقات الطعام والسكن وغير ذلك من النفقات الضرورية ، ولم يكن هناك غنى عن شىء من المال لنفقات الجيب ، ووافق والدائ على أن يعطينى جنيهين فى كل شهر وفى فترات العطلة أيضاً ، وهكذا بلغ دخلى الخاص ٢٤ جنيه فى العام الواحد ولا شك فى أن يكون كثيرون من رفاقى على ما كنت عليه أنا من الفقر ، ولكنتى تكيفت مع هذا الوضع .

وحيث أن ألوان اللهب الخارجى كانت محجوبة عنى بسبب افتقارى إلى المال ، فقد انغمست فى الرياضة ، وفى الدرس ، وكانت بداياتى فى الدرس تدعو إلى الارتياح ، وكانت العادة جارية آنذاك بأن يسمى عدد من أفضل الطلاب عرفاء بعد مضى ستة أشهر على حضورهم الدروس ، وكانت هذه التسمية تعتبر امتيازاً كبيراً ، وهؤلاء العرفاء يصبحون دائماً رقباء خلال نصف السنة الثانى ، وكان واحد أو اثنان منهم يسميان حاملين العلم ، ويحمل كل منهما سيفاً ، وكانت هذه هى أعلى درجة يبلغها طالب من طلاب الكلية العسكرية .

وسميت عريفا، وكان هذا سببا لمتاعبي، وأيا ما كان الأمر فالى ذلك التاريخ يعود بدء سقوطى، فقد كان فريق الفتيان من السرية (ب) الذى أتولاه، يضم عددا كبيرا من الأشداء الصاخيين ذوى الأيد، فأغرتنى سلطتى بوصفى عريفا أن اترأسهم، ودخلنا فى حرب مع فتيان السرية (أ) المقيمين فى الطابق الأعلى، ونقلنا الحرب إلى قطاعات أخرى، وسميت سريتنا السرية (ب) الدموية، وكثيرا ما جرت المعارك الشديدة فى الأروقة بعد إطفاء الأنوار، واستعملت فيها القضبان المعدنية وما شاكلها من الأسلحة، وكثيرا ما اضطر عدد من الطلاب لأن يتوجهوا إلى المستشفى لتضميد جراحهم.

وتركز الانتباه على السرية (ب) الدموية وعلى، وبلغ هذا الانتباه أقصاه حيث أصيب أحد الطلاب غير المحبوبين بحروق شديدة فى مؤخرته، وقد تصرف هذا الطالب بطريقة مثالية حين رفض الإفصاح عن مرتكب العمل المشين، ولكن كل ذلك لم يكن ليفيد فى شيء، إذ أن الذنوب تنتهى دائما إلى الانكشاف، وهكذا أعدت إلى الصف وصدرت مذكرة فى الأمر اليومى بساند هورست، تعلن أن العريف مونتجومرى قد كسرت رتبته دون أن تذكر أى سبب لهذا التدبير، وكان على أن اعتبر نفسى سعيداً، لأننى لم أطرد من الكلية، ويرجع الفضل فى ذلك إلى المايجور «فوربس» من فرقة الرماة الأسكتلنديين الملكية، كما يعود إليه فضل افتتاحى صفحة جديدة وعودتى إلى الصراط المستقيم.

وتلقت مرة أخرى صدمة ثانية، فقد سمى عدد من زملائى الطلاب ضباطا فى ديسمبر ١٩٠٧ بعد أن قضوا سنة كاملة فى ساندهورست، ولم أكن بينهم، بل اضطررت إلى الانتظار ستة أشهر بعد ذلك، ولكن هذا الدرس كان لى بالغ الفائدة، فقد أقبلت على العمل بتصميم خلال نصف هذا العام عازما على أن أكون من بين الأوائل.

وكنـت منذ بعض الوقت قد أدركت أنني لا أـستطيع لأسباب مالية أن أقوم بالخدمة في إنجلترا، وكانت المراتب في جيش الهند مرتفعة ويمكن العيش بها في فوج بريطاني مقيم بتلك البلاد، وعلى ذلك سجلت اسمي للالتحاق بجيش الهند، ولكن التنافس كان شديداً للأسباب المالية التي ذكرتها، ولم أوفق في الالتحاق بجيش الهند، والتحقـت بفيلق «وروكشاير» الملكي، ولم أندم يوماً على هذا الاختيار، ففي هذا الفيلق اكتسبت المبادئ الرئيسية لمهنة السلاح، وكان يشجعني على العمل قائد سريتي الأول الكولونيل «ماكـدونالد»، المتقاعد اليوم بعد تجاوزه الثمانين، فقد كان لي صديقاً على الدوام.

وفي ديسمبر ١٩٠٨، التحقت بالفوج الأول في ييشاور على حدود الهند الشمالية الغربية، وكنـت قد بلغت الحادية والعشرين منذ عهد قريب.

وكانت وسائل النقل لدى الفوج تتألف من عربات تجرها البغال، ومن بغال لحمل الأثقال، وكنـت أجهل كل شيء يتعلق بهذه الحيوانات، وكان على أن أتعلم ذلك، وعند نهاية الدروس كان يجري امتحان شفهي يتولاه فاحص من الخارج، وكان يأتي من الهند الوسطى، ومثلت أمام هذا الرجل المرعب لأجتاز الامتحان الشفهي، واجتزت الامتحان دون كثير من الصعوبات، وعدت إلى فيلقى بالكيل الغار الذي نلتـه بحق. ولقد غادر الفوج ييشاور في آخر عام ١٩١٠ متوجهاً إلى بومباي، حيث كان عليه أن يمضي العامين الآخرين من أعوام خدمته في الخارج، وانصرفت إلى العمل بكل جد، وعاد الفوج إلى إنجلترا عام ١٩١٣، وعين فيه ضابط من ضباط فوجنا الثاني لم يكـد ينهي تدريبه لمدة عامين في مدرسة أركان الحرب في كامبرلي، وكان هذا الضابط هو الكابتن «لوفروي»، وكان أعزب، وقد اعتدت على أن تكون لي معه محادثات طويلة حول الجيش وأخطائه، وخصوصاً حول السبيل إلى تعريفي فعلاً بفن الحرب، فأثارت حماسي اهتمامه على الفور

وأعطاني نصائح ثمينة محدداً لى الكتب التى يجب أن أقرأها والأسلوب الذى يجب علىَّ اعتماده فى العمل، وأعتقد أن «لوفروى» كان أول من دلتنى على الطريق التى يجب على سلوكها وشجع حماسة الشباب فى، ولقد قتل فى حرب ١٩١٤ - ١٩١٨، وكان غيابه خسارة كبرى لى وللجيش.

وفى أغسطس ١٩١٤، بلغت السادسة والعشرين وكنت ملازماً أول، ولقد عيىء «فوجى» فى شورنكليف، ونزلنا إلى البر فى فرنسا مع الفرقة الرابعة، متأخرين بضعة أيام عن معركة مونس، وتقدمنا على الطريق نحو كاتو.

وفى فجر اليوم السادس والعشرين من أغسطس ١٩١٤، عسكر اللواء العاشر الذى يتسمى إليه «فوجى» فى حقول القمح قرب قرية هوكور، بعد سير طويل أثناء الليل، وتمركز فوج على رابية مغطيا بقية اللواء الذى كان خلفه فى الوادى، وما لبث هذا أن هوجم من قبل الألمان الذين فتحوا النار عليه من مسافة قريبة، فهرول مسرعا على انحدار الرابية باتجاهنا فى فوضى كبيرة.

وكان فوجنا متشرا على خطين، وكانت سرىتى وسرية أخرى فى الخط الأمامى، والسريتان الأخريان غير مرئيتين على بعد بضع مئات من الأمتار إلى الوراء، وجاءنا قائد الفوج مهرولاً صارخاً يأمرنا بمهاجمة العدو فوراً على الرابية، وكان هذا الأمر الوحيد الذى تلقيناه، دون استطلاع مسبق، ولا خطة، ولا ستارة من النيران، فتسلقنا الرابية تحت نار شديدة، وجرح قائد سرىتى وتكبدنا خسائر كثيرة، ولم يكن أحد يعرف ماذا يمكن أن يفعل، فأرتدنا إلى نقطة انطلاقنا، وإذا كانت فعلاً هذه هى الحرب، فقد بدت لى بالغة الغرابة وليس لها أية صلة بما كنت قد قرأت عنها، وكانت الأيام التى تلت ذلك شديدة الإيلام، وقصتها أصبحت جزء مما يستدعى الانسحاب من مونس، ولم تتلق السريتين المتقدمتين اللتين باشرتا الهجوم أى أوامر أخرى، وتركونا فى الخلف عندما بدأ الانسحاب، وخلال ثلاثة

أيام سرنا بين ستار الخيالة، وبين المجموعة العظمى من قوات العدو، متحركين أغلب الأحيان خلال الليل، مختبئين في النهار، وأصبحنا الآن بأمر ضابط ذى وزن كبير هو الماجور (أ. ج. بول)، ولم نستطع إلا بفضل أن نلحق أخيراً بالحملة البريطانية ونلتحق بوحدتنا، وعلمنا آنذا أن قائد فوجنا قد عزل، كما عزل أيضاً قائد فوج آخر من أفواج اللواء، وبعد تنحيته دخل الليوتنان كولونيل «الكنغتون» الذى كان يقود فوجنا، الفرقة الأجنبية الفرنسية حيث كانت له أعمال لامعة.

وبعد بضعة اشتباكات ثانوية على جبهة الأين، نقلنا مع ما تبقى من الحملة البريطانية إلى الجناح الشمالى لجبهة الحلفاء، ودارت بعدئذ معارك شديدة هناك، وفي ١٣ أكتوبر أمرنا بالهجوم للمرة الثانية، لكن كان «بول» هو الذى يقودنا فى هذه المرة، وكانت هناك خطة وأوامر محددة، وكانت هناك سريتان فى المقدمة، وكانت سريتى على الميسرة موجهة نحو مجموعة من المباني فى جوار قرية (ميتران)، وعندما دقت ساعة الهجوم أخرجت سيفى من غمده وصرخت فى فصيلتى أن تتبعنى، وتقدمنا فى المدينة بخطى سريعة بينما كانت تنهال علينا نيران شديدة فأصيب رجالى بإصابات متعددة، ولكننا واصلنا سيرنا، وما كدنا نقرب من هدفنا حتى شاهدت فجأة خندقاً مليئاً بالألمان، ما لبث أحدهم أن شهر بندقيته باتجاهى.

وكان واضحاً أن إتخاذ قرار سريع هو أمر حيوى، فاندفعت بأقصى سرعة إلى الألمانى ضارباً إياه بقبضة يدي بأعنف ما استطعت فى أسفل بطنه، وكانت الضربة محكمة وفى موضع حساس، فوق أرضاً وقد آلت له الضربة أشد الإيلام، وهكذا اعتقلت أسيرى الأول.

وقاتلنا طوال النهار، وكانت مهمتنا تطهير القرية من الألمان الذين يحتلوننا، وفى خلال الاشتباكات التى دارت بين المنازل جرحت برصاصة أصابتنى فى صدرى، ولكننا طردنا الألمان من القرية، ومن أجل هذا العمل فى (ميتران)، منحت وسام الخدمة الممتاز.

ولقد بقيت يومئذ حيا بفضل أحد جنود فصيلتي، فلقد سقطت على الأرض مكشوفاً، فرقدت بلا حراك آملاً أن لا أثير انتباه الألمان، ولكن أحد جنودنا هرع إلى، وكان قد بدأ يضمّد جرحي حين اخترقت رأسه رصاصة فهوى أمامي صريعاً، واستمر إطلاق النار علينا فأصبت بجرح في ركبتي، وأصيب الجندي بعدة طلقات كانت موجهة لي، ولم تقم فصيلتي بأية محاولة أخرى لنجدتنا، فقد كان جنودنا في الواقع يعتقدون أن كلانا قد مات، ونقلت إلى إنجلترا حيث لزمّت المستشفى، ولم أشارك في الحرب مدة بلغت بضعة أشهر.

وعندما شفيت التحقت بهيئة أركان حرب، وعدت إلى فرنسا في بداية عام ١٩١٦ برتبة مقدم، وخلال معركة السوم في الصيف التالي كان على أحد ألوية المشاة أن يكون هو اللواء الضارب في هجوم تقوم به الفرقة، وكان من الأمور الهامة أن يتلقى قائد اللواء بسرعة معلومات عن التقدم الذي تحققه قواته المتقدمة، فعلى هذا التقدم تتوقف حركة القوات الاحتياطية في المؤخرة، وكانت المشكلة في معرفة الطريقة التي يجب أن تؤمن بها سرعة وصول المعلومات المتجمعة، وأظهر مقر اللواء العام اهتماماً كبيراً حين علم أن حمامة يمكن أن تستعمل لنقل الأخبار، وقد تسلمنا هذه الحمامة في الوقت المناسب، وبقيت بضعة أيام في قفص خاص، وعندما جاء يوم الهجوم عهد بالحمامة إلى جندي كان عليه أن يرافق وحدات الطليعة، وقيل له إن أحد الضباط سيكتب في وقت من الأوقات رسالة تربط في إحدى أرجل الحمامة، وعليه عندئذ أن يطلقها فتطير عائدة إلى قفصها في مقر اللواء العام، وشن الهجوم، وأخذ قائد اللواء ينتظر بقلق عودة الحمامة، ولكن الوقت أخذ ينقضي دون أن تصل الحمامة، وأخيراً هبطت الحمامة هبوطاً هادئاً نحو قفصها، وسلمت الرسالة إلى الجنرال، فإذا به لا يجد فيها إلا هذه العبارة: لقد سئمت من نقل هذا الطير المقدس معي في أنحاء فرنسا ولقد قضيت الأشهر

الأخيرة من الحرب كرئيس لأركان حرب الفرقة السابعة والأربعين في لندن، فدرست مطولا مشكلة معرفة كيفية الحصول بسرعة في القوات العامة للفرق على المعلومات الدقيقة بالغلة الأهمية حول تطورات القتال، وهي المعلومات التي تتيح للجنرال تكييف استعداداته وفقا للوضع التكتيكي كما يتبدى، وأخيرا ابتدعنا طريقة تلخص في تزويد هيئات أركان حرب أفواج الطليعة بضباط لديهم أجهزة إرسال ومكلفين بأن يبعثوا الرسائل باللاسلكي، وكانت الصعوبة آنذاك في الحصول على أجهزة إرسال ملائمة يمكن أن يحملها الجندي، ولم تكن هذه الطريقة إلا وسيلة لبلوغ الغاية، ولكنها أعطت نتائج حسنة في كثير من الأحيان.

وكان في ذلك نواة الطريقة التي قمت بتحسينها في الحرب العالمية الثانية، والتي أصبحت أخيراً تتمثل في فريق ضباط الاتصال المزودين بسيارات الجيب والعاملين إنطلاقاً من المقرات العامة التكتية المتقدمة.

وفي تلك الفترة من حياتي اتخذت قرارى القاضى بأن أنذر نفسى كليا لمهتى فأتعمق فى جميع تفاصيلها وأدع كل ما تبقى جانبا، وكنت أجهل آنذاك كيف أستطيع المضى فى ذلك، ولم أكن أعرف أحدا من كبار قادة الجيش، ولكننى كنت مقتنعا بأن أول ما يجب على فعله هو متابعة دروس مدرسة الأركان، وقد عادت هذه المدرسة ففتحت أبوابها عندما وضعت الحرب أوزارها، وجرى اعطاء دروس الصف الأول التى لم يتم اختياري لمتابعتها فى عام ١٩١٩ وكانت دروسا مختصرة، وعلقت آمالى على الصف الثانى الذى كان يجب أن تبدأ دروسه فى يناير ١٩٢٠ وتستمر سنة كاملة على الأقل، ولكننى عندما نشرت أسماء المقبولين لم يكن بينها اسمى كذلك، غير أن الفرصة مع هذا لم تفت بالكلية.

وكان القائد العام للجيش فى ألمانيا آنذاك السير «وليم روبرتسون»، ولم أكن أعرفه، وكان يعشق رياضة التنس، فدعيت يوما من الأيام إلى ملاعبته فى منزله

يכולوني، وقررت أن أجازف بكل شيء للحصول على ما أريد، فأطلعه على ما يشغل بالي بكل تفصيل، وكان هو أيضا قد كافح كثيرا في شبابه، فهو لهذا يؤثر مساعدة الشباب، وكنت أعلم ذلك فيزيدني علمي به امتلاء بالثقة والأمل.

وبعد لعبنا التنس بفترة قصيرة من الزمن، علمت أن اسمي أضيف إلى اللائحة، وتلقيت الأمر بأن أحضر في يناير ١٩٢٠ إلى مدرسة أركان الحرب في كامبرلي، فلقد فعل القائد العام ما كنت قد سألته أن يفعل.

وبدت السبل الآن ممهدة، ولكنها ما كانت بالغة اليسر.

* * * *

الفصل الثالث

بين الحرين

دخلت كلية أركان الحرب فى كامبرلى فى يناير ١٩٢٠ دون أن أدعى الذكاء، وإنما كنت أظن أننى أملك مقداراً معيناً من الحس السليم لم يتح له التدريب، وكان يبدو لى أن المهم هو امتلاك حس سليم مدرب.

وكان رفقاءى فى كامبرلى يعتبرون نخبة الجيش والضباط المهيئين لأعلى القيادات، على أن قلة نادرة منهم استطاعت الوصول إلى هذه القيادات، وكان المعلمون هم أيضاً رجال مختارين، ولكن واحداً منهم بلغ القمة، هو الضابط اللامع ديل.

وكان لأحد رفقاءى تأثير كبير علىّ، فقد كان ذو عقل من الطراز الأول وكانت طاقاته عظيمة، ذلك هو «جورج لندسى» من لواء الرماة، وقد تقاعد برتبة ماجور جنرال.

وكان جنرالات الحرب الجيدون يحتلون كل المناصب العليا، ويستمررون فيها وقتاً أطول كثيراً مما ينبغى، فكان «ميلن» رئيساً لهيئة أركان الحرب الامبراطورية خلال سبع سنوات، من ١٩٢٦ حتى ١٩٣٣، ولم يحالف الجيش التسويق بعده فى اختيار قاداته الكبار، فقد حل محل ميلن، مونتجومرى ما سنجبرد، الذى شغل منصبه فى فترة بالغة الأهمية لشئون الجيش، من ١٩٣٣ حتى ١٩٣٦، وفى رأى أن تعيينه كان خطأ كبيراً، إذ أن الجيش فقد تحت إمرته كل حيويته وأصبح كسفينة من دون دفعة، أما من كان مؤهلاً آنذاك لهذه المهمة فهو «جوك بورنت ستوارت»، ألمع جنرال فى الجيش البريطانى، ولو أنه كان رئيس الأركان، لكان الجيش أفضل استعداد للحرب عام ١٩٣٩.

وفى عام ١٩٣٦ ، خلف ديفرل ، مونتجومرى ماسنجيرد ، ولكنه لم يكن على تفاهم مع وزير الحربية ، هوريليشا ، وأعفى من منصبه بعد ثمانية عشر شهراً ، ولو أنه ظل فى هذا المنصب لقام بعمل ممتاز بكل تأكيد ، غير أن هوريليشا فضل عليه غورت ، الذي لم يكن مناسباً لهذا المكان إطلاقاً ، ولكنه احتفظ به حتى إعلان الحرب فى سبتمبر ١٩٣٩ .

وكان نتاج هذا كله أن الجيش البريطانى بلغ الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ بتنظيم وعتاد يصلحان لحرب ١٩١٤ ، وعلى رأسه قادة غير أكفاء .

وفى ديسمبر ١٩٢٠ ، اجتزت إمتحان التخرج فى كلية أركان الحرب ، وأظن أن علاماتي كانت جيدة .

ولقد أرسلت برتبة ماجور إلى لواء المشاة السابع عشر فى كورك للاشتراك فى حرب أخرى هى الحرب ضد السن فاين فى إيرلندا الشمالية ، وكانت هذه الحرب من أوجه كثيرة أسوأ من الحرب الكبرى التى انتهت عام ١٩١٨ .

وبعد انتهاء القتال ضد السن فاين فى عام ١٩٢٢ ، شغلت فى إنجلترا مناصب مختلفة فى أركان الحرب إلى أن أرسلت فى عام ١٩٢٦ لأعمل مدرسا فى كلية الأركان .

وفى عام ١٩٣٠ ، اختارتنى وزارة الحربية لتعديل كتاب المشاة الموجز ، وكان فى هذا بادرة كبيرة من بواذر التقدير ، فقررت أن أجعل من هذا الكتاب رسالة فى الحرب يستطيع أن يفهمها ضابط المشاة ، وكان لابد من أن تقرر الكتاب لجنة من وزارة الحربية ، فجرت مناقشات حامية حول بعض النقاط ولم استطع الموافقة على معظم التعديلات التى تناولت عقيدتى بشأن استخدام المشاة فى زمن الحرب ، واقترحت آنئذ أن تنفض اجتماعات اللجنة لأنصرف إلى إعادة النظر فى الكتاب

بهدوء، فقبل اقتراحى، ووضعت بعد ذلك النص النهائى الذى حذفت منه كل التعديلات المقترحة من اللجنة، وعندما نشر الكتاب اعتبره الناس ممتازاً، وفى طليعة من اعتبره كذلك مؤلفه.

وبينما كنت مدرسا فى كلية الأركان فى كامبرلى، وقعت فى شباك الحب، وتزوجت فى ٢٧ يوليو ١٩٢٧، وولد ابنى دايفد فى ١٨ أغسطس ١٩٢٨، وتوفيت زوجتى ١٩ أكتوبر ١٩٣٧.

وفى أكتوبر ١٩٣٨، بعد أن قضيت ما يزيد قليلا على العام فى بورتموث، تلقيت الأمر باستلام قيادة الوحدات المشتركة فى شمالى فلسطين فى قمع الثورة العربية، وكان على أن أنشئ منها فرقة جديدة، الفرقة الثامنة التى ستتحذ مقرها العام فى حيفا، وكانت هذه مهمة سرتنى أعظم السرور، فأنا الآن برتبة ماجور جنرال، ولكن الإقامة فى فلسطين ستفصلنى عن دايفد، فتطوع بعض أصدقائى المخلصين بأن ينوبوا عني بالنسبة إليه، ومنذ ذلك التاريخ لم يكن باستطاعتى أن أوفر له جو المنزل قبل عام ١٩٤٨، إذ أن الحرب اندلعت عام ١٩٣٩ بعد ذهابى إلى فلسطين بوقت قصير. وفى شتاء ١٩٣٨ - ١٩٣٩، بينما كنت أقاتل فى فلسطين، عينت قائداً للفرقة الثالثة فى إنجلترا، وكانت هذه الفرقة نظامية مقرها العام فى سهل سالسبورى، وكانت تضم لواء المشاة التاسع الذى قدته فى بورتموث قبل أن أرسل إلى فلسطين، وكان على أن أتولى قيادة هذه الفرقة فى شهر أغسطس ١٩٣٩، ولكنى مرضت فجأة فى شهر مايو، ونقلت فى سيارة إسعاف إلى مستشفى حيفا، أن الصورة الشعاعية أظهرت لطخة فى الرئة، فقد ذهب الظن إلى أنى مصاب بالسل، ولما لم تحسن صحتى طلبت أن أعود إلى إنجلترا، وكنت مقتنعا بأننى سأستعيد عافيتى عندما أترك مناخ حيفا الحار الرطب، وتوجهت رأسا إلى مستشفى

ميلبانك فى لندن، حيث طلبت إجراء فحص طبي مدقق، واستمر هذا الفحص ثلاثة أيام صدر بعدها القرار بأننى لا أشكو شيئاً.

وبعد أن قضيت بضعة أيام فى الراحة، توجهت إلى وزارة الحربية، وسألت إذا كان باستطاعتى الآن أن أتسلم قيادة الفرقة الثالثة، وكانت غيوم الحرب قد أخذت تتلبد فى تلك الأثناء، وكان الجيش على أهبة التعبئة، وقيل لى إن التعيينات السابقة تلغى أتوماتيكيا فى حالة التعبئة ويبقى كل قائد فى قيادته، وكان قائد الفرقة الثالثة على وشك الإلتحاق بمنصبه الجديد، ولكنه بقى الآن فى قيادة الفرقة، فطلبت عندئذ أن أعود إلى فلسطين لاستعيد قيادة الفرقة الثامنة، ولكن الجواب كان كلا، إذ قد حل محلى قائد آخر على رأس هذه الفرقة، وقيل لى إننى أصبحت أحد الضباط برتبة ماجور جنرال ممن هم تحت التصرف، ولم يكن ذلك يناسبنى مطلقا، فبريطانيا العظمى تعباً للحرب، وأنا تحت التصرف، وأخذت ألاحق وزارة الحربية وألح فى الطلب، وفى آخر المطاف تولى الجنرال تمورت وظيفة حاكم المستعمرات ، وتسلمت أنا قيادة الفرقة الثالثة قبل بضعة أيام من إعلان الحرب.

* * * *

الفصل الرابع

بريطانيا تدخل الحرب العالمية الثانية

فى ٢٨ أغسطس، تسلمت قيادة الفرقة الثالثة، وكانت التعبئة الجزئية يومئذ جارية، أما التعبئة الكاملة فقد تقرر فى أول سبتمبر وهو اليوم الذى غزا فيه الألمان بولونيا، ووجه الحلفاء فيه إنذاراً إلى ألمانيا.

كان كثير من وسائل النقل فى فرقتي يتألف من شاحنات أتى بها من مدن مختلفة بإنجلترا وكانت فى حالة سيئة، وعندما انتقلت فرقتي من موانئ إنزالها نحو منطقة احتشادها القريبة من الحدود الفرنسية البلجيكية، أخذت السيارات المحطمة تشر على أرض الريف الفرنسى.

أما العتاد المضاد للدبابات فى فرقتي، فكان يتألف من مدافع من عيار (٢ ليبرا)، وكان سلاح المشاة ضد الدبابات البنادق من عيار (٨، ٠ بوصة)، ومارعنا إلى شراء بضعة مدافع صغيرة على عربات ذات أيد من الفرنسيين، وأعطى كل فوج مشاة عدداً منها، وفيما عدا ذلك كانت هناك قطع من عيار (٢٥ ليبرا) فى مدفعية فرقتي، مفروض أن تلعب دوراً فى القتال ضد الدبابات، وكان فى مكان ما من فرنسا تحت تصرف مقر القيادة العليا لواء دبابات.

وبدأت العمليات الفعلية فى ١٠ مايو ١٩٤٠، وفى اليوم التالى كان تشكيل الجبهة من لونغوى إلى البحر على النحو الآتى من الشمال إلى الجنوب:

١ - مجموعة الجيوش رقم (١) بقيادة الجنرال بيلوت، مؤلفة من الجيش الفرنسى الثانى، والجيش الفرنسى التاسع، والجيش الفرنسى الأول، وكانت هذه الجيوش ترابط على جبهة ممتدة من لونغوى حتى وافر، مروراً بسيدان،

وكان فى قسم الأردن - الموز من هذه الجبهة الجيشان الثانى والتاسع الفرنسيان المؤلفان على الأخص من فرق من المرتبة الثانية، وكان الجيش الأول الفرنسى يجاور جيش الحملة البريطانية، ويتألف معظمه من فرق من المرتبة الأولى.

٢ - قوات الحملة البريطانية، وهى ليست تحت قيادة الجنرال «يلوت»، بل تتلقى أوامرها مباشرة من الجنرال «جورج»، وكانت فرقتى الثالثة هى فرقة الميسرة لقوات الحملة البريطانية، وكان إلى يسارها الجيش البلجيكى.

٣ - الجيش البلجيكى، مستقلا وبقيادة ملك بلجيكا.

٤ - الجيش السابع الفرنسى، بقيادة «جيرو»، وكان فى الأصل ملحقا بمجموعة الجيوش رقم (١)، واتجهت نية الجنرال «جورج» إلى إبقائه كاحتياطى خلف الجناح الأيسر، وكان قرار الجنرال جورج هذا صحيحا، ولكن «غاملان» قرر خلاف ذلك، فأصدر أمره بأن يعمل هذا الجيش المؤلف من سبع فرق مجتازا بلجيكا باتجاه أنفرس، بغرض دعم القوات البلجيكية والهولندية، فتكبد خسائر فادحة، وعانى من نقص الذخائر، ولم يستطع أن يحصل على أية نتيجة.

وبصرف النظر عن خطأ القيادة هذا، لم تكن حالة المخابرات لتسهيل الأمور، فمنذ اليوم الذى أعلنت فيه الحرب، أصر الفرنسيون إصراراً بالغاً على أن تلزم جميع الموجات الصمت حتى أصبح من الصعب إن لم يكن من المستحيل إجراء الاتصالات على هذا النحو، ولهذا السبب كانت القوات الحليفة تكاد لا تجرى اتصالاتها فيما بينها إلا بواسطة الهاتف المدنى مما كان يشتمل على مخاطر كبيرة.

أضف إلى ذلك، أن مقر القيادة العليا لقوات الحملة البريطانية لم يقم أبدا بإدارة أية تمرينات، بجيوش أو بغير جيوش، بين اليوم الذى نزلنا فيه فرنسا عام ١٩٣٩،

واليوم الذى بدأت فيه العمليات الفعلية فى أيار ١٩٤٠، وكانت نتيجة ذلك عدم وجود خطة مشتركة أو مبدأ تكتيكى فى جميع قوات الحملة البريطانية.

وفى يوم ١٢ مايو، جرى الاتفاق على أن يقوم الجنرال «بيلوت» باسم الجنرال «جورج» بتنسيق عمليات قوات الحملة البريطانية والجيش البلجيكى، وهذا التنسيق لم يكن أبدا قيادة فعلية لجميع القوات المعنية، ومثل هذه القيادة شأن أساسى فى القتال وغاب الجنرال «بيلوت» فى ٢١ مايو بعد أن أصيب بجروح خطيرة فى حادث سيارة وتوفى بعد يومين، ولم يبق عندئذ أحد ينسق العمليات الفرنسية والبريطانية والبلجيكية، وبعد ثلاثة أيام عين أخيراً الجنرال بلانشار قائد الجيش الفرنسى الأول خلفاً للجنرال «بيلوت»، ولكن بعد فوات الأوان.

واستمر الهاتف المدنى الوسيلة الرئيسية للمخابرات، يتم عمله ضباط الاتصال والزيارات التى يقوم بها القواد وأركان حربهم، وابتداء من ١٦ مايو أخذ التقدم الألمانى يقطع الخطوط الجوية، وفى اليوم نفسه توقفت الاتصالات الهاتفية بين مقر القيادة العليا «غاملان» والمقر العام للجهة الشرقية «جورج»، وفى اليوم نفسه أيضاً قطعت جميع المخابرات المباشرة بين الجنرال جورج ومجموعة الجيوش رقم (١) «بيلوت»، ومنذ ١٧ مايو لم يبق تحت تصرف «غورت» خطوط هاتفية للاتصال بالمقر العام البلجيكى على مسرته، وبالجيش الأول الفرنسى على ميمنته وبالمقر العام للجهة الشمالية الشرقية «جورج» فى مؤخرته.

وأخيراً جرى حل مصلحة الاستخبارات، وفى ١٥ مايو أخذ الفرنسيون يواجهون المصاعب على ميمنة قوات الحملة البريطانية، وجرى الاختراق الألمانى على جبهة الجيش الفرنسى التاسع، ولم يكن لمقر القيادة العليا فى مقر هذا الجيش العام ضابط اتصال كما كان له لدى الجيش الفرنسى الأول الم رابط مباشرة على ميمنة قوات الحملة البريطانية، ونتيجة ذلك لم يحصل مقر القيادة العليا فوراً على

تفاصيل عن عملية الاختراق، ولم يبلغه الفرنسيون معلومات لا عن أوضاع جيوشهم الخاصة ولا عن وضع العدو، واتخذ عندئذ قراراً مذهباً، إذ استدعى غورت رئيس مصلحة استخباراته، الماجور جنرال «ماسون ماك فالين»، وأسند إليه قيادة قوة صغيرة مكلفة بحماية المؤخرة اليمنى لقوات الحملة البريطانية، وأخذ الجنرال معه أقدم ضابط أركان حرب في هذه المصلحة بصفة ضابط عام في أركان حرب سلاح الجو، وهو الليوثنان كولونيل «جرالد تمبلر»، واستتب ذلك أن «غورت» أصبح أكثر الوقت دون معلومات دقيقة عن العدو، ففى كل مكان، كان توزيع مهمات أركان الحرب، بين مقر القيادة العليا ومنصب القيادة، توزيعاً سيئ التنظيم منذ البداية، وكانت الخطة مجرد عمل من أعمال الهواية، وتفتقر أكثر ما تفتقر إلى اللمسة المهنية، وما قلته كاف لكى يدرك القارئ أننا - من حيث القيادة والإشراف على القوات الموجودة في فرنسا في مايو ١٩٤٠ - كنا قد خسرنا المعركة فعلاً قبل أن تبدأ، وكانت المنطقة المنوطة بفرقتى تقع جنوبى مدينة (ليل)، وكانت مهمتى فى العمليات العمل فى التحصينات الدفاعية التى يجب أن يمتد بها خط (ماجينو) وراء الحدود البلجيكية، وحتى ١٠ مايو كانت بلجيكا بلدا يلتزم الحياد بدقة، وكنا نتظر بصبر أن يهاجمنا العدو، وكان علينا إذا هوجم البلجيكيون أن نتقدم ونحتل قطاعاً على جانبى مدينة لوفان، وراء نهر ديل، ودربت الفرقة على هذه المهمة على مسافة مماثلة باتجاه الغرب، أى فى فرنسا، وأصبحنا خبراء فيما يتعلق بالانتقال مسافة طويلة أثناء الليل، محتلين موقعا دفاعيا فى الظلام ومنجزين تشكيلنا الكامل لدى الفجر ومستعدين لمواجهة الهجوم.

وفى الشتاء قرر مقرر القيادة العليا أن ترسل بعض الفرق، كل بدورها، ألوية مشاة إلى جبهة اليسار، لاحتلال مواقع أمام خط «ماجينو» تحتك بالمواقع الألمانية على خط (سيغفريد)، وقد توجهت فى يناير ١٩٤٠ لتفتيش أحد ألويتى وقضيت

هناك بضعة أيام لأقوم بجولة عامة، وكانت هذه أول خبرة لى حول الجيش الفرنسى فى حال العمل، فأتتبنى قلق جدى، وتوجهت لدى عودتى لمواجهة قائد جمحفلى، الجنرال «بروك»، فعرضت عليه مخاوفى بشأن الجيش الفرنسى وما يمكننا أن نتوقعه من هذا القطاع فى المستقبل، وكان بروك قد زار هذا القطاع بنفسه وعاد منه بالرأى ذاته.

ولست أنوى أن أصف بالتفصيل عمليات الفرقة الثالثة فى الحملة التى بدأت فى ١٠ مايو ١٩٤٠، ولكن بعض الحوادث تثير الاهتمام، فقد كانت أول مهمة علينا أن ننفذها تلك التى كنت أتوقعها بالضبط، وهى التقدم واحتلال قطاع على نهر ديل على جانبى مدينة لوفان، وقد نفذت الفرقة المهمة أحسن تنفيذ، وكان القطاع على نهر ديل محتلا من جانب فرقة بلجيكية لم تكن قد اشتبكت آنذ مع الألمان، وعندما استيقظ الجنود البلجيكيون صباح يوم ١١ مايو وجدوا فرقة بريطانية تساندهم فى القطاع، وقد وصلنا بهدوء أثناء الليل وكان أكثر البلجيكيين نياما.

وذهبت لأقابل الجنرال البلجيكى وطلبت منه أن يسحب فرقته ويسمح لى باستلام الجبهة والمحافظة عليها، فرفض قائلا: إنه لم يتلق أوامر بهذا الصدد، وأضاف أن من واجب القوات البلجيكية الحفاظ على مدينة لوفان القديمة، وكان الألمان يتقدمون، والجيش البلجيكى الذى كانت جبهته على خط قناة ألبرت يتراجع بسرعة، وكان فى القطاع كثير من القوات فوضعت لذلك فرقتى كاحتياطى خلف الفرقة البلجيكية، وأرتأيت أن أفضل سبيل لجعل البلجيكيين يرحلون والحلول محلهم هو دغدغة كبريائهم بعض الشيء، فقلت للجنرال البلجيكى: إنه لأمر أساسى ألا يكون فى هذا القطاع إلا قائد واحد مسئول هو الجنرال الذى ترابط فرقته فى الجبهة، ووضعت نفسى على هذا الأساس تحت إمرته فسر أبلغ السرور.

وبلغ النبأ مقر القيادة العليا حيث أحدث دهشة بالغة، وجاء قائد جمحفلى يرانى، ولكننى قلت له أن يطمئن بالا، فأنا أهدف إلى تنحية البلجيكيين وعندئذ سأتولى أنا الجبهة وأصبح أنا القائد المسئول.

وعندما وصل الألمان إلى نقطة يطالها مدى المدفعية وبدأ القصف ، لم أجد أية صعوبة في احتلال الجبهة التي ترابط فيها الفرقة البلجيكية، فقد انكفأت هذه إلى موقع الاحتياطي، ثم توجهت نحو الشمال والتحقت بمجموعة الجيش البلجيكي العظمى.

ولقد رويت كثيراً قصة انسحاب قوات الحملة البريطانية، والمعارك اليائسة التي نشبت، والجللاء الأخير بطريق دنكرك وشاطئها، ولقد قامت فرقتي بكل ما طلب إليها القيام به، وأعتقد أن أصعب عملية نفذناها كانت تلك التي جرت في ٢٧ مايو عندما تلقيت الأمر بوضع الفرقة على مسيرة الجبهة البريطانية وسد ثغرة كانت قد فتحت بين الفرقة الخمسين والقوات البلجيكية، وكانت هذه العملية تشتمل على تحريك الفرقة كلها ليلاً على مسافة كيلو مترين تقريباً من جبهة الفرقة الخامسة، حيث كانت لا تزال تدور معركة شديدة احتدمت طوال النهار، ولقد نفذت العملية دون أية عقبة، وسدت الثغرة في فجر ٢٨ مايو، وكم كانت مفاجأتى كبيرة حين علمت في صباح اليوم نفسه أن ملك بلجيكا سلم جيشه للألمان في ٢٧ مايو عند منتصف الليل، بينما كنت أنا أنتقل بفرقتي لأسد الثغرة المفتوحة، وإذا بي في وضع محرج، إذ بدلا من أن يكون على يسرتي جيش بلجيكي، لم يعد هناك أحد، وكان عليّ أن أتخذ قراراً سريعاً.

وقد أخذت فرقتي الثالثة مركزها على ميمنة رأس جسر دنكرك في ليل ٢٩ - ٣٠ مايو، ورابطنا على خط القناة بين (فورن) و(نيوبورت)، وكان مقرى العام يوجد في الروابي الرملية بجوار لابان، أما مقر القيادة العليا- أو ما بقى منه- فكان في منزل من منازل جبهة البحر، ولم يكن يضم إلا «غورت» نفسه وعددا من ضباط أركان الحرب.

وفي صبيحة ٣٠ مايو، جاء «بروك» يزورنى في مقرى العام، وقال لى إنه تلقى الأمر بالعودة إلى إنجلترا، وكان شديد الإنزعاج، وقال لى إننى سأتولى قيادة

جحفله، (الجحفل الثانى)، قسوجئت بذلك إذ كنت أصغر ماجور جنرال فى هذا الجحفل، وسافر «بروك» إلى إنجلترا فى المساء ذاته.

وعقد اللورد «غورت» آخر مؤتمر فى مقر قيادته العليا بجبهة البحر ظهر ٣٠ مايو لإعطاء أوامره، وحيث أننى أصبحت أقود الآن الجحفل الثانى فقد حضرت المؤتمر، وتلى علينا «غورت» البرقية التى تتضمن تعليمات الحكومة الأخيرة.

وفى مساء ٣٠ مايو، جمعت قواد فرق الجحفل الثانى، وأصدرت إليهم أوامرى من أجل الانسحاب والجلأ بطريق الشاطئ فى الليلة التالية، وفى الليلة التالية أجليت الجحفل الثانى، ولم يكن الوضع حسناً، ذلك أن بعض العبّارات المرتجلة التى أنشأناها لنبلغ عليها السفن أخذت تتحطم، واضطر كثير من الجنود إلى الذهاب إلى دنكرك، وأخيراً توجهنا نحن أنفسنا سيرا على الأقدام، إلى دنكرك التى كانت تبعد عن ذلك المكان ٥ أو ٦ أميال، ومعنا البغادير «ريتشى» وسائق سيارتى، ووصلنا عند الفجر، وركبنا مدمرة ونزلنا فى دوفر صباح اليوم الأول من يونيو.

وبفضل وضوح الرؤية البالغ لدى «غورت» فى مجاله المحدود، استطعنا أن نغادر جميعاً دنكرك، لقد رأى «غورت» بوضوح أنه قد كان عليه، - على الأقل - العودة بجنود الحملة إلى بريطانيا ومع كل فرد منهم أسلحته، وأنا معترف بفضلهم كلياً فى ذلك، وأرجو أن يكون التاريخ شاكراً له هذا الفضل أيضاً، لقد أنقذ رجال الحملة البريطانية، أما وقد أنقذوا فقد أصبح بإمكانهم أن يعودوا إلى القتال من جديد يوماً من الأيام، وهذا ما فعلوه فى سبيل هدف معين على نحو ما استطاع الألمان بعد ذلك أن يتبينوا.

الفصل الخامس

الجيش فى إنجلترا بعد دنكرك

وصلت إلى لندن مساء اليوم الأول من يونيو، وتوجهت صباح اليوم التالى إلى وزارة الحرية كى أقدم تقريراً شخصياً إلى صديقى القديم «جاك ديل».

وعلى الرغم من أننى توليت قيادة جحفل فى دنكرك، فقد طلبت وأجبت إلى طلبى أن أعود إلى فرقتى الثالثة لإصلاحها وإعدادها لما سيحدث فى المستقبل.

ولم يكن فى إنجلترا آنذ كسلاح وكوسائل نقل إلا ما يكفى لإعادة تجهيز فرقة واحدة تجهيزاً كاملاً، واتخذ القرار بإعطائها للفرقة الثالثة، وجعل هذه الفرقة جاهزة لاجتياز المانش مرة أخرى للانضمام إلى الوحدات البريطانية القليلة التى ما تزال تقاتل إلى جانب الجيش الفرنسى، وقد عين «بروك» القائد الأعلى الجديد.

وأصلحنا حال الفرقة فى (سمرست)، وتلقينا عتادنا الجديد وكنا جميعاً على استعداد لاجتياز المانش فى حوالى منتصف يونيو، ولكن فى ذلك الوقت وقعت فرنسا الهدنة فى ١٧ يونيو، فتلقت فرقتى عندئذ الأمر بالتوجه إلى ساحل إنجلترا الجنوبى، وإحتلال قطاع يضم برايتون والمنطقة الواقعة غربى هذه المدينة، وجعل هذه المنطقة فى حالة دفاع لكى تستطيع مقاومة غزو كان يعتبر وشيك الوقوع، فاكسحنا إذن الساحل الجنوبى متساقطين تساقط مجرى الثلج الزاحف من أعالى الجبال على سكان تلك المنطقة.

كان مقر فرقتى العام قرب ستايتج، فى منزل يقع شمال الروابى الرملية، وعلمت أن «ونستون تشرشل» رئيس الوزراء، يرغب فى زيارة فرقتى بعد ظهر يوم ٢ يوليو، وأنه سيصل فى سيارة ويكمل جولته فى برايتون بحيث يستطيع العودة إلى

لندن بالقطار فى المساء، وكنت متلهفا لرؤية هذا الرجل، ولقد ذهبت به إلى كلية الرماية التى يحتلها رماة «أولستر» الملكيين، وأشهدته هجوما مضادا على أرض الطيران الصغيرة الواقعة على الشاطئء والتى كان يفترض أن الألمان قد أستولوا عليها، فسر أبلغ السرور، ثم تابعتنا زيارتنا على طول الشاطئء لنصل إلى برايتون فى حوالى الساعة ١٩,٣٠، فاقترح تشرشل أن نتناول طعام العشاء معا فى فندق «رويال أليون»، وتحدثنا عن مشاكلى، خاصة عن جمود فرقتى، فقد كانت هذه الفرقة فى إنجلترا هى الفرقة الوحيدة الكاملة التجهيز والوحيدة القادرة على قتال العدو أينما كان، ومع ذلك فنحن نقوم هنا بدور جامد مكلفين بحفر الخنادق على الساحل الجنوبى، لقد كان يجب أن تحمل محلنا قوات أخرى وأن نعطى سيارات وأن يحتفظ بنا كاحتياطى متحرك للقيام بدور الهجوم المضاد، فلماذا هذا الجمود؟ واعترف رئيس الوزراء أن اقتراحى لا يخلو من رأى السديد.

وهكذا قرر واضعوا الخطط فى يوم من الأيام أن على أن أستعد لأتوجه بفرقتى إلى ما وراء البحار للاستيلاء على أرخبيل أسورس، ثم أبلغت أن الأمر لا يتعلق بأرخبيل أسورس، بل بجزر الرأس الأخضر، وأخيراً بعد عمل شاق، طلب إلى أن أعد خطة للاستيلاء على كورك وكوينستون فى أيرلندا الجنوبية بحيث يمكن استخدام المرفأ فى كل منهما كقاعدة بحرية للحرب ضد الغواصات فى المحيط الأطلسى، ولم توضع أية خطة من هذه الخطط موضع التنفيذ.

وفى يوليو ١٩٤٠ عينت قائداً للجحفل الخامس، وإلى ذلك التاريخ يعود بدء تأثيرى الفعلى على تدريب الجيش، وفى أبريل ١٩٤١ تسلمت قيادة الجحفل الثانى عشر فى مقاطعة (كنت) حيث كان من المتوقع حصول غزو لإنجلترا، وفى ديسمبر ١٩٤١ عينت قائداً لجيش الجنوب الشرقى الذى كانت منطقته تشمل مقاطعات كنت وسارى وسامسكس.

وفى مستهل أغسطس ١٩٤٢ ، كان يجب أن يجرى تمرين على نطاق واسع فى استكلندا، واقترح الجنرال باجيت- الذى كان آنئذ قائداً أعلى لقوات الداخل- أن أحضر هذا التمرين برفقته.

وكنْتُ سعيداً بأن تتاح لى فرصة مشاهدة ما تستطيع قوات أخرى أن تفعله، فتوجهت إلى الشمال فى القطار الخاص بالقائد الأعلى، وعندئذ أخذت الأحداث تتعاقب بسرعة، ففى اليوم الثانى من أيام التمرين اتصلت بى وزارة الحرية طالبة إلى العودة فوراً إلى لندن، فقد كان علىَّ أن أخلف «الكسندر» على رأس الجيش الأول وأبدأ فى العمل تحت إمرة «إيزنهاور» فى خطط الإنزال فى شمال أفريقيا الذى سيجرى فى نوفمبر ١٩٤٢ ، وقد اتفق على تسميته بعملية المشعل.

وحوالى الساعة السابعة من صباح اليوم التالى (٨ أغسطس) كنت أحلق ذقنى عندما اتصلت بى وزارة الحرية هاتفياً لتقول لى إن الأوامر التى أعطيت لى فى الليلة السابقة فى موضوع الجيش الأول وعملية المشعل قد ألغيت وأن علىَّ أن أستعد للذهاب فوراً إلى مصر لتسلم قيادة الجيش فى الصحراء، وكان «الكسندر» قد سبقنى إلى مصر ليصبح قائداً أعلى للشرق الأوسط، وسأعمل تحت إمرته.

ولقد غادرت إنجلترا بطريق الجو فى ليل العاشر من أغسطس، ووصلت إلى جبل طارق فى فجر اليوم التالى، وبقينا فى جبل طارق طوال النهار وأستأنفنا الرحلة مساء الحادى عشر من أغسطس إلى القاهرة.

وفى أثناء الرحلة فكرت فى المشاكل التى تواجهنى، وكونت فكرة فى خطوطها الكبرى، عن الطريقة التى يجب أن أحاول حلها بها.

* * * *

الفصل السادس

عقيدتى فى القيادة

غادرت بريطانيا لأمارس مهام قيادة عليا لقوات تخوض المعارك، ولقد ذكر هارى ترومان فى مذكراته أن دراسة التاريخ علمته أن القائد هو الرجل الذى يملك القدرة على جعل الناس يفعلون ما لا يريدون أن يفعلوا، وأن يحملهم على إيلاف ذلك.

وتعريفى الخاص للقيادة، هو أنها القدرة والعزم على جمع الرجال والنساء حول هدف مشترك، يضاف إليهما الخلق الذى يوحى بالثقة.

ولكن امتلاك هذه القدرة لا يكفى، فالقائد عليه أن يقول الحقيقة لاتباعه أو لمرؤوسيه، فإذا هو لم يفعل فسرعان ما سيظهر لهم ذلك وتتضاءل ثقتهم فيه، أما أنا فلم أقل دائما كل الحقيقة لجنودى أثناء الحرب، فلو أنى فعلت لتعرض سر العمليات للخطر، ولم يكن ذلك ضروريا، وإنما قلت لهم كل ما يجب أن يعرفوه لكى ينفذوا مهماتهم تنفيذا فعالا، على أن كل ما قلته لهم كان دائما هو الحقيقة، وكانوا يعرفون ذلك، فتج عن هذا قيام الثقة المتبادلة بيننا.

وعلى القائد العسكرى الحق أن يسيطر على الأحداث، فإذا هو سمح لها بأن تسيطر عليه فقد ثقة رجاله، وفى هذه الحال يكف عن أن يكون قائدا حقا.

وعلى القائد، بعد أن يكون كل شىء قد قيل وعمل، أن يمارس تأثيرا فعالا، ومدى هذا التأثير يتوقف على شخصية الرجل، على مقدار الحماس الذى هو قادر على إبدائه، وعلى اللهب الذى يشتعل فى نفسه، والجاذبية التى تشع منه وتدخل قلوب جميع الذين هم تحت إمرته.

والذى كنت أود شخصيا أن أعرفه عن القائد هو الآتى :

إلى أين هو ذاهب؟

هل يمضى فى سيره حتى الغاية؟

هل يملك الموهبة والعلم والخبرة والشجاعة؟

هل يتخذ مقراراته متقبلا كل المسئولية ، مجازفا بالأخطار إذا اقتضى الأمر؟

هل هو قادر على تخويل سلطاته لسواه ، وعلى اعتماد اللامركزية فى المنظمة التى يكون هو قد أنشأها أولا وتضم مراكز متعددة لاتخاذ قرارات معينة على نحو يجعل من الممكن تنفيذ الخطة بيسر وسرعة؟

إن مسألة التقرير مسألة حيوية ، والاتجاه الحديث هو إلى تجنب اتخاذ القرارات ، وتأجيل اتخاذها أملا بتغير الأحوال ، والنهج الوحيد الذى يتبعه القائد العسكرى هو التقرير أثناء العمل ، والدم البارد أثناء الأزمة ، وليس هذا كذلك نهجا شيا للقائد السياسى .

وعلى القائد أن يعرف ما يريد ، إن عليه أن يرى هدفه بوضوح ، ويعتهد من ثم فى بلوغه ، وعليه أن يتصرف بحيث يعرف كل واحد ماذا يريد ، ويعرف الأسس الجوهرية للخطة ، إن عليه فى الواقع أن يعطى توجيهات واضحة وأوامر جازمة ، ومن الضرورى أن يخلق ما أدعوه مناخا يعيش فيه رؤوسه ويعملون .

إن المعركة الحديثة يمكن أن تخرج عن الخط بسرعة ، ولضمان النجاح يتوجب على القائد الأعلى أن يؤمن لنفسه منذ البداية قبضة حازمة على آتة العسكرية ، فعلى هذا النحو فقط تحافظ قواته على التوازن والتماسك وتنمى طاقتها على القتال تنمية كاملة ، وهذه القبضة لا يجوز أن تعنى التدخل فى مبادرات الرؤوسين أو مضايقتهم ، فالمعركة إنما تربع فى النهاية بفضل مبادرتهم هم ، ولكن الحزم ضرورى

لتجنب نفس الخطة الأساسية بأفكار شخصية لأحد المرؤوسين فى وقت من أوقات المعركة، فالعمليات يجب أن تجرى وفقا لخطة عمل مقررة مسبقا، فإذا لم يكن هذا هو الوضع فسيفسر الأمر عن تسوية بين الأفكار الشخصية حول الطريقة التى يجب أن تجرى بها العمليات، أو هى تجرى بتيجة المواقف الناشئة عن عمل المرؤوسين وبطريقة لا تكون مطابقة للخطة المبدئية، وهناك افتراض ثالث هو انتقال المبادرة إلى العدو.

والخطة المبدئية يجب أن لا تكون أبدا جامدة إلى حد لا يستطيع معه القائد الأعلى تعديلها أو تكييفها وفق وضع تكتيكى جديد، ولكن يجب أن لا يسمح لـأى أحد سواه بأن يعد لها كما يشاء، وأن لا يسمح بذلك خصوصا للعدو.

ومن المهم تحديد المكان الذى يمكن أن يعقد فيه مؤتمر عندما تكون العمليات الفعلية جارية، وعلى القائد أن يعرف ماذا يريد أن يفعل وماذا يمكن فعله، وذلك بالتنبؤ وبالبحث مع أركان حربه، وبالبقاء على اتصال وثيق مع قواد وحدته، فإذا وجد من الضروري عقد مؤتمر معهم فيجب دائما أن يتجنب استدعائهم لإعطائهم أوامره، إذ عليه هو أن يذهب إليهم، فمثل هذا المؤتمر المعقود بغية إلتقاط الأفكار لا يدعو إليه إلا قائد ضعيف.

ومن الخطأ الاعتقاد أنه يكفى إعطاء الأمر، فإن عليك أن تتأكد من أنه قد نفذ بالروح التى أصدرته أنت بها.

وعندما ينهى القائد الأعلى رسم الخطوط الكبرى لخطة وطريقة تنفيذ هذه الخطة، عليه أن يكتب بنفسه الأوامر الأولى والتوجيهات الخاصة بالعمليات، ولا يسمح لأركان حربه بأن يقوموا مقامه فى ذلك، وإنما ينصرف أركان حربه ومرؤوسوه إلى عملهم فى التفاصيل مستندين إلى أوامر القائد الأعلى الخطية، وهكذا تقل الأخطاء إلى أدنى حد.

وليس هناك قائد مهما بلغت عظمته يستطيع الحفاظ على مركزه إذا لم يحرز إنتصارات، إن القتال يقرر كل شيء، فكيف تحوله إلى إنتصار؟

والمادة الأولية التى يجب أن يستخدمها القائد هى الإنسان، وكثير من القادة لم يدركوا هذه المسألة الأساسية إدراكا كاملا، ولم يفهموا كل تشعباتها، وكان هذا أحد الأسباب التى أدت إلى ما منوا به من فشل.

وفى الحرب يجب أن يكون الجيش صلبا كالفلولاذ، أما عنصره الأساسى فهو الرجال، ولاستخدامه استخداما ملائما لابد من فهم الطبيعة البشرية، فإذا كان احتكاكك بالعنصر البشرى باردا وغير شخصى فلن يكون بإمكانك أن تحرز شيئا، أما إذا كسبت ثقة رجالك فأصبحوا يشعرون أن مصالحهم فى أمان بين يديك فعندئذ تكون قد امتلكت قوة لا تقدر، حتى لتصبح أعظم المطالب ممكنة التحقيق.

ومعنويات الجندى هى أهم عامل فى الحرب، وأفضل سبيل للحصول على معنويات عالية هى النجاح فى القتال، والقائد الجيد هو الذى يكسب معاركه بأقل ما يمكن من الخسائر، ولكن المعنويات تبقى مرتفعة حتى بعد تكبد خسائر كبيرة شرط أن تريح المعركة، وأن يعرف الجنود أن الأرواح لم يفرط بها، وأن كل ألوان العناية تقدم إلى الجرحى، وإن القتلى قد جمعت جثثهم ودفنت بكل احترام.

ومن المهم أن يدرك القائد أن جميع الرجال مختلفون، بعض الجنود يفضلون القتال نهارا، وبعضهم يؤثرون القتال ليلا، وبعضهم أفضل فى معركة متحركة سريعة، وبعضهم ذوو مزاج أنسب للقتال فى ميدان محدود، ولذلك تختلف جميع الفرق، والأمر نفسه ينطبق على القادة، فجميعهم مختلفون، بعضهم مهيا للقتال المتحرك، وبعضهم مهيا للقتال الثابت، والقادة هم أيضا يجب أن يتم اختيارهم حسب المهمة التى يكلفون بتأديتها.

والنقطة التالية على الصعيد البشرى أيضا هى اختيار القادة، وكنت أقوم شخصا بتسمية الضباط الذين سيتولون قيادة من القيادات، بما فيهم قواد الفوج أو الفيلق،

والمعيار الوحيد الذى اعتمدته، كان الجدارة وموهبة القيادة والقدرة على الاضطلاع بالواجب وحرصت على أن أعرف جميع القواد وعلى أن يكون مستواهم عالياً.

إن من أهم مزايا القائد العام قدرته - دون ريب - على إشعاع الثقة التى له فى الخطة وفى العمليات حتى عندما لا يكون هو فى ذات نفسه متأكداً كل التأكد من النتيجة فعلى القائد الأعلى أو قائد الجيش إذن أن يكون خبيراً بالرجال وأن يكون قادراً على وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب وفى الوقت المناسب. ولكى تطبق هذه الفلسفة إزاء الذين يعملون تحت إمرتك، عليك أن تراقب معنوياتك أنت مراقبة دقيقة، فكل معركة هى فى الواقع صراع بين إرادتين: إرادتك، وإرادة القائد الخصم، فإذا أخذ الهلع يستولى على قلبك عندما تكون النتيجة غير أكيدة فمن المحتمل أن يربح المعركة خصمك.

وإنها لضرورة مطلقة أن يتجنب القائد الغرق فى التفاصيل، وفى إبان المعركة على القائد الأعلى أن يفكر باستمرار فى الطريقة التى يستطيع أن يهزم بها العدو فإذا غرق فى التفاصيل تعذر عليه ذلك، إذ يغيب عن ناظره ما هو جوهرى، ويرى نفسه مسوقاً إلى اتخاذ قرارات لن يكون لها إلا تأثير ضئيل على المعركة، إن التفاصيل هى من شأن أركان الحرب، وما من قائد أعلى يهتم يومياً بالتفاصيل ولا يجد الوقت للتفكير فى جو من الهدوء، يستطيع أن يضع خطة سليمة لمعركة من المعارك على مستوى عال، أو إدارة العمليات بفعالية على نطاق واسع.

أما لجهة العمليات فعلى القائد الأعلى أن يضع خطة أساسية للحملة التى يواجهها، وعليه دائماً أن يحتاط لكل معركة، وعليه أن يحاول قراءة فكر خصمه، ويشعر سلفاً بردود فعل العدو على حركاته هو، ويتخذ التدابير السريعة لتفادى حدوث تدخل من جانب العدو فى خطته، ويجب أن يكون فكره واضحاً، وأن يكون قادراً على تمييز ما هو أساسى من بين مجموعة العوامل التى تغشى كل مشكلة.

وخطه العمليات يجب أن يضعها دائما القائد الأعلى، ولا يجوز أن يفرضها عليه أركان الحرب أو تفرضها عليه الظروف أو يفرضها العدو، وعليه أن يوفق بين ما هو مرغوب فيه استراتيجيا وبين ما هو ممكن تكتيكيا بالقوى المتوفرة لديه، فإذا هو لم يفعل ذلك فالأمل ضعيف في أن يربح، وعليه أن يميز بين ما هو ممكن مع شيء من الحظ وما هو مستحيل، فهنا تكمن دائما المشكلة، وفي المعركة يجب أن تكون قيادة العمليات مباشرة وشخصية عن طريق قيام القائد الأعلى بزيارات لمختلف المقرات العامة حيث يعطى الأوامر شفها.

والقيادة يجب أن تكون مباشرة وشخصية، وفي سبيل هذه الغاية ليس أئمن من جهاز مؤلف من ضباط اتصال أثناء المعركة.

ومن المهم إدراك أن الممارك إنما تربح قبل كل شيء في قلوب الرجال، فإذا فهم القائد العسكري ذلك وتصرف وفقا له فسيكسب دون عناء ثقة رجاله.

وخلص القول أنني لا أعتقد أن بإمكان قائد أعلى اليوم أن يلهم جيوشا كبيرة أو وحدات بسيطة أو حتى الجنود، وأن يجعلهم يحققون انتصارات عظمية إذا لم يكن يتحلى بالإيمان، إن عليه أن ينفخ إيمانه في قواته ويقودها بهذه الروح.

وعليه أن يتأكد باستمرار من أن الهدف الذي تسعى إليه هذه القوات، وقد عرض لها بوضوح، هو بالفعل الهدف الصالح، فإذا هو لم يفعل ذلك لا يمكنه الأمل بنجاح مستديم.

إن هذا ليس إلا شرحا موجزا لموضوع كبير للغاية.

* * * *

الفصل السابع الجيش الثامن

هبطت في مطار قريب من القاهرة في صباح يوم ١٢ أغسطس، فاستقبلت هناك، ثم توجهت إلى فندق ميناهاوس قرب الهرم الأكبر، حيث كان ينزل الجنرال «أوكنلك»، وبعد أن استحمت وتناولت الفطور، توجهت إلى المقر العام لقيادة الشرق الأوسط في القاهرة، وقد وصلت إليه بعد الساعة العاشرة بقليل وما لبثت أن أدخلت إلى مكتب «أوكنلك»، وأدخلني «أوكنلك» إلى غرفة الخرائط التابعة لمكتبه وأقفل الباب، وكنا وحيدين، فسألني هل أنا أعلم بأنه راحل، فأجبت بالإيجاب، ثم عرض لي خطته في العمليات، تستند على غاية واحدة هي أن الجيش الثامن يجب أن نحافظ عليه بأي ثمن، فلا يجوز أن يعرض للتدمير في المعركة، فإذا هاجم «رومل» بقوة - كما كان يتوقع أن يحدث قريباً - فعلى الجيش الثامن أن يتراجع إلى الدلتا، وإذا لم يكن ممكناً الاحتفاظ بالدلتا والقاهرة فعلى الجيش الثامن أن يتراجع باتجاه الجنوب نحو النيل، أو يتراجع - كامكانية أخرى - إلى فلسطين، وقد أعدت الخطط الاحتياطية لنقل المقر العام لقيادة الجيش الثامن إلى النيل، وقد استمعت بدهشة إلى هذه الخطط، وطرحت على الجنرال «أوكنلك» سؤالاً أو سؤالين، ولكن سرعان ما شعرت أنه إنما يجد في كل سؤال تعديلاً مباشراً للخطة التي اختارها، ولذلك عدت فلزمت الصمت، فقال لي عندئذ: إن عليّ أن أذهب في اليوم التالي إلى الصحراء، وأقضى يومين في المقر العام لقيادة الجيش الثامن كي آخذ فكرة عن الموقف، وأضاف إنه ما يزال قائداً للجيش الثامن، وقد كلف «رامسدن» بأن يتوب عنه، وأن عليّ ألا أتسلم القيادة قبل ١٥ أغسطس، وهو التاريخ الذي سيسلم فيه هو قيادته إلى «الكسندر»، وأضاف: أنه في حال قيام العدو

بهجوم أو حدوث أزمة ما فسيستوجه فوراً إلى المقر العام لقيادة الجيش الثامن، ويستعيد القيادة من أيدي «رامسدن»، وقد ظهر لى كل ذلك غريباً، فما لبثت أن انسحبت بأسرع ما استطعت وبكل تهذيب.

وذهبت أبحث عن الكسندر، فوجدته فى المقر العام هادئاً واثقاً، وعرضت عليه خطتى على الفور، وكانت تلخص فى أن ننشئ أولاً قوة احتياطية للجيش الثامن، مدرعة إلى حد بعيد، شبيهة بقوة «رومل» المدرعة، فأعلن موافقته على ذلك ولكنه لم يكن قد أصبح بعد هو القائد الأعلى، وكان واضحاً أنه لا فائدة من بحث هذا الموضوع مع «أوكنلك» أو رئيس أركان حربيه اللذين سيترك كلاهما منصبه قريباً، فرحت لذلك أرى نائب رئيس الأركان الماجور جنرال «السرغوت هاردينج»، وكان يجهل ماذا نفعل، (الكسندر وأنا)، فى القاهرة فأخبرته بذلك، ثم عرضت له كل خطتى وسألته إذا كان يستطيع تشكيل القوة التى أرغب فى إنشائها من الأجزاء والقطع المبعثرة فى مصر، وكان ينتظر وصول ٣٠٠ دبابة «تشيرمن» من أمريكا إلى السويس فى ٣ سبتمبر، وهذه الدبابات يمكن أن تجهز الفرق المدرعة، فأجابنى بأنه سيهتم بالأمر، واتفقنا على أن أعود لأخذ جوابه فى الساعة السادسة من مساء اليوم نفسه، مضيفاً أننى سأطلب من «السكندر» أن يرافقنى.

وفى الساعة السادسة مساء عدنا، «الكسندر» وأنا إلى مقر القيادة العليا لرؤية «هاردينج»، فقال لنا: أنه يستطيع أن يشكل الجحفل الذى نريده، وسيكون الجحفل العاشر ويتألف من:

• الفرقة المدرعة الأولى.

• الفرقة المدرعة الثامنة.

• الفرقة المدرعة العاشرة.

وكل واحدة من هذه الفرق تشتمل على لواء مصفح واحد، ولواء مشاة واحد، وقوات تابعة للفرق.

* فرقة نيوزيلندية مؤلفة من لوائى مشاة ولواء مصفح واحد.

ووجدنا هذا رائعا بالفعل، فطلبنا من «هاردينج» أن يمضى قدما فى تحقيقه.

وفى الساعة الخامسة من صباح ١٣ أغسطس غادرت بالسيارة سفارة بريطانيا العظمى متوجها إلى الصحراء.

واستقبلنى الجنرال «رامسدن» المتسلم عمليا قيادة الجيش الثامن، وقد عرض لى الموقف وطرح عليه أسئلة عن خطط تراجع الجيش فى حال قيام «رومل» بهجوم، وكانت بعض أوامر التراجع قد أعطيت فعلا ولكنها كانت غير واضحة، وبذلت قصارى جهدى لأحملة على أن يقول لى بالضبط ماذا تم فعله؟، فقد كان يسود كل ذلك جو من الغموض.

ولم يكن المقر العام للجيش على صلات وثيقة مع المقر العام لسلاح الجو الصحراوى، وظهر لى بوضوح أن الوضع كان غير منطقى على الإطلاق، بل هو فى الواقع وضع خطر، فقررت العمل على الفور، وكنت تلقيت الأمر بالألا اتسلم قيادة الجيش الثامن قبل ١٥ أغسطس، وكنا لا نزال فى ١٣ منه، وكنت أعلم أنه لا فائدة من استشارة مقر القيادة العليا، وإن على أن آخذ المسئولية كاملة، فطلبت من الجنرال «رامسدن» أن يعود فوراً إلى جحفله، فظهرت عليه الدهشة، إذ كان قد عهد إليه بالقيادة العملية للجيش، ولكنه نفذ طلبى، وبعد الغداء، أرسلت بىرقية إلى مقر القيادة العليا أقول فيها: إننى تسلمت قيادة الجيش الثامن اليوم الثالث عشر من أغسطس، ابتداء من الساعة ١٤، وكان فى ذلك تجاوز من جانبى وعدم طاعة للأوامر، ولكنه لم يكن هناك مجال للعودة إلى الوراء، وألغيت على الفور كل الأوامر السابقة المعطاة فيما يتعلق بالتراجع، وأوضحت أنه لن يكون هناك تراجع فى

حال قيام العدو بهجوم، وإنما سنقاتل على الأرض التي تحت أيدينا ونفضل الموت في أماكننا.

وفي تمام الساعة ١٨,٣٠ اجتمعت مع أركان الحرب، وأوضحت لهم أن الأوامر التي تلقيتها من «الكسندر» بسيطة جدا، إنها تلخص في تدمير «رومل» وجيشه، وأعلنت تعيين «دي غوينغواند» في منصب رئيس أركان حرب الجيش الثامن، وقلت إن كل أمر صادر عنه يجب أن يعتبر صادرا عني ويجب أن ينفذ على الفور.

وسرعان ما ثبت لي بعد أن تحدثت مع «دي غوينغواند» أن جميع الدلائل تحمل على توقع قيام «رومل» بهجوم قريب، فهو سيحاول محاولة أخيرة الاستيلاء على القاهرة والأكندرية، وتأمين الدلتا لنفسه، وفي هذه الحال قد يوجه جهده الرئيسي إلى الجناح الجنوبي، منعظا بعد ذلك إلى اليمين ليلتف وراء الجيش الثامن ليبلغ القاهرة فعليه قبل كل شيء تدمير هذا الجيش، وهكذا تبدت لي بكل وضوح ملامح خطتي فالجناح الشمالي يجب أن يعزز على جبهة الجحفل الثلاثين، وأن يحصن تحصينا كبيرا بواسطة حقول الألغام والأسلاك الشائكة بحيث يمكن حمايته بأقل عدد ممكن من القوات، ولم أكن بحاجة بعد لزيارة هذه الجبهة في هذا الحين، أما الجناح الجنوبي فيجب أن يدرس بعناية، وإليه يجب أن أتوجه دون تأخير، وكان يلزمني كذلك قائد جديد للجحفل الثالث عشر على هذا الجناح، فلم يكن أحد قد عُيِّن بعد خلفا لغوت.

وأمضيت النهار في تفتيش الأرض على الجناح الجنوبي وفي ربط الجحفلين، وتبينت على الفور أهمية نقطتين مشرقتين هما: مرتفعات الرويسات ومرتفعات علم حلفا، وكانت كلتاها هامة، ولكن مفتاح كل موقع (العلمين) هو علم حلفا، وهي مرتفعات تقع على بعد عدة أميال وراء خط العلمين وجنوب شرقى الرويسات، ولم يكن فيها دفاع، إذ لم تكن هناك قوات متوفرة لهذا المطلب.

وفكرت طويلاً فيما سمعته عن معارك المدرعات في الصحراء، وبدأ لى أن ما يحبه رومل هو أن يدعنا نهاجمه بدباباتنا، فيستعمل عندئذ دباباته خلف ستار من المدفعية المضادة للدبابات، فيخضع دباباتنا ويبقى أخيراً هو سيد الساحة، وحرصت على أن يحدث الأمر على خلاف ذلك إذا ما قرر «رومل» مهاجمتنا قبل أن نصبح مستعدين لشن هجوم واسع النطاق ضده، فلن أسمح لدباباتنا باللاحاق به، وإنما سنبقى ثابتين فى موقع العلمين، وسنحافظ على مرتفعات الرويسات وعلم حلفا، وندع «رومل» يستमित ضدهما، وسنخوض معركة ثابتة فلا تتحرك قواتى أبداً، وعندئذ ستقدم دباباتنا نصف المدفونة فى التخم الغربى لعلم حلفا.

إن كل الخطوط العامة لخططى الفورية من أجل تعزيز موقع العلمين قد أصبحت واضحة فى ذهنى، فلقد كنت مصمماً على أن أجعل هذا الموقع على جانب كبير من القوة كى نستطيع أن نبدأ استعداداتنا لشن هجومنا الكبير دون أن نشغل بأى هجوم يقرره «رومل»، وكانت كل المعلومات تحمل على الاعتقاد بأنه سيشن الهجوم فى أواخر الشهر إذ يكون القمر بدرًا، وكنت أريد أن أبدأ قبل ذلك استعداداتى لمعركة العلمين والمضى فى الاستعدادات مهما فعل «رومل».

وبحثت الموضوع مع «دى غوينغواند»، وكررنا مطالبة مقر القيادة العليا بأن يرسل فوراً الفرقة الرابعة والأربعين إلى الجيش الثامن وبأن تتمركز بطريقة تتمكن معها من الدفاع عن مرتفعات علم حلفا، فلن يبقى لدى أى قلق متى حافظت على هذه المرتفعات فرقة كاملة محصنة خير تحصين وتدعمها دبابات ثابتة دعماً ملائماً.

وطلبت أن ترسل إلى بعد ذلك فرقة أخرى هى الفرقة الحادية والخمسين، وقد بدأت هذه الفرقة تصل إلى السويس، وكان على أن أدع للجحفل الثالث عشر أمر الاهتمام بتفاصيل الخطة التكتيكية على الجناح الجنوبى، ولكن فى ذلك الحين لم يكن لهذا الجحفل قائد، فقررت أن أطلب إلى «الكسندر» أن يستقدم على الفور من إنجلترا وبالطائرة الجنرال «هوروكس» ويسلمه قيادة الجحفل الثالث عشر.

وقد قام رئيس الوزراء بزيارة الجيش الثامن فى ١٩ أغسطس لدى عودته من موسكو، فأرخته الجبهة وشرحت له خططى لإحباط هجوم «رومل» المنتظر، وأفكارى فيما يتعلق بهجومنا نحن، وقضى الليل معى فى مقرنا الجديد على الشاطىء قرب برج العرب، واستحم فى المتوسط قبل تناول العشاء.

وعندما أصبح فى اليوم التالى على وشك الرحيل، رجوته أن يسطر لى كلمة فى سجلى الخاص، فخط فيه الأسطر التالية ذات الطابع الشخصى:

«عسى أن تحمل ذكرى بلنهايم التى تصادف مع البدء بمباشرة القيادة الجديدة إلى قائد الجيش الثامن وقواته، المجد والحظ اللذين يستحقونهما بكل تأكيد».

ونستوڤ .س. تشرشل

٢٠ أغسطس ١٩٤٢

* * * *

الفصل الثامن

معركة علم حلفا

٣١ أغسطس - ٦ سبتمبر ١٩٤٢

لم أكن أستطيع أن أباشر الهجوم، بل كان يجب أن يتيح لى «رومل» فرصة ذلك، لكن كان لابد للحصول على كل الفائدة من أن أتنبأ على وجه الضبط بخطة هجومه. وأحدد مسبقا كيف أتمكن من دحره، ولم يكن هذا بال مطلب غير العسير. وكان جهاز الاستخبارات لدى مقتنعا بأن اختراق مواقعنا سيحدث فى الجناح الجنوبي، يتبعه إنعطاف نحو اليسار على أن تتجه مدرعات رومل نحو مرتفعات علم حلفا والرويسات، وكان هذا هو أيضا رأى، وقد استندت خططى إلى هذه الرؤية. وقررت أن تحتل الفرقة الرابعة والأربعون بقوة مرتفع علم حلفا، وأن أضع دباباتى بالضبط جنوبى طرفه الغربى، وإذا ثبت لى إن هجوم العدو الرئيسى سيتجه نحو المرتفع فقد وضعت مشروعا لتحرك مدرعات المنطقة الواقعة بين غربى المرتفع والمواقع النيوزيلندية من خط العلمين الرئيسى، وبلغ يقينى بأننى سأضطر إلى حمل دباباتى على القيام بهذه الحركة، حداً جعلنى أمر بإجراء تجربة عليه، وعندما جرت هذه التجربة بالفعل صبيحة اليوم الأول من سبتمبر كان لدى نحو ٤٠٠ دبابة نصف مدفونة فى التراب ومتشرة وراء ستار من المدافع المضادة للدبابات من عيار ٦ ليرا.

وأعطيت الأوامر الصارمة بأن لا تندفع الدبابات ضد قوات «رومل»، بل عليها أن لا تغادر مكانها، وأن يتحطم العدو ضدها ويتحمل خسائر فادحة.

وكان واضحاً أن «رومل» لن يتجاهل بسهولة وجود قواتى فيتجه نحو القاهرة مندفعاً فى خط مستقيم نحو الشرق، إذ لو فعل ذلك لانتقضت ٤٠٠ دبابة على مؤخراته وقضت على جيشه.

إذن فقد قررت أن يبقى جناحى الجنوبي الأقصى متحركا، وأن تتولى الفرقة المدرعة السابعة جبهة واسعة وتراجع إذا حصل الهجوم ، فإذا قام جيش رومل بانعطاف نحو اليسار و(علم حلقا)، فعلى الفرقة المدرعة السابعة أن تضايقه من الشرق ومن الجنوب.

وخضنا المعركة حسب الخطة الموضوعة، فعندما اصطدمت قوات «رومل» بمواقعنا القوية لم تتمكن من التحرك، وقتلنا عليها النار من جميع الجهات وقذفها سلاح الطيران الصحراوى بالقنابل، وكانت النتائج مشهودة، فبعد بضعة أيام اضطر العدو أمام خسائره الجسيمة فى الدبابات والسيارات غير المصفحة إلى الانسحاب.

ولقد كان من أهم العوامل التى ساعدت على إجبار العدو على الانسحاب نشاط سلاح الطيران الصحراوى بإمرة مارشال الجو «كاننجهام»، وقد عمل الجيش وسلاح الطيران وفق خطة واحدة مترابطين أوثق الترابط.

وكان هناك عامل ذو أهمية كبرى على الصعيد الجوى، هو القرار الذى اتخذه مارشال الجو «تيدر» بإرسال قاذفاته من طراز «ولنجتون» تقصف (طبرق) وراء هجوم «رومل» بحيث تبخر أمل القائد الألمانى بالتموين السريع، وكان هذا هو الحافز الذى جعل «رومل» يقرر التخلي عن الهجوم، فلقد حاقت به الهزيمة، ونقص البترول كان يعنى بالنسبة إليه استحالة النهوض، فقد كان «تيدر» يحول بينه وبين ذلك.

ولقد حدث هجوم «رومل» فى ليل ٣١ أغسطس، وعندما علمت أن قوات رومل آخذة الوجهة المرتقبة، أصدرت أمرى بالقيام باندفاعة جنوبى قطاع الفرقة النيوزيلندية لإغلاق الثغرة التى دخل منها العدو إلى مواقعنا، وكان رد فعل العدو فوريا وعنيفا، إذ تراجع بسرعة نحو منطقة حقول ألغامنا التى منها جاء، فتركناه هناك وأوقفت إندفاعاتنا وكان يناسبنى على كل حال أن تتجمع قوى جيشه على الجناح الجنوبى، إذ كنت أنوى أن أوجه ضربتى الرئيسية فيما بعد على القسم الشمالى من الجبهة.

وهكذا انتهت معركة علم حلفا على النحو الذى أردته، وكان عمل الجحفل الثالث عشر على الجناح الجنوبي مطابقا لما كنت أرغب فيه، فقد عمل هوروكس وفق الخطة الأساسية كليا.

وأخيرا فإن المعركة أعطت ما كنت أتوقع منها، فالجيش الثامن، بالإضافة إلى أنه استعاد معنوياته، قد أثبت كفاءاته تحت إمرة قائده الجديد، فلقد أحرزنا النصر قوادا وأركان حرب وقوات بالتعاون مع سلاح الطيران.

وأستأنفنا استعداداتنا لمعركة العلمين، ولكن بعض المسائل كانت تتطلب قرارا فوريا قبل الانتقال إلى التنفيذ.

وقررت أنه، لتشكيل الجيش الثامن فى سبيل الغاية الموكولة إليه، يجب أن أركز اهتمامى على ثلاث نقاط أساسية هى: القيادة، والتجهيز، والتدريب، وكان فى كل من هذه النقاط نقص.

وكنت بحاجة إلى ثلاثة قواد جحافل من الطراز الأول، وكان «هوروكس» واحداً منهم للجحفل الثالث عشر، وقد أثبت جدارته فى معركة علم حلفا، وقدرت أنه من الضروري إبدال لامسدن على رأس الجحفل الثلاثين، فطلبت المايجور جنرال السر «أوليفرليز»، الذى كان يقود فى إنجلترا فرقة الحرس المدرعة، فجاء بالطائرة دون تأخير، وبعد مشاورات طويلة مع «الكسندر»، وافقت على تسليم قيادة الجحفل العاشر إلى «لامسدن»، وكان قائدا للفرقة المدرعة الأولى فى الصحراء، وقررت كذلك أنه من الضروري تعيين قائد جديد للفرقة المدرعة السابعة، فطلبت «هاردنج» من مقر القيادة العليا فى القاهرة.

وإذا نجحنا فى أن نفتح فى خطوط «رومل» الدفاعية ثغرة نتدفق من خلالها، فسيكون للمدفعية دور هام بشكل خاص، وخلصت إلى أنه يجب أن يكون لى ضابط مدفعية جديد فى مقرى العام، وطلبت أن يستدعى من إنجلترا البريغادير «كيركمان»، الذى كنت أعتبره أفضل ضابط مدفعية فى الجيش البريطانى.

وكنت أحتاج أيضاً إلى رئيس للكهنة الواعظين من الدرجة الأولى، وبعد تحريرات واسعة وجدت الرجل الذى أبحث عنه فى شخص «هيوز» الذى كان رئيس واعظين فى إحدى الفرق، وقد ظل «هيوز» معى حتى نهاية الحرب، ثم أصبح الكاهن العام للجيش، وكان على رأس جهازى الإدارى البريغادير «روبرتسون»، وكان ضابطاً من أقدر الضباط، ولم تراودنى يوماً أية مخاوف فيما يتعلق بالمصلحة التى يديرها، وكان تحت إمرته مساعد فعال جداً فى شخص اللبوتان كولونيل «مايلزجراهام»، وعندما غادرنا «روبرتسون» على إثر ترقيته حل محله «جراهام» على رأس المصلحة، وبقي معى حتى نهاية الحرب.

ويجب أن أذكر أيضاً «بلتشم»، وكان مكلفاً بشئون أركان الحرب والتنظيم عندما وصلت إلى الصحراء، وكان ضابطاً لامعاً، وبعد أن تركنى فترة من الزمن ليصبح أولاً ماجور (لواء) ثم قائداً لفيلق مدرع، عاد إلى مقر قيادتى العليا وبقي معى حتى نهاية الحرب كرئيس لأركان حرب العمليات.

وأخيراً ألفت نظرة على تنظيم مصلحة الاستخبارات فى مقر قيادتى العليا، فاكشفت فيه ماجورا من حرس التين الملكى، يدعى «وليامز»، ولم يكن «وليامز» على رأس مصلحة الاستخبارات عندى، ولكنى عازمت على أن يصبح رئيساً لهذه المصلحة قريباً، وقد أمضى بقية الحرب كلها معى.

وبعد أن حلت مشكلة القيادة، وأجريت التغييرات الضرورية، ارتاحت نفسى إذ وجدت بين يدى هيئة تستطيع دون صعوبة القيام بالمهمة التى تستظرها، وقد بقى كثيرون من أعضاء هذه الهيئة فى أركان حربى حتى نهاية الحرب، وأبرزهم «دى غوينغواند»، و«جراهام»، و«هيوز»، و«بلتشم»، و«وليامز».

لقد لحق بى الضباط الخمسة المذكورون آنفاً إلى مجموعة الجيوش الحادية والعشرين عندما تركت الجيش الثامن، فما كان يمكن أن يتاح الوقت لتشكيل هيئة جديدة قبل التزول فى نورماندى.

الفصل التاسع معركة العلمين

٢٣ أكتوبر - ٤ نوفمبر ١٩٤٢

لقد وقعت معركة علم حلفا إيان إستعداداتنا لشن هجومنا، فأخبرتنا بعض الشيء، وكانت المشكلة الأساسية التي واجهتنا بعد معركة (علم حلفا) صعبة الحل، فقد وجدنا أنفسنا وجها لوجه مع قوات «رومل» بين البحر ومنخفض القطارة على مسافة ٤٥ ميلا، وحصن العدو خطوطه الدفاعية إنى درجة لم يعرف لها مثل حتى ذلك التاريخ فى الصحراء، وشمل هذا التحصين حقول ألغام عميقة وواسعة حتى لم يبق هناك جناح مكشوف.

وكانت المشكلة ما يلى:

- ١ - وجوب فتح ثغرة فى مواقع العدو.
- ٢ - استخدام هذه الثغرة لعبور الجحفل العاشر المدرع والمؤلف من قوات متحركة إلى أراضى العدو.

٣ - القيام بعد ذلك بعمليات من شأنها تدمير قوات «رومل».

وكانت هذه عملية ضخمة، فكيف السبيل إلى تحقيق أثر المفاجأة؟

لقد كاد يكون مستحيلا أن نخفى عن العدو أننا ننوى شن هجوم، فقررت وضع خطة للمفاجأة التكتيكية بأن نخفى عن العدو الأماكن الحقيقية المضبوطة التى سنوجه إليها الضربة وتاريخ توجيهها، وكان هذا يقتضى خطة هامة تستهدف خداع العدو. وكان يلزمنا وقت لكى نستطيع أن نتصر، وكنا نتظر كمية من العتاد، وكان على الجيش أن يتدرب على استعمالها ويتمرن على المهمات التى يجب أن يؤديها،

ولدى وصولى وعدت الجيش الثامن بالآ نشن هجومنا قبل استكمال الاستعداد، ولم يكن ذلك ممكنا قبل أكتوبر الذى يصادف البدر ٢٤ منه، وقررت أن أشن الهجوم فى ليل ٢٣ أكتوبر، وأبلغت بذلك «الكسندر»، وكان جواب «هوايتسهول» سريعا، تلقى «الكسندر» رأيا من رئيس الوزراء يقول بوجوب حدوث الهجوم فى سبتمبر بحيث يتوافق مع بعض الهجمات الروسية، ومع عمليات الإنزال الحليفة التى كان يجب أن تحدث فى مطلع نوفمبر فى الطرف الغربى من ساحل شمال أفريقيا «عملية المشعل»، وجاء «الكسندر» لتتفق على الجواب الذى يجب أن يرسل، فقلت له: أن استعداداتنا لا يمكن أن تنتهى فى الوقت المناسب لشن هجوم فى سبتمبر، وأن القيام بهجوم فى هذا التاريخ سيصاب بالفشل، وقد أيدنى «الكسندر» فى ذلك، وأرسل الجواب بالمعنى الذى تمنيت أن يصاغ فيه، وكانت أسهمى مرتفعة بعد معركة علم حلفا، فلم نعد نسمع بعد ذلك أبدا من يتحدث عن هجوم فى أيلول.

ولقد علمت بأنه قيل إن خطط معركة العلمين وخطط سير الحرب فى إفريقيا بعد هذه المعركة قد وضعها «الكسندر» فى مقر القيادة العليا للشرق الأوسط، وأننى لم أفعل شيئا سوى تنفيذ هذه الخطط، وهذا غير صحيح، فجميع خطط العلمين والخطط التى وضعت فيما بعد، إنما وضعت فى مقر قيادة الجيش الثامن، ولقد كنت دائما حريصا أن يكون «الكسندر» على اطلاع كامل، ولكن لم يناقش خططى فى تفاصيلها، فضلا عن أنه لم يقترح خططا شخصية، فلقد كانت له بى وبأركان حربى أيضا ثقة مطلقة، فما يكاد يعرف ماذا نريد حتى يساعدنا مساعدة رائعة ولم يرفض لنا يوما من الأيام شيئا، ولولا هذا الدعم الكريم الذى لم ينقطع فى أى وقت لما تمكنا بالتاكيد من تأدية مهمتنا، لقد كان «الكسندر» القائد الأعلى المثالى، وقد وضع فى شخصى ثقته الكاملة.

وفى الساعة ٢١,٤٠ من مساء يوم ٢٣ أكتوبر، بدأ نحو ألف مدفع إطلاق النيران فى رماية سديدة، وانتقل الجيش الثامن، الذى كان لديه نحو ١٢٠٠ دبابة،

إلى الهجوم شن الهجوم فى ٢٣ أكتوبر طبقا للخطة الموضوعة، وكانت المنطقة كلها حقل ألغام ضخم، والممران فى الشمال لم تكمل الفرق المدرعة التابعة للجحفل العاشر فتحهما فى الساعة الثامنة من صباح ٢٤ أكتوبر، وكنت معتمدا على أن تعتمد الفرق المدرعة وفقا لأوامرى إلى شق طريقها بمقاتلة العدو، ولكنها أبدت بعض التلكؤ فى فعل ذلك، وشعرت قبل الظهر أنها بقيت جامدة، فاستدعيت «لامسدن» وأعطيته الأمر بأن يحث قواد فرقه مضييفا أنهم إذا استمروا فى التردد فسأنحيهم عن قياداتهم وأعين مكانهم قادة أكثر حيوية، وأسفر هذا التدخل من جانبى عن نتائج سريعة لدى أحد الفرق المدرعة، ففى حوالى الساعة ١٨، وجد اللواء المدرع التابع للفرقة الأولى نفسه وقد خرج من الممر فى أرض مكشوفة، فهاجمته فرقة البانزر الخامسة عشرة، وهذا ما كنت أريده بالضبط، وفى الجنوب بدأت الفرقة النيوزيلندية تحركها باتجاه الجنوب الغربى وشرعت فى عملية الفصل والتجزئة، وفى الجنوب أيضاً لعب الجحفل الثالث عشر دوره وفقا للخطة.

وفى الساعة ٢,٣٠ من يوم ٢٥ أكتوبر، أبلغ الجحفل العاشر أن إندفاع الفرقة المدرعة العاشرة فى الممر الجنوبي من قطاع الجحفل الثلاثين لا تتقدم تقدما حسنا، إذ أن حقول الألغام وصعوبات أخرى تعرقل هذا التقدم، وقال قائد الفرقة إنه لم يكن مرتاحا للخطة، وإنه حتى لو خرج من الممر فسيجد نفسه فى مركز غير مناسب على حصون مرتفعات مطرية، وكانت فرقته سيئة التدريب وقليلة الخبرة فى عمليات بمثل هذه الصعوبة، وكان يرغب فى أن يبقى حيث هو، وكان «لامسدن» ميالا إلى الموافقة على ذلك، وفى الممر الشمالى كانت الفرقة المدرعة الأولى فى أرض مكشوفة ودبابات العدو تهاجمها بضراوة.

وقرر «دى غوينغواند» أنه من الضرورى أن أرى قائدى الجحفلين المذكورين وأن أتسلم بيدي زمام الموقف، فاستدعاهما إلى مقر قيادتي فى الساعة ٣,٣٠ صباحا، ووصل «ليزولامسدن» فى الوقت المعين وطلبت منهما أن يعرضا لى الموقف.

وعلمت أن أحد الفيالق المدرعة التابعة للفرقة العاشرة قد خرج من الممر، وأن من المنتظر أن تحذو فيالق غيره حذوه عند الفجر، وكان قائد الفرقة يرغب في إعادتها جميعا إلى وراء الألغام متخليا بذلك عن الفوائد التي أحرزها، والسبب الذي قدمه لذلك هو أن وضعه في أرض مكشوفة سيعرض فرقته إلى خسائر جسيمة، وكان «لامسدن» من رأيه، وطلب مني أن أتحدث شخصا بالهاتف مع قائد الفرقة، ففعلت ذلك على الفور، وصعقت حين اكتشفت أنه موجود على بعد ١٦ كيلو مترا خلف ألويته المدرعة الأمامية، فأمرته بأن يتوجه على الفور إلى الأمام وأن يهتم بمعركته، وأن يشق الطريق لمقاتلة العدو، وأن يقود فرقته على الجبهة لا في المؤخرة.

وأكدت لقائدي الجحفلين أن أوامري لم تتغير، وأبقيت «لامسدن» بعد أن ذهب الآخرون وخاطبته بوضوح، قائلا إنني مصمم على وجوب خروج الفرق المدرعة من حقول الألغام لتتمكن من المناورة، وأن كل تردد وكل فقدان لرباطة الجأش يمكن أن يكون الآن مميتا، وإذا كان هو نفسه أو قائد الفرقة المدرعة العاشرة لا يشعران أنهما قادران، فسأعين غيرهما في مكانهما.

وحوالي الساعة الثامنة صباحا، كانت جميع الدبابات في أرض حرة، ووجدنا أنفسنا في الوضع الذي رجوت بلوغه في نفس الساعة من الليلة السابقة.

وعند الظهر جمعت قواد الجحافل في مقر قيادة الفرقة النيوزيلندية، وأصبح واضحا أن تحرك الفرقة النيوزيلندية نحو الجنوب الغربي سيكون عملية باهظة الثمن، فقررت التخلي عنها فورا، وأعطيت بدلا منها أمرا بمباشرة عمليات فصل وتجزئة لقوات العدو في قطاع الفرقة التاسعة الأسترالية باتجاه الشمال نحو الشاطئ، وخط الإندفاع الجديد هذا، أعنى محور العمليات الجديدة، كان يقتضي تغييرا في الاتجاه يبلغ ١٨٠ درجة، مما سيأخذ العدو، فيما أرجو، على حين غرة.

جرت خلال الأيام الثلاثة السابقة معارك شديدة، وأخذت أشعر استنادا إلى الخسائر أن علىَّ أن أكون حذراً، وكنت أعلم أن الضربة النهائية يجب أن توجه على جبهة الجحفل الثلاثين، ولكنني لم أكن أرى - في ذلك الوقت - أين على وجه الضبط، ومع ذلك فعلى أن أستعد لها، ولذا قررت أن أعيد جناحي الجنوبي، (الجحفل الثالث عشر)، إلى الدفاع باستثناء بعض أعمال الدوريات، وأن أوسع جبهات الفرق وأحتفظ كاحتياطي بالفرق التي سأحتاج إليها للضربة النهائية، وكنت قد وضعت في الاحتياطي الفرقة النيوزيلندية.

وقد أصبح الآن كل جيش «رومل» (البانزر) في مقابلة الممر الشمالي، وكنت أعرف أننا لن نستطيع أبدا أن نقوم باندفاعتنا من هناك، فجعلت من هذا القطاع لذلك جبهة دفاعية، ووضعت الفرقة المدرعة الأولى في الاحتياطي، وقررت أيضا ألا أستخدم في الوقت الحاضر إلا الجحفل الثلاثين لخوض المعركة في الشمال، ووضعت في الاحتياطي المقر العام لقيادة الجحفل العاشر لكي يكون مستعدا للقيام بالاندفاع.

وأعطيت الأوامر بتقوية العمليات التي تقوم بها الفرقة التاسعة الاسترالية باتجاه الشاطئ، ذلك أنني كنت أنوى آنئذ القيام بعملية القطع النهائية في خط الطرق الساحلية.

لقد أصبح واضحا أكثر فأكثر قبل ظهر يوم ٢٩ أكتوبر أن جملة قوات «رومل» متجمعة في القسم الشمالي من الجبهة، فنشاط الفرقة المدرعة باتجاه الشاطئ جعلته يظن أننا ننوى القيام باندفاع في الشمال على طول الساحل، مما كان بالفعل خطتي في ذلك الحين.

ولكننا نفذنا الآن ما أوصى به «بيل وليامز»، فقد اندفع الألمان ضد جناحنا الأيمن، ولم يعودوا يضغطون بالمشد على الإيطاليين، إذ كان الألمان في الشمال

والإيطاليون في الجنوب، والخط الذي يفصل بينهم يمر مباشرة شمالى عمرنا الشمالى، فسارعت إلى تعديل خطى وقررت أن أوجه الضربة النهائية إلى نقطة الالتقاء هذه، لكن بوضع الثقل الأكبر على الجبهة الإيطالية، وقد اتخذت هذا القرار فى الساعة الحادية عشرة من يوم ٢٨ تشرين الأول.

لكن متى سنستطيع توجيه هذه الضربة؟

لقد كنت أعلم أن عملية المشعل، المهيأة فى إنجلترا، تقضى بالنزول فى ٨ نوفمبر فى قطاع الدار البيضاء - وهران، فعلى أن نقاتل العدو ونبيد جيشه فى الوقت المطلوب لمساندة عملية المشعل مساندة فعالة، وهذا بغض النظر عن رغبتنا فى أن نكون أولا فى طرابلس، ولكن بعد فترة عاجلة تأثر توقيتنا بضرورة تأمين أراضي الطيران فى مرطوبة لتوفير غطاء جوى لآخر قافلة ممكنة نحو مالطة، إذ أن الجزيرة كان ينقصها الوقود والأغذية للطيران، وكان على هذه القافلة أن تغادر الاسكندرية فى حوالى منتصف نوفمبر.

وقررت أن تهاجم الفرقة الأسترالية بعنف فى ليل ٣٠ - ٣١ أكتوبر باتجاه الشمال لبلوغ البحر، وهذا سيركز انتباه العدو على الشمال، ثم أحدث فى الليلة التالية، من ٣١ أكتوبر إلى أول نوفمبر، ثغرة عميقة فى جبهة العدو مباشرة شمالى الممر الأصى، على أن تتولى الفرقة الثانية النيوزيلندية يدعمها اللواء التاسع المدرع ولواءان من المشاة، وستوضع العملية تحت قيادة الجحفل الثلاثين، وعبر هذه الثغرة سادفع بالجحفل العاشر مع فرقته المدرعة، وقد أطلق على العملية اسم (الإغارة الكبرى).

فى ٢ نوفمبر، بدأنا عملية الإغارة الكبرى فى الساعة الواحدة، وجرى الهجوم على جبهة طولها ٤٠٠٠ متر بعمق قدره ٦٠٠٠ متر، وكان ناجحا، وعندما هبط الظلام كنا أخذنا ١٥٠٠ أسير.

وفي الساعة الثانية من صباح الأربعاء ٤ نوفمبر، وجهت ضربتين إلى مفصلة منطقة الاختراق، حيث حاول العدو منعنا من توسيع الثغرة التي أحدثناها، وقد أنهت هاتان الضربتان المعركة، وتقدمت فيالق الدبابات عندما أرخى الليل سدوله وبعد قليل تبعتها الفرق المدرعة الموجودة في الصحراء في منطقة ليس فيها حقول الغام، حيث تستطيع أن تناور وتعمل ضد مؤخرات العدو وطوابيره المنسحبة.

وتقدمت الدبابات نحو الغرب مندفعة بعيدا جدا على خط إنسحاب العدو، وفي الجنوب لم يكن أمام الفرق الإيطالية على جبهة الجحفل الثالث عشر إلا الاستسلام، فلم يكن بإمكانها النجاة إذ أخذ منها الألمان كل وسائل النقل، وكلفت هوروكس بتجميعها، أما أنا فوجهت اهتمامي كله إلى مطاردة قوات «رومل» التي كانت تسرع هاربة نحو الغرب.

ولو لم أبق ثابتا لا أتزعزع، ولو لم أصر على أن تنفذ خطتي لما أنتصرنا في العلمين. وعلى الرغم من أن «رومل» كثيرا ما احتاج إلى البترول، فإنه لم يهزم أبدا حتى الآن، أما هذه المرة فقد هزم بصورة حاسمة، وتقرر مصير قوات المحور في أفريقيا، شرط ألا نرتكب أية أخطاء.

* * * *

الفصل العاشر من العلمين إلى تونس

٥ نوفمبر ١٩٤٢ - ٧ مايو ١٩٤٣

المطاردة إلى العقيلة:

بدأت المطاردة الحقيقية في ٥ تشرين الثاني، وكان الجحفل العاشر في الطليعة، وتركت الجحفل الثلاثين، بقيادة «ليز»، يعيد في الغرب تنظيم منطقة الاختراق. أما الجحفل الثالث عشر، بقيادة «هوروكس»، فكانت مهمته تنظيف ساحة معركة العلمين، وجمع عتاد العدو الحربي وعتادنا، وكان عليه أيضا أن يجمع كل الأسرى الإيطاليين، وكان هدفي الأخير طرابلس.

ولحسن سير العمليات، إتفقت مع القائد الأعلى لسلاح الجو الصحراوي، «كاننجهام»، على الخطة التفصيلية التالية: وهي أننا نستطيع أن نستخدم الطيران كسلاح بعيد المدى عاملا بالتعاون الوثيق مع فيالق الدبابات، على أن تعمل أسراب المقاتلات مستخدمة ميادين الهبوط الأمامية حالما تبلغها الدبابات طالما أن هذه الميادين خالية، وأن تعمل أيضا أمام مجموعة القوات العظمى مسافة بعيدة، وهذا التكتيك سيسمح بإرهاق العدو في تراجعه، بينما تكون قواتنا متمتعة بغطاء جيد من الطائرات المقاتلة.

ولم أكن اعتقد أننا سنخوض معارك جديّة قبل العقيلة، فرومل سيعمد دون أدنى شك إلى الانكفاء نحو هذا الموقع وسيحاول إيقافنا هناك، فبذلك يكون خط تموينه قد أصبح أقصر، بينما يكون خط تمويننا قد طال، وعلى هذا النحو يكون الوضع المتعلق بالتموين على عكس ما كان عليه في العلمين.

وعلى هذا، فقد خططت لترك الجحفل العاشر يواصل المطاردة حتى الجبل، ثم لتوقيفه وأمره بالتقدم بقوات خفيفة نحو بنغازى وإجدابية، وكنت أعتقد أن «لامسدن» قد يقوم بهذه العمليات بطريقة مرضية، فكلفت لذلك الجحفل الثلاثين بمهاجمة موقع العقيلة والشروع بالتحرك نحو طرابلس، وقررت أيضا أن أعهد بقيادة الجحفل العاشر إلى «هوروكس»، حالما يستقر هذا الجحفل فى الجبل، وأن أعيد «لامسدن» إلى إنجلترا، وقررت أن أطلب إرسال «دمبسى» من إنجلترا ليحل محل هوروكس على رأس الجحفل الثالث عشر، وهكذا يكون لى فى «ليز» و«هوروكس» و«دمبسى» ثلاثة قواد جحافل أستطيع أن أثق بهم.

ومهما يكن من أمر، فقد دفعت الجيش الثامن إلى الأمام بقوة، والأرقام التالية تظهر سرعة تحركه:

٥ نوفمبر: بدأت المطاردة إنطلاقا من العلمين.

١١ نوفمبر: بلغنا السلوم (٢٧٠ ميلا).

١٢ نوفمبر: بلغنا طبرق (٣٦٠ ميلا).

١٧ نوفمبر: بلغنا مسوس (٥٦٠ ميلا).

وفى خلال ثلاثة أسابيع، سحقنا الجيش الألمانى الإيطالى سحقا كاملا، وطردنا من مصر الباقين على قيد الحياة من الفارين، متقدمين من جانبنا ما يقرب من ٣٣٠٠ ميل حتى الحدود وما وراء الحدود.

معركة العقيلة: ١٣ - ١٧ ديسمبر ١٩٤٢:

باقتربنا إلى موقع العقيلة اكتشفت شعورا بالقلق فى صفوف الجيش الثامن، فقد سبق أن كان فيها كثير من الجنود مرتين، وفى المرتين انبعث رومل وطردهم، ولذلك قررت أن أفتح بسرعة موقع العقيلة، فالمعنويات يمكن أن تهبط إذا نحن

ترددنا طويلا، ولقد كان ذلك الموقع موقعا تصعب مهاجمته، ففضلت أن أعمد إلى البلف والمناورة، وأن أدفع «رومل» إلى الوراء دفعا يجعله يعتقد أنه سيفقد في القتال كل ما تبقى من جيشه.

وبسبب الأرض غير الملائمة في الجنوب وصعوبات القيام بهجوم مواجه، كان من المفضل بالطبع أن نناور «رومل» حتى يخرج من موقع العقيلة ونهاجمه إلى الغرب على أرض أصلح، وبالنظر للهبوط المحتمل في معنويات قوات رومل، قدرت أن هذا الأسلوب ممكن اعتماده إذا نحن لم نتظر طويلا.

وقد حل الآن الجحفل الثلاثون محل الجحفل العاشر، ولقد استكشفت الموقع مع ليز في الأسبوع الأخير من نوفمبر، وأعطيته أوامري تاركا كل التفاصيل لمقدرته في المناورة، والحلقة الرئيسية يجب أن تكون تحرك فرايبورج وقواته النيوزيلندية حول جناح العدو الجنوبي نحو موقع يقع شمالي مراده، ومن هناك العمل ضد مؤخرة قوات «رومل»، على أن يجرى هذا في وقت واحد مع هجوم مواجه تقوم به الفرقة الحادية والخمسون «هايلند» والفرقة السابعة المدرعة، وحددت يوم ١٥ ديسمبر موعداً للشروع في العملية، وقررت بعد ذلك أن أتوجه بالطائرة إلى القاهرة لمناقشة خطط أخرى مع «الكسندر»، ولدى عودتي إلى مقر قيادتي العام - إلى الشرق من بنغازي مباشرة - وجدت الاستعدادات للهجوم على موقع العقيلة متقدما تقدما حسنا، وكان يبدو واضحا أن العدو أصبح عصيا تجاه هذه الاستعدادات، وقد بدأ ينقل قواته الإيطالية الثابتة نحو موقع البويرات، وهو أقرب موقع دفاعي جيد إلى الوراء، ولذلك قررت أن أقدم يومين الموعد المتفق عليه سابقا.

وسار كل شيء حسنا، فقد أخذ العدو في الانسحاب حالما بدأ هجومنا المواجه، ولكن النيوزيلنديين كانوا في أعقابه، وفي وقت من الأوقات في ١٥ ديسمبر، كان كل جيش «رومل» المدرع «البانزر» بين الفرقة النيوزيلندية، والفرقة السابعة المدرعة

التي كانت تتقدم بقوة، وتسلك الألمان بمجموعات صغيرة شاقين طريقهم بثغرات أحدثوها في المواقع النيوزيلندية المتطاولة، وكان الصراع شديدا ومشوشا طوال نهار ١٦ ديسمبر، وقد أسر جنود كثيرون ثم حرروا من الجانبين، وأخيرا تمكن جيش البانزر من النجاة نحو الغرب، ولكن النيوزيلنديين كانوا قد أمعنوا في الإساءة إليه وأنزلت به الغارات الجوية خسائر جسيمة.

وأعطيت الفرقة النيوزيلندية أمرا بالتوقف وإعادة تنظيم نفسها في النوفلية، وطارت جيش «رومل» بقوات خفيفة مشتبكة معه في موقع البويرات الذي كان يدافع عنه بقوة، وانتهت معركة العقيلة وأصبح هذا الموقع في أيدينا بصورة ثابتة.

وكان الجحفل العاشر، بقيادة «هوروكس»، وهو الجحفل المدرع إلى حد بعيد، موجودا في الجبل قرب مكيلي، وكان سلاح الطيران الصحراوي يدعم عملياتنا بقوة من ميادين الطيران في مرطوية وفي جنوبي بنغازي وبالقرب من أجداية.

وهكذا بلغنا هدفنا، ونقلت مقر قيادتي التكتيكية إلى (قوس الرخام) قرب ميادين الطيران في مردومة، إلى جوار المقر العام لقيادة الجحفل الثلاثين، ومن هذا المكان المتقدم كنت في مركز حسن لإدارة عمليات استكشاف موقع البويرات ولوضع خطة التقدم نحو طرابلس، وها نحن الآن في ولاية طرابلس الغرب، على بعد أكثر من ١٢٠٠ ميل من العلمين، أي من حيث انطلقنا، لقد هزم «رومل» وهزمت قوات المحور بصورة حاسمة، وأصبحت مصر في أمان طوال مدة الحرب.

وقد رت أن الجيش الثامن أصبح الآن بحاجة إلى مهلة يستطيع خلالها أن يستجمع نشاطه كي يصبح مستعدا للوثبة النهائية على مدينة طرابلس، وكان الضباط والجنود يستحقون بعض الراحة، فقررت أن يكون لهم ذلك، وأمرت القوات بالتوقف حيث هي، وتركها تعلم أن العمليات الهجومية لن تستأنف إلا بعد عيد الميلاد.

الزحف على طرابلس: ١٥ - ٢٣ ديسمبر ١٩٤٣:

عندما تراجع العدو من منطقة العقيلة انسحب إلى موقع البويرات وأخذ ينظم الدفاع عنها، وكانت خطى تعتمد على إتمام تمويناتنا في ١٤ ديسمبر، ثم الهجوم بقوة على العدو في صباح ١٥ ديسمبر الباكر، والزحف مباشرة على طرابلس وبلوغ هذه المدينة في عشرة أيام.

وفي ٤ ديسمبر، أخذت رياح شديدة تهب في المتوسط، وأحدثت العاصفة في بنغازي أضرارا كثيرة وهدمت منشآت هامة، وتقطعت جبال السفن فاندفعت على الأرصفة، وهدمت السد أمواج عنيفة مكتسحة داخل المرفأ، وأصيب عدد من الجحارات والمواعين ومراكز التفريغ بكثير من الأضرار، وبات استعمال بنغازي كمرفأ أساسى غير ممكن عمليا، فقد هبطت طاقته في ١٢ ديسمبر إلى ٤٠٠ طن فقط.

فما العمل؟ لقد أصبحنا الآن مضطرين للاعتماد على طريق التى تقع على بعد ألف ميل من طرابلس بطريق البر، وبعد أن نبليغ طرابلس سيتحتم علينا أن ننشئ مستودعات كبرى للعمليات اللاحقة، وقررت أن ليس هناك إلا أمر واحد يمكن عمله، وهو الزحف على طرابلس دون تغيير التوقيت، ولهذا الغرض عازمت على استدعاء فرق الجحفل العاشر الثلاث التى كانت موجودة في الجبل قرب مكيلي، واستخدام كل وسائل النقل التى لديها لجلب المؤن التى نحتاج إليها في ١٤ ديسمبر من طبرق وبنغازي، وكلفت «هوروكس» بالعملية كلها، فنذر لها نفسه بكل حماس ونظم مصلحة نقلات من الطراز الأول، فاستطعنا بذلك أن نحافظ على مواعيدنا.

وبدأ الزحف في ١٥ ديسمبر، وسار كل شيء حسنا في البداية، وفي ١٩ ديسمبر وجدنا أنفسنا مقابل موقع حمص - طرhone، وكان يبدو أن العدو ينوى الاحتفاظ به إذا استطاع، ودخلت القوات المتقدمة طرابلس في الساعة الرابعة من

صباح ٢٤ ديسمبر ١٩٤٣، أى بعد ثلاثة أشهر بالضبط من بدء معركة العلمين، وعينت البريفادير جنرال «لاش» رئيساً سياسياً معاوناً لولاية طرابلس، وكلفته بأن يتسلم الإدارة المدنية، حالما يستطيع، بالتعاون مع السلطات الإيطالية.

وقد زار رئيس الوزراء، ورئيس هيئة أركان الحرب الامبراطورية طرابلس فى ٣ و٤ فبراير، فأقمنا لهما عرضاً لفرقة هايلند وللفرقة النيوزيلندية مع بعض وحدات الجحفل الملكى المدرع، وكان «ونستون تشرشل» مسروراً للغاية وتأثر أبلغ التأثير عندما مرت القوات أمامه.

وبعد وصولى إلى طرابلس فى ٢٣ يناير، كان شغلى الأول أن أفتح المرفأ لتدخل السفن فأتمكن من تفريغ كمية كبيرة من الأطنان يوميا، وكانت هذه مهمة الأسطول الملكى، وهى مهمة صعبة بلا ريب، وكانت السرعة أساسية، ودخلت أول سفينة فى المرفأ فى ٣ فبراير، أما أول قافلة فدخلته فى ٩ فبراير، وحوالى آخر شهر فبراير كان مرفأ طرابلس يعمل جيدا، وكنا نفرغ ما يبلغ ٣٥٠٠ طن يوميا، وزالت همومى الإدارية فتمكنت من استدعاء الجحفل العاشر من منطقة طبرق - بنغازى إلى طرابلس.

ووفقا للمقررات المتخذة فى مؤتمر الدار البيضاء، الذى كان قد انعقد فى يناير، كان على الجيش الثامن أن يضع نفسه تحت قيادة الجنرال «إيزنهاور» لحملة تونس، وعين «الكسندر» معاوناً للقائد الأعلى وقائدا للقوات البرية، وأصبح تدر قائدا أعلى لجميع القوات الجوية فى مسرح العمليات بالمتوسط، وهكذا أصبح يمكن الآن حشد القوة الجوية فى تونس، وفى مالطة، وحشد الجيش الثامن فى سبيل القيام بعملية واحدة.

وجاء «كتنجهام» ينضم إلى «تدر» كقائد للطيران التكتيكى، وتسلم «هارى برودهورست» قيادة سلاح الجو الصحراوى الذى كان يتعاون مع الجيش الثامن.

وقد ذكر لى «الكسندر» أنه وجد الأمور فى تشوش فظيع عندما التحق بالجنرال «إيزنهاور»، فالجيش الأول كان قد هوجم هجوما شديدا على الجزء الجنوبى من جبهته، وكان يبدو أن كل شىء سائر إلى الفشل، وخيت القوات الأمريكية أمل «الكسندر»، وعمل «الكسندر» ليل نهار لمحاصرة الوضع، وارسل إلى نداء حارا لمساعدته فى ٢٠ فبراير لتخفيف الضغط الحاصل على الأمريكين، فأجبتة أننى سأفعل، وفى ٢٦ فبراير أصبح واضحا أن إندفاعتنا أجبرت «رومل» على وقف هجومه ضد الأمريكين.

وبعد أن صد هجوم رومل على جبهة الجيش الأول، قدرت أن الآن دورى فى أن أهاجم، وكان لدينا دلائل على تحرك يجرى باتجاه جبهتنا، فاستقدمت من طرابلس الفرقة النيوزيلندية، وأخذت استعداداتى لتلقى الضربة التى كنت متأكدا أنها ستحدث، وفى مساء ٥ مارس كان كل شىء يدل على أن الهجوم سيقع صباح اليوم التالى.

معركة مدنين: ٦ مارس ١٩٤٣:

كما توقعنا، شن «رومل» هجومه فى الصباح الباكر بثلاث فرق من البانزر، ولكن الهجوم صد، ثم عاد الهجوم مرة أخرى بعد الظهر واضطر إلى التراجع مجددا، ولم نصب بأية خسائر فى الدبابات، ولكن خسائرنا فى الرجال بلغت ١٣٠ من جميع الرتب، وفقد العدو ٥٢ دبابة دمرتها كلها مدافع المشاة المضادة للدبابات، باستثناء سبعة منها دمرتها كتيبة من دبابات «تشرمان»، وانتهت المعركة التى لم تدم إلا يوما واحدا.

وكما أن معركة علم حلقا سهلت معركة العلمين، كذلك كان لابد لمعركة (مدنين) من أن تسهل معركة (مارث)، فقد كان «رومل» بأشد الحاجة فى «مارث» إلى الدبابات الاثنتين والخمسين التى فقدتها فى مدنين.

معركة مارت: ٢٠ - ٢٧ مارس ١٩٤٣:

كان الفرنسيون هم الذين بنوا مارت في تونس، ليكون موقعا دفاعيا ضد أى اعتداء إيطالى محتمل قد يأتى من طرابلس الغرب، وكان خطا قويا، وقد عمل الفرنسيون على تحسينه أولا، ثم حسنه من بعدهم الألمان، ويستند جناحه الشرقى إلى البحر وجناحه الغربى إلى سلسلة جبال مطماطة، وفى الشمال الغربى من مطماطة يتجه خط توقيف العدو نحو الحامة.

وكانت المنطقة الواقعة إلى الغرب من مرتفعات مطماطة تعتبر بحرا من الرمال لا يمكن اجتيازه ممتدا عدة أميال نحو الغرب، وقال لى الفرنسيون: إن من المستحيل القيام بتحريك التفافى عبر هذا البحر من الرمال، وقدرت أن الهجوم المواجه ضد موقع بهذه القوة ليس له حظ فى النجاح، إذ لم يكن هناك إلا مجال ضيق للمناورة بين جبال مطماطة والبحر، وأبرز بنود خطتى يجب أن يكون تحركا التفافيا فى غرب مرتفعات مطماطة يزامن هجوما مواجهها محدودا، وتبلورت الخطة، وكانت فى خطوطها الكبرى كما يلى:

* على الجحفل الثلاثين أن يهاجم الجناح الشرقى بثلاث فرق، ويجب أن يكون ضغطه بلا هوادة، وجناحه الأيمن إلى البحر، وهدفه جذب قوات العدو الإحتياطية نحو هذا الجزء من خط الدفاع.

* يلتف النيوزيلنديون المعززون إلى حد كبير بوحدات أخرى حول الجناح الغربى ويتقدمون وراء جبال مطماطة.

* يبقى الجحفل العاشر فى الإحتياطى مع فرقتين مدرعتين، الأولى والسابعة، جاهزين للانطلاق على جناح أو على آخر حسب الفرصة التى تسنح، ويتمركز هذا الجحفل على نحو يجعل جميع النقاط الأساسية محمية ويجعل الأرض الهامة مضمونة.

* كل العملية يجب أن تدعم بجهد مركز مستمر من جانب القوات الجوية.

وكان النيوزيلنديون بعد تعزيزهم لحركة الالتفاف يعدون ٢٧ ألف رجل و ٢٠٠ دبابة، وقد تجمعوا على جناحنا الجنوبي دون أن يشعر بهم العدو في فجر ١٨ مارس، وفي ليل ١٧ - ١٨ مارس قمنا بعمليات تمهيدية على جناحنا الأيمن لنخدع العدو بصدد المكان الذي ستوجه إليه الضربة الحقيقية، وقد نجحت هذه العمليات، وكان يجب أن يبدأ هجوم الجحفل الثلاثين على الجناح الأيمن في الساعة ٢٢,٣٠ من يوم ٢٠ مارس، ولكن تم لدى الاقتناع في صباح ذلك اليوم أن العدو قد اكتشف القوات النيوزيلندية المتخفية على جناحنا الجنوبي، ولذلك أعطيت النيوزيلنديين الأمر بأن يكفوا عن التخفي ويتقلوا إلى الهجوم مندفعين كالشيطان باتجاه الشمال، وهذا ما فعلوه بالضبط.

ولقد وصف هذه المعركة كثير من المؤلفين، ولا حاجة لأن نقدم عنها رواية مفصلة، ويمكن تلخيص التكتيك الرئيسى المستخدم فيها على النحو الآتى:

- * بدأت المعركة بضربة عنيفة موجهة من يمينتنا.
- * بينما كانت هذه الضربة قيد التنفيذ، بدأت مسيرتنا بحركة التفاف كبيرة.
- * سار هجوم الميمنة سيرا حسنا منذ بدايته.

وأصبح التهديد الذى يتعرض له العدو تهديدا بالغيا اضطره إلى إرسال القوات الاحتياطية على عجل للوقوف فى وجه تقدمنا، فقامت بهجوم مضاد، وصددنا نحن الهجوم ولكننا خسرنا كل ما ربحناه، ووجدنا أنفسنا فى المكان الذى انطلقنا منه قبل يومين.

- * وقررت فورا الصمود الكلى على الميمنة، فى نفس الوقت الذى أقوم فيه بضغط يجعل القوات الاحتياطية الألمانية تبقى فى هذا القطاع، وقمت أيضا باندفاعة فى الوسط ضد مرتفعات مطماطة، مستخدما فى ذلك الفرقة الرابعة الهندية.

* وأرسلت بعدئذ الفرقة الأولى المدرعة من قواتي الاحتياطية لتنضم إلى حركة الالتفاف التي يقوم بها النيوزيلنديون، وتطلق بنجاح، وكلفت قائد الجحفل العاشر «هوروكس» الاهتمام بهذا الالتفاف من جانب الميسرة، وبينما كان هذا الإمداد يتقل إلى الميسرة، كنا نهىء الهجوم الخاطف الذي يجب أن يحدث لدى وصوله.

* أدرك العدو ما سيحصل، فحاول نقل قواته الاحتياطية التي كانت في مواجهة ميمتنا، لكي يوقف إندفاعة ميسرتنا التي أصبحت الآن على جانب من القوة، فوصلت قواته متأخرة، ذلك أن هجومنا الخاطف حصل بعد عشرين دقيقة من وصول آخر سيارة من سيارات الفرقة الأولى المدرعة، وجرف كل ما كان أمامه.

وفي الساعة التاسعة من صباح يوم ٢٨ مارس، كنا قد استولينا استيلاء كاملاً على خط مارث الشهير بعد معركة لم تستمر إلا أسبوعاً واحداً.

انتهاء الحرب في أفريقيا:

كان واضحاً أن الحرب في أفريقيا ستنتهي بسرعة فائقة، فلم يبق على الجيش الثامن إلا أن يزحف من ثغرة قابس ليتصل بالقوات الأمريكية، وما تبقى من العدو سيطوق عندئذ، وفي مجال يضيق أكثر فأكثر، وكان علينا أن نخوض في ٦ أبريل معركة قاسية استمرت يوماً كاملاً على خط عود العكاريت، شمالاً قابس حيث سقط ٧ آلاف ألماني أيضاً في أيدينا، وفي ٨ أبريل جرى اتصالنا مع القوات الأمريكية المتحركة شرقاً قفصة، وأخذنا نأسر ما معدله ألف رجل يومياً، وفي ١٠ أبريل استولينا على صفاقس.

وفي ١٠ أبريل كتبت إلى «الكسندر» قائلاً له: إن قراراً بطلب أن يتخذ لمعرفة أي جيش يجب أن يقوم بالجهد الرئيسي في المرحلة النهائية من مراحل القتال في

تونس، واقترحت أن يعهد بذلك إلى الجيش الأول، ووافق الكسندر على ذلك وطلب منى أن أرسل إلى الجيش الأول فرقة مدرعة وفيلقا من السيارات المصفحة، أما أنا فسيكون على أن أضغط ضغطا مستمرا وأوهم العدو بأن الهجوم الرئيسى سيقوم به الجيش الثامن، ووضعت خططى على هذا الأساس وهاجمت موقع انفيدافيل فى ليل ١٩ - ٢٠ أبريل، وكان من الصعب التقدم فى الجبال بالقرب من تكرومة، ومع ذلك فقد بلغ تقدمنا نحو ثلاثة أميال، وعمدت إلى إعادة تجميع القوات، وأخذت استعداد لشن هجوم جديد بعد أسبوع واحد، ولم أكن مسرورا بهذه الهجمات التى أثبتت لى أن الضربة الرئيسة يجب أن توجه على جبهة الجيش الأول، حيث الأرض ليست جبلية إلى هذا الحد، وحيث يمكن استخدام الدبابات.

ولكن المحاولة الأولى التى قام بها الجيش الأول فى ٢٣ أبريل لشق طريقه صوب تونس لم تكلل بالنجاح، وفى ٣٠ أبريل، اقترحت على الكسندر إعادة تجميع الجيشين الأول والثامن كى يمكن القيام بالهجوم على تونس بأكبر قوة ممكنة فى أنسب منطقة، واقترحت أن أرسل إلى الجيش الأول الفرقة السابعة المدرعة والفرقة الرابعة الهندية، ولواء الحرس ٢٠١، يضاف إليها قطع مدفعية، مع قائد جحفل واسع الخبرة لقيادة الهجوم، وكنت أفكر فى هوروكس، وقد وافق الكسندر على هذا موافقة تامة.

وانتقل «هوروكس» إلى الجيش الأول، ونظم فى ٦ مايو الهجوم على تونس، وقد وصل هذا الهجوم إلى النقطة المختارة واخترق دون صعوبة خطوط دفاع العدو فى غربى تونس، وتم الاستيلاء على بتزرت وتونس فى ٧ آيار وحشر العدو عندئذ فى شبه جزيرة رأس بون، وانتهت مقاومة العدو المنظمة فى ١٢ مايو بعد أن وقع فى الأسر نحو ٢٤٨ ألفا من رجاله.

وهكذا انتهت حرب أفريقيا بكارثة كبرى للألمان، فقد تم الاستيلاء على جميع قواتهم وتمويناتهم وأسلحتهم الثقيلة وتجهيزاتهم، ولم يكن البقاء في أفريقيا الشمالية بعد إختراق خط (مارث) أمرا مبررا من الوجهة العسكرية الصرفة، وأظن أن هتلر أمر بهذا البقاء لأسباب سياسية.

* * * *

الفصل الحادى عشر

حملة صقلية

١٠ يوليو - ١٧ أغسطس ١٩٤٣

فى يناير عام ١٩٤٣ ، وصلت أوامر إلى أفريقيا الشمالية يقتضى بموجبها القيام بعمليات عندما تطرد قوات المحور من أفريقيا بغية اخراج إيطاليا من الحرب ، وتقرر أن تكون الخطوة الأولى غزو صقلية ، واصطلح على تسمية هذه العملية باسم «هاسكى».

فى ١٢ مايو توقفت كل مقاومة فى أفريقيا الشمالية ، وفى ١٣ مايو استسلم للجيش الثامن الفيلد «مارشال ميسه» ، القائد الأعلى الإيطالى الذى خلف «رومل» فى منصب القيادة العليا ، وقد تناول معى طعام الغذاء فى مساء اليوم نفسه قبل أن ينقل إلى معسكر الأسرى ، وتحدثنا معا حول مختلف وجوه المعارك التى خاضها أحدنا ضد الآخر.

وقررت التوجه إلى إنجلترا فى إجازة قصيرة قبل بدأ معركة صقلية ، وكنت أرغب أيضا فى زيارة الفرقة الأولى الكندية التى كان يجب أن تنزل مباشرة على شواطئ صقلية قادمة من المملكة المتحدة ، وما كان بإمكاننا أن نراها قبل أن يجمعنا القتال جنب إلى جنب ، ولذلك كان اجراء اتصال مسبق أمرا ضروريا.

وغادرت طرابلس فى ١٦ مايو بقلعتى الطائرة ، ووصلت إلى إنجلترا فى ١٧ مايو ، وكنت مسرورا لهذه الزيارة ، خاصة ما سأقضيه من وقت مع «دايفد».

وعدت إلى الجيش الثامن بطريق مدينة الجزائر ، حيث اجتمعت فى ٢ يونيو برئيس الوزراء ورئيس هيئة أركان الحرب الامبراطورية ، وكان رئيس الوزراء مصمما

على إخراج إيطاليا من الحرب، وقد استجوبني مطولا حول خطة الإنزال فى صقلية، فأعربت عن ثقتى بخططنا وبقدرتنا على تنفيذها.

وقد وصل الملك إلى أفريقيا فى ١٣ يونيو وجاء إلى طرابلس فى ١٧ يونيو ليرى فيها الجيش الثامن، وقد أقام فى معسكرنا على الشاطئ على بعد بضعة أميال من طرابلس، وعندما حان يوم رحيل الملك، فى ١٩ يونيو، كرسنى جلالته فارسا بلمس كفى بطرف سيفه، وذلك تحت الخيمة المنصوبة لتناول طعام الغداء على مقربة من ميدان الطيران.

ونزلنا فى صقلية فى العاشر من يوليو، قبل ساعتين من بزوغ الفجر، وعلى الرغم من أن الأوامر المتعلقة بغزو صقلية وصلت إلى أفريقيا الشمالية فى يناير ١٩٤٣، فإن خطة الإنزال لم تعد نهائية إلا فى شهر مايو، أى قبل شهرين من يوم الغزو، وقد قضينا نحو خمسة أسابيع لإنجاز فتح صقلية، وبلغت خسائر الجيش الثامن ١٢ ألف رجل، وكنا نستطيع فى رأى - بتنسيق أوثق للجهود فى البر والبحر والجو - أن نستولى على الجزيرة كلها فى وقت أسرع وبخسائر أقل.

وقد جاء إيزنهاور ليرانى فى صقلية عندما انتهت الحملة، ولقد كنا دائما نسر بزياراته إذ كان يشير إعجابنا جميعا بشخصيته الأخاذة، ولم يكن معه إلا مرافق واحد هو ضابط البحرية الكابتن «بوتشر».

* * * *

الفصل الثانى عشر

حملة إيطاليا

٣ سبتمبر - ٣١ أكتوبر ١٩٤٣

لئن كانت الاستعدادات لحملة صقلية وسير هذه الحملة قد شابهها النقص الكبير، فإن الاستعدادات لغزو إيطاليا وسير العمليات اللاحق فى هذه البلاد كانت أسوأ. لقد كنا نريد اكتساح القارة الأوربية دون أن تكون لدينا فكرة واضحة حول الطريقة التى يمكن أن تتطور بها العمليات بعد أن نصبح على أرض القارة، ولم يكن القرار فيما يتعلق بالمكان الذى ستزل فيه من إيطاليا قد اتخذ بعد فى ١٧ أغسطس، وهو التاريخ الذى انتهت فيه حملة صقلية، أما فيما يتعلق بالجيش الثامن فكان على أن أجعله يجتاز مضيق مسينا فى ٣ أغسطس، ولكن لم يعين لى أى هدف من الأهداف. وفى ١٩ أغسطس ألحقت على أن يعين لى ما يجب على فعله فى إيطاليا، وهكذا زودت بالهدف المعين لنا فى أغسطس، أى قبل عشرة أيام من نزولنا فى إيطاليا، وكانت نية القيادة فى الأصل أن يجرى غزو القارة بواسطة الجيش الثامن وحده، على جبهة من جحفلين، وكان يجب أن تجرى عمليات الإنزال التالية:

- عملية الدعامة فى منطقة جيوياتورو، على الساحل الشمالى لقدم الحذاء الإيطالى.

- عملية مدينة الخليج بهجوم مباشر عبر مضيق مسينا.

وفى حوالى آخر يوليو، بدأ درس عمليه أخرى فى منطقة سالرنو، وأطلق عليها اسم عملية التيهور، وفى رأى أن هذه العملية كانت جيدة للتنفيذ، وكان يحسن أن

يوضع كل شيء منذ البداية في العمل لتحقيقها، وأن تتركز جميع الجهود كي تكون فوزا مينا، ولكن هذا لم يحدث.

وفي ١٧ أغسطس، تقرر ألا تجرى عملية الدعامه، وهكذا وضع جحفل - الذي كان عليه أن ينفذها - تحت تصرف الجيش الأمريكى الخامس المكلف بعملية التيهور، وعلى هذا النحو تقرر فى ١٧ أغسطس أن يكتسح إيطاليا جيشان هما:

- الجيش الثامن بطريق مضيق مسينا (عملية مدينة الخليج).

- الجيش الأمريكى فى سالرنو (عملية التيهور).

وبذلك بدأت متاعبنا، ففى سبيل دعم عملية التيهور أخذت بعض سفن الإنزال من عملية مدينة الخليج، ولم استطع الشروع فى الاستعدادات لعملية إنزال مدينة الخليج، إذ لم يكن تحت تصرفى أى ضابط كبير من البحرية ولا أية هيئة أركان حرب بحرية صالحة، واحتججت على هذا الوضع، ووعدنى «الكسندر» بأن يضم احتجاجاته إلى احتجاجاتى، ولكن كان ذلك دون جدوى حتى بات تنفيذ عملية الخليج أخيرا أمراً مستحيلا كما هى موضوعة.

وفى ٢٠ أغسطس، تلقيت من «الكسندر» مذكرة كتبها بخط يده، مشيرا إلى هدف عملية مدينة الخليج على النحو التالى:

إن مهمتكم هى تأمين سلامة رأس جسر (منشأ فى قدم الحذاء الإيطالى) كي تتيحوا لقواتنا البحرية أن تعمل فى مضيق مسينا، وفى حال إنكفاء العدو عن قدم الحذاء فإن عليكم أن تلحقوا به القوات التى تستطيعون أن تجعلوها متوفرة، دون أن يغيب عن بالكم أنه كلما أمكنكم إشغال قوات العدو فى طرف إيطاليا الجنوبى، زاد دعمكم لعملية التيهور.

إن هذا الهدف يستحق الدرس والتمحيص، فلم تبذل أية محاولة لتنسيق عملياتي مع عمليات الجيش الخامس الأمريكى النازل فى سالرنو فى ليل ٩ - ١٠ سبتمبر، ولم يكونوا يتصورون أن الجيش الثامن يستطيع أن يذهب إلى أبعد من خليج كاتانزارو، على بعد نحو ٦٠ ميلا من رجيودى كالابرى، وقد قيست مواردنا بهذا المقياس.

والذى حدث فعلا معروف تمام المعرفة، فما لبثت عمليات الإنزال فى سالرنو أن واجهت صعوبات وطلب إلى أن أزحف إلى الأمام وأدعم الجيش الخامس الأمريكى، فنشأت لجيشى هموم ذات طابع لوجستى.

وصمم «إيزنهاور» على جمع قواده الأعلين فى مدينة الجزائر فى ٢٣ أغسطس، وفى هذا الاجتماع الذى حضرته، طلب الى أن أعرض الخطوط الكبرى لخطتي لعملية مدينة الخليج، فذكرت أن التأخرات الناجمة عن المشاكل البحرية قد وضعتنى فى حالة يستحيل معها تنفيذ العملية فى ليل ٣٠ - ٣١ أغسطس، وأضفت أن لدى الآن الموارد الضرورية من سفن الإنزال والملاك البحرى، وإبنى أستطيع تنفيذ العملية فى ليل ٢ - ٣ سبتمبر، وعلى كل حال فقد أبلغنى الأسطول أنه لن يستطيع مواجهة الأمر قبل ليل ٤ - ٥ سبتمبر.

وبعد أن حسمنا هذه المسألة، أطلعنا «إيزنهاور» على المفاوضات الدائرة مع الحكومة الإيطالية من أجل إعلان الهدنة.

وهكذا تهيأت للتزول على القارة الأوروبية فى ٣ سبتمبر، وهو يوم الذكرى الرابعة لإعلان الحرب، وسندخل سنة الحرب الخامسة وما يزال لنا ثار علينا أن نأخذه، وفى البدء سارت عملية الإنزال سيرا حسنا، ولم يكن هناك إلا قليل من المقاومة، وسرعان ما وصلنا إلى الأرض الثابتة، ولكن صعوباتنا بدأت على مسافة قصيرة من الشاطئ، لقد كان وضع الأرض مثاليا من حيث إتاحتها الفرصة

لوحداث عدوة صغيرة، بالإضافة إلى تخريبات تختار مواقعها بحذق، كى تؤخر تقدمنا، ولقد استفاد الألمان من هذا الوضع أوسع الاستفادة.

وفى ٥ سبتمبر، وصل «الكسندر» بطريق الجو إلى رجيو، وقابلته فى ميدان هبوط الطائرات، وقال لى: إن الإيطاليين وقعوا فى ٣ سبتمبر شروط الهدنة التى فرضناها، ولكن الأمر لم يعلن بعد، ويتظر أن تكون الترتيبات كالتالى:

* فى الساعة ١٨,٠٠ من مساء يوم ٨ سبتمبر يعلن «بادوجليو» من روما، «وايزنهاور» من الجزائر، بالراديو أن الإيطاليين استسلموا دون أى شرط.

* فى الساعة ٢١,٠٠ من اليوم نفسه (٨ سبتمبر)، تنزل قوات أمريكية محملة جوا قرب روما، وفى الوقت نفسه تستولى الفرق الإيطالية القريبة على المدينة.

* يستولى الجيش الإيطالى على تارنت، وبرنديزى، وبارى ونابولى.

* فى الساعة ٤,٣٠ من صباح اليوم التالى ٩ سبتمبر يتزل الحلفاء فى إيطاليا على النحو الآتى:

الجيش الخامس الأمريكى فى سالرنو ليتجه إلى نابولى.

الجحفل الخامس البريطانى فى تارنت.

وما لبث التزول فى سالرنو أن واجه المصاعب، وغدا الموقف دقيقا فى ليل ١٣ - ١٤ سبتمبر، عندما هاجم الألمان الفرقة الأمريكية السادسة والثلاثين بقوة، وحدث هجوم العدو على بعد ثلاثة أميال من الشاطئ وميلين من المقر العام لقيادة الجيش، وفى ١٤ سبتمبر تلقيت من الكسندر نداء للنجدة، طلب منى فيه أن أزحف إلى الأمام وأهدد القوات الألمانية المقاومة للجيش الخامس، ففعلت ذلك.

وفى ١٦ سبتمبر أتمت طلائع الجيش الثامن اتصالها بميمنة الجيش الأمريكى الخامس، وبعد أن انتهت المرحلة الأولى والتقى الجيشان، تلقيت الأمر بنقل عمليات

الجيش الثامن نحو الشرق، أى على مقلب الأدرياتيكى لسلسلة جبال الأبنين، كان هذا يعنى نقل خطنا اللوجستى من (كالابرى) إلى المرافئ الإيطالية فى الجنوب الشرقى، وأهمها تارنت وبرنديزى وبارى، وكانت هذه عملية كبرى استغرقت كثيرا من الوقت، وعندما انتهت بدأنا تحركا باتجاه الشمال اشتمل على الاستيلاء على فوجيار، وميادين الطيران فيها، وعلى ترمولى، كما اشتمل على خوض معارك جديّة على خطوط نهري تريغنو وسانغرو.

وساءت حالة الطقس فى أواخر أكتوبر، وهطلت علينا الأمطار الشديدة ترافقها العواصف، واستمرت هذه العواصف فأغرقت البلاد كلها إغراقا كاملا فى ٩ نوفمبر، وفى صباح يوم ٢٤ ديسمبر، تلقيت اتصالاً من وزارة الحرب يبلغنى أن علىّ أن أعود إلى إنجلترا لأخلف الجنرال باجيت على رأس مجموعة الجيوش الحادية والعشرين، وهى مجموعة الجيوش البريطانية التى كانت تستعد لفتح جبهة ثانية على الجانب الآخر من المانش.

وكنّت بالطبع حزينا لتركى الجيش الثامن، ولكن سرنى اختيارى لهذه المهمة الجبارة (الغزو الذى سيثار لدنكرك).

وخلال ستة أشهر استولينا على صقلية، أخرجنا إيطاليا من الحرب، حجزنا فى مالطة الأسطول الإيطالى، اكتسحنا نحو ثلث إيطاليا بما فيه نابولى وميادين الطيران فى فوجيا.

وكان الجنرال «إيزنهاور» قد عينتى قبل بضعة أيام قائدا أعلى للجبهة الثانية، وخلفه فى القيادة «جامبو ويلسون» القائد العام للشرق الأوسط، واحتفظ ألكسندر بمنصبه الحالى.

وقد اخترت الذين سأصطحبهم معى فورا وهم:

دى نموينغواند، كرئيس لأركان الحرب.

«جراهام»، كرئيس للمصالح الإدارية.

«وليامز»، كرئيس لمصلحة الاستخبارات.

«ريتشاردس»، كمستشار للدبابات.

«هيوز»، كرئيس للكهنة الوعاظ.

وقد وافقت وزارة الحربية على الفور فيما يتعلق بـ : دى نموينغواند، ووليامز، وريتشاردس، ولم توافق على اختيار «هيوز» و«جراهام»، وقررت أن آخذ معى جراهام والمجازفة باغضاب لندن، على أن أطلب «هيوز» و«بلتشم» فيما بعد، أى بعد أن أكون قد أوضحت الأمور فى لندن.

وعين «اوليفرليز» خلفا لى، وكان يجب أن يصل فى ٣٠ ديسمبر، وعزمت على الرحيل فى ٣١ ديسمبر، وكان لينر يعرف جيدا الجيش الثامن، فلم يستغرق تسليم السلطات وتسليمها إلا قليلا من الوقت

وفى صباح اليوم التالى، ٣١ ديسمبر، أقعلت بطائرتى «الداكوتا» من الميدان القريب من مقر قيادتى التكتيكية، وتوجهنا إلى مراكش، وكان فيها رئيس الوزراء فى طور النقاهة على إثر إصابته مؤخرا بمرض، فقضيت السهرة كما قضيت يوم رأس السنة معه، ثم توجهت إلى إنجلترا فى ليل ١ - ٢ يناير ١٩٤٤.

* * * *

الفصل الثالث عشر

في إنجلترا قبل يوم الغزو

٢ يناير - ٦ يونيو ١٩٤٤

حينما وصلت إلى مراكش مساء يوم ٣١ ديسمبر، وجدت رئيس الوزراء منكبا على دراسة نسخة من خطة السيد الأعلى، وهو الاسم الذي اصطلح على إطلاقه على عملية غزو نورماندى.

وأعطاني تشرشل النسخة لأقرأها، قائلا: إنه يرغب فى معرفة رأى فى الخطة كما هى مقترحة، فقلت إننى سأقرأها فى الفراش، وأطلعته على انطباعى فى صباح اليوم التالى، وكان يعلم أننى معتاد على النوم فى ساعة مبكرة.

ووصل إيزنهاور إلى مراكش بعد الظهر، وكان فى طريقه إلى الولايات المتحدة حيث سيجتمع إلى «روزفلت» قبل تسلم مهماته الجديدة كقائد أعلى لعملية الغزو.

وخصصت لقراءة الخطة بضع ساعات وسجلت انطباعاتى الأولى، وقد نسخت هذه الانطباعات على الآلة الكاتبة قبل طعام الفطور فحملتها إلى رئيس الوزراء حالما أصبحت جاهزة، وكان ما يزال فى الفراش فقرأها على الفور، وكانت أهم فقراتها فى رأى الفقرات الأولى الأربع وهى:

أولا: يجب أن يكون واضحا:

١ - أننى اليوم فى أول يناير ١٩٤٤ علمت بالخطة المقترحة للمرة الأولى، كما أنى للمرة الأولى أواجه المشكلة من جميع زواياها.

ب - لم اتصل حتى الآن بالأميرال «رمزى»، ولم يكن بإمكانى استشارة خبير بحرى.

ج - لم أتمكن كذلك من استشارة القائد الأعلى للقوات الجوية، ولا ضابط طيران مجرب.

د - وبالتالي فلا يمكن أن يكون لتعليقاتي الأولية إلا قيمة نسبية، إنها لا تعكس إلا انطباعاتي الأولى بعد دراسة سريعة للخطة.

ثانياً: تقضى الخطة بأن تجرى عمليات الإنزال الأولية على جبهة ضيقة أكثر مما ينبغي مقتصرة على منطقة أصغر مما ينبغي، وفي اليوم الثاني عشر بعد يوم الغزو تفترض الخطة أن مجموع ما سينزل على الشواطئ المستخدمة لعمليات الإنزال الأولية سيبلغ ١٦ فرقة، مما سيحدث على هذه الشواطئ أفطع فوضى وسيجعل من الصعب - إن لم يكن من المستحيل توسيع المعركة البرية.

وتفترض الخطة أن فرقا أخرى ستنزل، بحيث يبلغ مجموع الفرق النازلة في اليوم الرابع والعشرين بعد يوم الغزو ٢٤ فرقة على الشواطئ ذاتها، التي ستصبح مراقبتها شديدة الصعوبة، فبدلاً من أن تخف الفوضى، ستشتد، وفي رأيي أن هذه الخطة غير عملية.

ثالثاً: من وجهة نظر الجيش وحده، تبدو النقاط التالية أساسية:

- أ - يجب أن تجرى عمليات الإنزال الأولية على أوسع جبهة ممكنة.
- ب - يجب أن تكون القوات قادرة على توسيع عملياتها انطلاقاً من شواطئ الإنزال، ويجب ألا تنزل تشكيلات أخرى على هذه الشواطئ نفسها.
- ج - يجب أن تكون مناطق الإنزال البريطانية والأمريكية متميزة، ويجب أن يطبق على كل منها مضمون الفقرة «أ».
- د - بعد عمليات الإنزال الأولية يجب أن تتطور العملية بصورة تؤمن لكل من القوات البريطانية والقوات الأمريكية مرفأً واحداً جيداً على الأقل.

رابعاً: أن الخطة المطلوبة هي من النوع الآتى:

أ - تنزل القوات البريطانية على جبهة كافية لجحفلين أو ثلاثة جحافل إن أمكن ، وكذلك تفعل القوات الأمريكية .

ب - تنضم فرق إضافية إلى الجحافل التى تكون قد أنزلت .

ج - يستخدم الطيران المهاجم لدعم تقدم القوات ، وتتبع ذلك بسرعة وبدون انقطاع موجات متلاحقة من السيارات غير المصفحة من كل نوع .

د - يجب كسب المعركة الجوية قبل أن تنطلق العملية، وعندئذ يكون هدفنا كسب المعركة البرية بفضل سرعة عملياتنا وعنفها .

وقد أظهر رئيس الوزراء اهتماما كبيرا بهذه الملاحظات، وقال لى: إنه كان يشعر بأن فى الخطة المقترحة شيئا ما غير سليم، ولكن رؤساء أركان الحرب كانوا قد قبلوها مما جعله غير قادر على أن يفعل شيئا، أما الآن فها هو قائد جيوش يحلل له الخطة ويقدم له إيضاحات هو بأشد الحاجة إليها، فهو إذن شاكر له أبلغ الشكر .

وفى الليل بعد العشاء، غادرت مراكش إلى إنجلترا، ووصلت فى ٢ يناير ١٩٤٤ . وسرعان ما أدركت لدى وصولى إلى إنجلترا أننا أمام مهمة صعبة للغاية، وكنت قد عينت لأعمل كقائد أعلى للجيش العاملة فى البر، فى عملية مشتركة ذات حجم أوسع وأكبر من كل ما جرت محاولته فى تاريخ الحروب كلها .

وعلى الرغم من أن القسم الأكبر من القوات ومن المقرات العامة الثانوية كانت حسنة التدريب، فقد كانت تفتقر إلى الخبرة فى القتال، وكان يتحتم الشروع فى العملية بعد خمسة أشهر تقريبا، فالضباط لم يكونوا يعلمون أساليب ميدان القتال التى يرى لها الضباط الشباب أهمية بالغة، ومن شأنها أن تنفذ كثيرا من الأرواح، والمعركة فى آخر المطاف إنما تربح بمقدرة ضباط الميدان وجنوده وبروح المبادرة لديهم، ودون هذه المزايا لا بد من خسران المعركة أيا كانت مزايا القيادة العليا .

وكانت بعض التشكيلات المقاتلة ذات الخبرة الواسعة قد عادت إلى إنجلترا قادمة من مسرح العمليات في المتوسط بعد انتهاء حملة صقلية، وقد حاولت بتبديل الضباط بين هذه التشكيلات وزميلاتها التي لم يسبق لها أن غادرت إنجلترا، أن أوزع هذه الخبرة على أوسع نطاق ممكن.

أما فيما يتعلق بتبديل قواد الجيش العاجزين، فلم أطلب من وزارة الحربية إلا قرار نقل واحد، هو أن يستدعى من إيطاليا الجنرال «دمبسي» الذي يقود أحد جمافل الجيش الثامن، وتسليمه قيادة الجيش الثاني مكان «أندرسن».

ولقد كتب الكثير في موضوع خطة غزو نورماندى، وروى كثير من الكتاب كيف عملت المفصلة بهذه الخطة شيئا فشيئا، ولا أريد العودة إلى جوهر المسألة، وإنما أريد فقط أن أتحدث عن الأمور التي كانت في ذلك الحين شغلى الرئيسى، فمن قبل عام ١٩٤٤، كلف المقر العام بوضع خطة الإنزال، وقد شكل هذا المقر العام في لندن بالتعاون بين الحلفاء، على أن يكون مسئولاً أمام هيئة أركان الحرب المشتركة في واشنطن، وعمل هذا المقر العام وقتاً طويلاً في درس مشكلة عودة القوات الحليفة إلى شمالى غربى أوروبا، وعلى رأس هذا المقر العام كان الجنرال «فريدى مورجان»، الذى كنت أعرفه جيداً، وكثيراً ما شكالى من الصعوبة التي يلاقيها في وضع خطة ملائمة دون توجيه، ومع ذلك فقد قام بعمل جيد وقدم مشروعاً لعملية السيد الأعلى، إتخذ أساساً للخطة النهائية.

وكان «مورجان» يعمل بناء على معلومات تقدمها إليه هيئة أركان الحرب المشتركة عن القوات التي ستكون متوفرة للعملية، فلم يكن له إذن خيار، ولم يكن إلى جانبه أى قائد جيوش معرب يرشده ويساعده.

وكنى كلما أمعننى فى درس الخطة التكتيكية المقترحة لجموع الجيوش الحادية والعشرين، قل ارتياحى إليها، فجهة الهجوم كانت ضيقة أكثر مما ينبغى، وهناك مقر

عام واحد لجحفل يفترض أن يشرف على مجمل الجبهة، ولن تلبث منطقة الإنزال حتى تكتظ وتحتقن، ولم يكن يفترض أن يجرى أى إنزال شرقى شبه جزيرة كوتانتين، رغم أنه كان من الضروري لحاجاتنا أن نضع يدنا بسرعة على مرفأ شربورج.

ولم يكن يبدو أن هناك فكرة واضحة عن الطريقة التى ستطور بها العمليات بعد إنزال الجيوش على سواحل نورماندى، ولقد كنا نبغى فتح مسرح جديد للعمليات على القارة الأوربية، وكانت الحملة تشتمل على مجمل المشكلة التى يطرحها سير العمليات الهجومية البرية فى أوروبا الغربية، وهدف هذه العمليات النهائى تدمير قوات العدو وإحتلال ألمانيا.

لذلك كان من الضرورى قبل كل شىء تقرير الطريقة التى ستطور بها العمليات البرية، ثم أن نضمن على ضوء هذه العمليات أن يجرى الإنزال على الشواطئ الأكثر ملاءمة لتنفيذ الخطة العامة، لكن يظهر أن المشكلة كانت تواجه معكوسة.

واستنادا إلى ما كان لدينا من معلومات فى ذلك الحين - يناير ١٩٤٤ - كان للألمان فى فرنسا أكثر من خمسين فرقة، وقد يكون منها ست فرق (بانزر)، وكان تقدير «بيل وليامز» أنه سيكون علينا أن نقاتل قتالا شديداً ضد ست فرق ألمانية فى مساء يوم الغزو، ولم نكن نستطيع المجازفة، فإذا فشل الإنزال فى نورماندى فقد يمتد أمد الحرب أعواما أخرى.

وكان علينا فى البر، أن نشق طريقنا مقاتلين، ونضمن لأنفسنا مركزا مفضلا قبل أن يتمكن العدو من الإتيان بقوات احتياطية كافية لطردها، فعلى أن نتراجع قليلاً بسرعة وندفع برؤوس حراب صوب الداخل، وفى هذه الأثناء يكون على الطيران أن يحمى الدائرة التى شكلت على هذا النحو، وأن يمنع أو يعرقل نقل قوات العدو الاحتياطية بالسكك الحديدية أو الطرق البرية باتجاه مواقعنا.

ويجب أن تقوم بهجومنا الأول خمس فرق، تضاف إليها فرق محملة جوا تنزل على أجنحتنا لحماية من تدخل العدو، بينما نتقدم نحن بسرعة صوب الداخل،

وسيلزمنا جهاز قادر على إنزال ثمانى فرق مثلاً مساء يوم الغزو، و ١٢ فرقة مساء اليوم الثانى، وهدفنا أن يكون لنا على الأرض ١٨ فرقة فى آخر الأسبوع الأول.

كل هذا يشكل عملية جبارة، ولن يكون هناك غنى عن أن نستقدم من مسرح المتوسط سفن إنزال إضافية، وسنحتاج أيضاً إلى مسطح إقلاع لثلاث فرق محملة جوا وكان إيزنهاور قد كلفنى أن أعمل مكانه وبالنسبة عنه، فعقدت مؤتمرات عديدة مع قائدى البحرية والجو الأعلىين ومع كل من هيتلى أركان حربنا.

وبعد أن أعدنا النظر فى الخطة، ما لبث أن غدا واضحاً لنا أن نجاحنا يتوقف على أن تختصر عملية (السندان) لتصبح مجرد تهديد، وأن تتقل سفن الإنزال المخصصة لهذه العملية إلى عملية السيد الأعلى.

وعملية (السندان)، هى عبارة عن إنزال قوات فى جنوب فرنسا شرقى طولون، والقوات الحليفة، الأمريكية والفرنسية التى يفترض أن تشترك فيها يجب أن تأتى من مسرح العمليات الإيطالية.

واستمرت المناقشات المتصلة بعملية (السندان) حتى شهر أغسطس، وكانت ما تزال مستمرة عندما أجهزنا على الألمان المطوقين فى جيب فاليز.

ولقد كنت دائماً منذ البداية معارضاً لعملية السندان، وقد دعوت للتخلي عنها تخلياً كاملاً لسيبين رئيسيين، فقد كنا أولاً بحاجة إلى سفن الإنزال لعملية السيد الأعلى، ثم هى ثانياً تضعف الجبهة الإيطالية فى الوقت الذى نتقدم فيه بخط كبير لبلوغ فيينا قبل الروس.

وأخيراً حصلنا على سفن الإنزال التى كنا نحتاج إليها لعملية السيد الأعلى، بتأخير موعد غزو نورماندى من أول مايو إلى مطلع يونيو، وبتأخير عملية السندان حتى شهر أغسطس، ولكن عملية السندان جرت فى ١٥ أغسطس، وكانت فى رأى أحد أكبر الأخطاء الإستراتيجية فى الحرب.

وكان من نتيجة هذه العملية توسيع الجبهة توسيعاً كبيراً ، وزيادة التباطؤ في الجنوب ، مما سبب في النهاية خطأ إستراتيجياً آخر في زحفنا نحو الحدود الألمانية .

وأقر «إيزنهاور» خطتنا المتقحة لعملية السيد الأعلى في مؤتمر انعقد في لندن في ٢١ يناير ولكي يتمكن القارئ من أن يفهم فهما كاملاً ما حدث فيما بعد في نورماندى ، أود خصوصاً في هذه المرحلة ، أن ألفت الانتباه إلى الهيكل الأساسى للخطّة ، فيما يتعلق بتطور العمليات بعد أن نكون قد نزلنا إلى البر وثبتنا أقدامنا فيه .

لقد كنا ننوى الوثوب في وقت واحد على رمال الساحل النورماندى الواقعة مباشرة شمالى مصب كارتان ، وبين هذه المنطقة ونهر الأورن ، على أن يكون هدفنا تأمين قاعدة للعمليات المقبلة في موقع يشمل ميادين الطيران ومرفأ شربورج ، ويجب أن يشمل الجناح الأيسر أو الشرقى لهذا الموقع على مركز الطرقات (كان) .

وقد عهد إلى الجنرال «إيزنهاور» بقيادة جميع القوات البرية المخصصة لهذا الوثوب ، فكان لدينا لهذا الغرض جيشان ، الجيش الثانى البريطانى بقيادة «دمبسى» ، والجيش الأول الأمريكى بقيادة «برادلى» ، وبعدئذ تألف جيشان آخران ، هما الجيش الأول الكندى بقيادة «كرير» ، والجيش الثالث الأمريكى بقيادة «باتون» .

ومن المهم أن نعلم أن هدفى كان - بعد أن تثبت أقدامنا في نورماندى - تهديد الجبهة الشرقية باختراق يحدث فيها - أى في قطاع كان - وكان قصدى من القيام بهذا التهديد بلا هوادة أن أجذب إلى هذا القطاع قوات العدو الاحتياطية الرئيسية ولا سيما فرقه المدرعة ، وأن أجعلها هناك مستخدماً في سبيل هذا الغرض القوات البريطانية والكندية الموضوعة تحت إمرة «دمبسى» ، وكنت أنوى وقد أصبحت قوات العدو الرئيسية مشغولة على الجناح الشرقى أن أقوم باختراق على الجناح الغربى مستخدماً في هذه المهمة القوات الأمريكية التى هى بقيادة الجنرال «برادلى» ، وهذا

الهجوم يجب أن يشن باتجاه الجنوب، ثم القيام بانحراف كبير نحو الشرق باتجاه السين وباريس، وكنت امل أن يكون محور هذا الدولاب الجبار في (فاليز)، وهدفه عزل جميع قوات العدو في جنوب السين الذي يفترض أن تدمر قواتنا الجوية جسوره الواقعة وراء باريس.

وفي ٧ أبريل، جمعت كل جنرالات الجيوش الأربعة في مقرى العام بلندن وشرحت لهم خطتى في خطوطها العريضة أولا ثم في تفاصيلها، وكذلك شرح قائد البحرية الأعلى وقائد الجو الأعلى خططهما.

وفي منتصف مايو، كنت قد قمت بزيارة كل التشكيلات في المملكة المتحدة، فرأى جميع الضباط وجميع الجنود الذين سيشاركون في غزو نورماندى، وسمعونى أخطب فيهم، لقد فتشت وفتشنى أيضا أكثر من مليون رجل.

في أواخر مارس، كان كل شيء جاهزا لعملية السيد الأعلى، وكانت الجيوش تتحرك نحو مناطق الاحتشاد، واستغرقت هذه التحركات بعض الوقت، وحدد يوم الغزو في الخامس من شهر يونيو ١٩٤٤، وانقضى كل شهر أبريل في تمارينات بلغت الذروة بين ٣ و ٦ مايو بتمرين عام بالغ الأهمية.

وقد أجريت يومى ٧ و ٨ أبريل في مقر قيادتى العام في لندن تمرينا حضره جميع القواد العاملين لجيوش الإنزال، وكان هدفى أن أضعهم وأركان حربهم كليا في جو عملية (السيد الأعلى) لجهة الخطة العامة والمسألة البحرية والنشاط الجوى، وقد استغرق هذا اليوم الأول، وفي ٨ أبريل درسنا المواقف التى يمكن أن تنشأ خلال العملية، سواء أثناء اقترابنا بطريق البحر أو بعد قيامنا بأول إنزال، وكان رئيس الوزراء حاضرا في اليوم الأول وتحدث إلى كل الضباط المجتمعين.

وفي ٢٨ أبريل، نقل مقرى العام إلى (ساوثوك هاوس)، في منطقة (بورتسموث)، حيث يجب أن يوجد مقرنا العام للعمليات في يوم الغزو.

وفى أبريل كتبت آخر تعليمات تكتيكية وجهتها إلى الجيشين اللذين سيتزلان فى نورماندى، وفى خلال شهر مايو، جرت لى أحاديث كثيرة مع «بيل وليامز» الذى كان قد أصبح برتبة لواء ورئيسا لمصلحة استخباراتى.

وكان «رومل» قد تسلم فى فبراير قيادة القطاع الساحلى بين هولندا واللوار، وبعد وصوله أخذت عقبات من كل نوع تظهر على الشطآن، وأصبح أكيدا أنه ينوى مقاومة كل تغلغل، وأن هدفه هو مقاتلتنا على الشواطئ.

وكان «وليامز» بارعا فى تصفية المعلومات التى نحصل عليها، وفى حذف ما ليس له منها إلا قيمة ضئيلة، ثم تقديم صورة صادقة عن العدو إلى، وكانت وجهة نظره أن «رومل» سيحاول دحرنا على الشواطئ، وأن علينا أن نكون مستعدين لمقاومة عنيفة فى منطقة بوكاج النورماندية إذ نحن زحفنا إلى الداخل، وإذا لم يوفق «رومل» فى إقصائنا عن الشواطئ، فسيحاول أن يحاصرنا فى منطقة بوكاج، وعلى هذا الأساس رسمت خططى.

وفى ١٥ مايو، قام المقر العام الأعلى بتقديم خططنا المشتركة للمرة الأخيرة، وجرى ذلك فى مدرسة سانت بول، وحضر الاجتماع الملك ورئيس الوزراء والجنرال سمطس ورؤساء أركان الحرب البريطانيين.

وجاء الملك «جورج» بتناول طعام الغذاء معى فى برومفيلد هاوس، فى ٢٢ مايو، ليودعنى، وفى اليوم التالى كان على أن أذهب للمرة الأخيرة لزيارة الجيوش وألقى خطابا فى جميع كبار الضباط، ورفعت إلى الملك نسخة من النقاط التى وضعتها من أجل هذا الخطاب.

وعلى هذا انطلقت فى ٢٣ مايو فى هذه الرحلة الأخيرة- وكما أشرت سابقا- كان يوم الغزو قد تحدد فى ٥ يونيو، وكان على أن أعود من رحلتى فى الوقت المناسب.

وكننت عازما على أن أخطب فى جميع الضباط من أعلى رتبة حتى رتبة ليوتنان كولونيل، وأن استعرض الاحتمالات الرئيسية للعملية الجبارة التى سنقوم بها.

وزرت منطقة كل جحفل وكل فرقة، وتكلمت أمام ما يتراوح بين ٥٠٠ و ٦٠٠ ضابط دفعة واحدة، وقد استمرت جولتى ثمانية أيام وكانت مضية.

وابتداء من أول يونيو، أخذنا نقلق قلقا جديا من التنبؤات المتعلقة بالطقس وتقلبات الجو، ولم يكن فى مطلع يونيو إلا أربعة أيام يمكن خلالها القيام بعملية السيد الأعلى للأسباب الآتية:

* لقد ملأ العدو الشواطئ بكثير من العقبات والعراقيل، ويجب أن نكون قادرين على الهجوم فى طقس جاف لا تحت الأمطار.

* يلزمنا على الأقل ثلاثون دقيقة لذلك.

* لتقدير نتيجة القصف الجوى والبحرى، يلزمنا على الأقل ساعة من ضوء النهار، وفى بعض الحالات نستطيع الاكتفاء بأقل من ذلك، ولكننا لا نطلب المزيد إن كان هذا ممكنا.

* يلزمنا نحو ثلاث ساعات من المد بعد وصول المراكب الامامية إلى الشواطئ.

ولم تكن الشروط فى رأى تتوفر فى يوم ٤ يونيو، فهذا التاريخ لا يوفر لنا وقتا لتقدير أثر تفوقنا الجوى الكبير كل التقدير، إنه يوفر لنا خمس دقائق فقط فى سبيل ذلك، إذ أن قصف سلاح الجو الملكى لا يمكن أن يبدأ قبل مرور عشر دقائق على الشروق.

وسيظهر لنا أن أفضل موعد هو يوم ٥ يونيو، وكان هذا التاريخ قد اختير موعدا ليوم الغزو قبل عدة أشهر، أما يوم ٦ يونيو فكان يمكن قبوله تماما، وأما يوم ٧

يونيو، فلم يكن مناسباً لأنه يشتمل على ساعتين من ضوء النهار قبل الوصول إلى الشاطئ، ولكن يمكن اعتماده عند الضرورة، وبعد هذا التاريخ لا تتوفر أقرب فترة ممكنة للعملية قبل خمسة عشر يوماً.

وفي مساء اليوم الثاني من يونيو، تناول «إيزنهاور» العشاء معي بهدوء في برومفيلد هاوس، وبعد العشاء توجهنا إلى ساوثوك هاوس لنجتمع مع خبراء الرصد الجوي، وتقرر ابقاء موعد العملية في ٥ يونيو دون تغيير.

وفي ٤ يونيو، اجتمعنا في الساعة الرابعة صباحاً في ساوثوك هاوس، وكانت بعض القوافل قد أخذت سبلها في البحر استعداداً ليوم الغزو الذي سيكون في ٥ يونيو، ولم تكن تقارير الرصد الجوي مشجعة، أما الأسطول فقد اعترف بأن عمليات الإنزال ستكون ممكنة لكن صعبة، ولم يشأ الأميرال «رمزي» أن يلزم نفسه بأي إلزام، وكنت أرى الإبقاء على الموعد المحدد، بينما كان «تدر» يمثل القيادة العليا يرى التأجيل.

وبعد أن قمنا بوزن جميع العوامل، قرر «إيزنهاور» تأجيل العملية أربعاً وعشرين ساعة، على أن يكون يوم الغزو في ٦ يونيو.

* * * *

الفصل الرابع عشر

معركة نورماندى

٦ يونيو - ١٩ أغسطس ١٩٤٤

لقد كان هجومنا فى يوم الغزو مفاجأة تكتيكية، إذ كان الطقس رديئا والبحر هائجا، ولكن القوات أنزلت إلى البر فى أحوال حسنة وفى الأماكن المقررة، وتقدمنا ببطء وبعناد ووسعنا نطاق مواقعنا، وفى اليوم الأول بعد يوم الغزو تقدمنا من ٥ إلى ٦ أميال نحو الداخل، وفى اليوم الرابع بعد الغزو (١٠ يونيو) كنا نحتل موقعا متصلا يبلغ طوله ٦٠ ميلا ويتراوح عمقه بين ٨ و١٢ ميلا، وكان هذا الموقع محميا من جانبنا بقوة أزالنا كل قلق، ولقد أثار الموقف على شاطئ (أوماها) قلقنا الشديد فى بداية العملية، ولكن تم تركيزه بفضل شجاعة الجنود الأمريكيين ومساندة مدافع البحرية وجراة الطائرات القاذفة المطاردة.

وزارنى رئيس الوزراء والجنرال «سمطس» فى نورماندى فى ١٢ يونيو، وكان «تشرشل» فى حالة رائعة، وكان هذه المرة مستعدا للاعتراف بأننى أنا السيد فى منطقة القتال، وأن عليه أن يفعل ما يقال له.

لقد كانت خطتى الرئيسية التى وضعتها فيما بعد تختصر فى القيام بعمليات هدفها جذب قوات العدو الرئيسية إلى جبهة الجيش الثانى البريطانى، أى إلى جناحنا الشرقى، لكى يتاح لنا أن نربح أرضا بصورة أيسر فى الغرب، والقيام بالزحف الأخير فى الجناح الغربى مستخدمين لهذا الغرض الجيش الأول الأمريكى، وإذا تسارعت الأحداث على الجناح الغربى، فسيبنى هذا أننا سنحقق فيه مكاسب أرضية عاجلة.

أما على الجناح الشرقى، فى قطاع كان، فاكساب الأرض أقل إلحاحا، فقد كان من الأفضل هناك إجبار العدو بمعارك شديدة على القذف بقواته الاحتياطية ليتاح للأمريكيين أن يغزوا دون مقاومة شديدة أرضاً هامة فى الغرب.

وكانت أهمية كان الاستراتيجية الكبرى، تشجع كثيرا على تنفيذ هذه الخطة الرئيسية، فهى عقدة طرق وخطوط حديدية تمر بها الطرق الرئيسية المؤدية من الشرق ومن الجنوب الشرقى، إلى منطقة نقطة إرتكازنا، وبما أن معظم القوات الألمانية الاحتياطية المتحركة موجودة فى شمالى السين، فإن عليها أن تهاجم من الشرق رأس جسرنا، ولذلك عليها أن تتجه نحو كان، وفى الجنوب الشرقى بين كان وفاليز، كانت الأرض ملائمة للطيران.

وكنتم مقتنعا بأن هجوما قويا مستمرا فى قطاع كان يتيح لنا أن نبليغ هدفنا، الذى هو جذب قوات العدو الاحتياطية إلى جناحنا الشرقى، فتلك كانت فكرتى الأساسية، وكانت منذ البداية فى أساس كل ترتيباتنا، وما أن نزلنا إلى البر وثبتنا أقدامنا فيه حتى شرعت فى وضع هذه الاستراتيجية موضع التنفيذ، وبعد معارك شديدة فى منطقة كان واكتساح شبه جزيرة كونانتان، أخذت هذه الاستراتيجية تبلور.

ولم يكن هناك أى حافز يدفعنى إلى تعديل خطتى الأساسية، ولا شك أننا لم نتقيد بدقة بالمواقيت التى قدرناها لكى نأخذ بعين الاعتبار الترتيبات الإدارية، ولم نتردد كذلك فى أن نوفق بين خططنا وترتيباتنا وبين تطور الموقف التكتيكى، كما فى جميع المعارك، ولم أفكر لحظة فى أن أتصرف على خلاف ذلك، ولكن التصميم الأساسى بقى دون تغيير، وقد وضعت فيه كل آمالى وتشبثت به بحزم على الرغم من معارضة الجبهة المتزايدة، فنحن لم نستول مثلا على كان قبل ١٠ يوليو، ولم نظهر ضواحيها الشرقية قبل ٢٠ يوليو، وكانت نيتى الأولى أن نؤمن بأسرع وقت

يمكن المرتفعات الواقعة بين كان وفاليز، فهذه المنطقة كانت تبدو لى ملائمة لإنشاء ميادين طيران، ولكن لم يكن هذا جوهريا، وعندما وجدنا أن هذا التصميم لا يمكن أن يتحقق وفقا للخطة الأساسية دون أن يكلف خسائر باهظة ليس لها ما يبررها، لم ألق بنفسى فى هذه المغامرة، ولم يرق موقفى هذا لقائد سلاح الجو.

وكان التصميم الأساسى الاستراتيجى على الجناح الشرقى، وضع قوة مدرعة فى جنوب شرقى كان فى منطقة بورغيو، مما لم يكن منه بد لإبقاء معظم المدرعات الألمانية على الجناح الشرقى ومساعدة التوسع الأمريكى بذلك نحو الغرب، ولم نزحف على هذه المرتفعات إلا عندما بدأ الجيش الثانى فى ١٨ يوليو عملية (غوروود) بالمدرعات، وما أن توقف تقدم المدرعات بفعل مقاومة العدو الشديدة وهطول الأمطار الغزيرة التى حولت المنطقة إلى بحر من الوحول، حتى قررت التخلّى عن هذا الهجوم.

وفى ١٨ يوليو أعدت عملية كوبرا، وهى عملية الاختراق النهائى على الجبهة الأمريكية، ووافقت أنا على خطة هذه العملية.

وفى هذه الأثناء كان الجيش الأول الأمريكى قد وطد أقدامه فى موقع يستطيع منه أن يتهيأ للقيام بعملية الاختراق، وأملنا فى البدء أن نبدأ بالعملية من خط سان لوكوتانس ولكن جرى التخلّى عن هذه الفكرة، وقرر برادلى أخيرا شن العملية من الخط الذى تؤولفه طريق سان لوييريه، وكان هدفنا بلوغ هذا الخط فى اليوم الخامس بعد الغزو (١١ يونيو) ولكنه لم يتحقق إلا فى ٨ يوليو.

وفى أثناء هذه الفترة كلها كانت القوات البريطانية تواصل أداء دورها على الجناح الشرقى، فجمدت فى خلال معارك شديدة غير منقطعة معظم قوات العدو العاملة فى قطاع كان.

وكنت كلما ازداد التأخر على الجبهة الأمريكية، أصدر الأمر إلى القوات البريطانية بتقوية عملياتها، وما أشتكى «دمبسى» يوما من جراء ذلك.

ولقد حاول العدو أن يحصلنا في منطقة بوكاج النورماندية على بعد 'يتراوح بين ١٥ و ٢٠ ميلا من منطقة الهجوم، وتكفل هذا التكتيك لفترة من الزمن بالنجاح، ولكنه لم يكن لينجح إلا إذا استدعى العدو باستمرار قواته الاحتياطية لكي يسد الفجوات في خطوطه الدفاعية بخسائر جسيمة في الرجال والعتاد، وقوات العدو الاحتياطية هذه حالت بيننا وبين تحقيق أى كسب ملموس شرقى (كان) وجنوب شرقيهما، ولكنها إذا كانت تفعل ذلك لم تعد في متناول القيادة الألمانية لصد الاندفاعات على الجناح الغربى، لقد كانت، باختصار، مشبكة في القتال، وكما جرى في العلمين، أجبرنا العدو على القذف بقواته الاحتياطية على جبهة واسعة، وكنا مستعدين الآن لأن نقذف بقواتنا الاحتياطية على جبهة ضيقة فنربح بذلك المعركة.

وكان يتحتم البدء بعملية (كوبرا) في ٢٠ يوليو، وهو اليوم الذى أصدرت الأمر فيه بإنهاء عملية (غور وود) على الجناح الشرقى باتجاه كان، ولكن الطقس أخرنا مرة أخرى، ولم نشرع في عملية (كوبرا) إلا في ٢٥ يوليو، وكنت مقتنعا بأن مضاعفات خطيرة ستحصل على طول جبهة العدو عندما يقوى الهجوم الأمريكى، فسينكفى خط العدو إلى الوراء، ويحاول الألمان إقامة جبهتهم على بعض التحصينات القوية، وكان هناك فى رأى ثلاثة مواضع لإقامة مثل هذه الجبهة:

أولاً: فى كومون.

ثانياً: على نهر الأورن.

ثالثاً: على المرتفعات الواقعة بين كان، وفاليز.

وعزمت بناء على ذلك أن أنسف المفاصل التى كنت مقتنعا بأن العدو سيحاول أن يدير حولها جناحه الأيسر، فأعطيت الأوامر المقتضاه، وأخذ الجيش الثانى على الفور يعيد تجميعه وينقل ثقله من طرفه الأيسر فى جنوبى شرقى كان إلى طرفه

الأيمن في كومون، وكان هذا التحرك عملا كبيرا وقد نفذه الجيش الثاني تنفيذًا رائعًا. وكان يفترض أن تقوم بالهجوم على كومون- عملية الشرطي- ست فرق في ٢ أغسطس، ولكن بسبب السرعة غير المتوقعة التي سار فيها التقدم الأمريكي، قدمت الموعد إلى ٣٠ يوليو بالاتفاق مع دمبسي.

وفي ١١ أغسطس، عندما كانت معركة نورماندى قد قاربت نهايتها، كان مجموع الخسائر كما يلي:

من البريطانيين والكنديين ٦٨.٠٠٠.

من الأمريكيين ١٠٢.٠٠٠.

وكان لدينا آنذاك في فرنسا ٣٧ فرقة موزعة كما يلي:

مجموعة الجيوش الثانية عشرة (أمريكية) ٢١ فرقة.

مجموعة الجيوش الحادية والعشرين (بريطانية) ١٦ فرقة.

ويمكن القول إن معركة نورماندى انتهت في ١٩ أغسطس، إذ في ذلك اليوم تخلصنا نهائيا مما كان قد بقى من قوات العدو المطوقة في الجيب الواقع شرقى مورتان، وكان الانتصار نهائيا، كاملا، حاسما.

ولقد بلغت خسائر العدو في معركة نورماندى كالتالى:

قواد جيوش، قواد جحافل، قواد فرق، قتلوا أو أسروا: ٢٠.

قائدا جيشين جرحا (رومل وهاوسر): ٢.

قائدان عامان أبدلا (فون رونشتد، وفون كلوجه): ٢.

فرق أبدت: ٤٠.

خسائر العدو فى الرجال: ٣٠٠ ألف رجل.

مدافع دمرت أو استولينا عليها: ٣٠٠٠.

دبابات دمرت: ١٠٠٠.

الفصل الخامس عشر

استراتيجية الحلفاء في شمال السين

في منتصف شهر أغسطس ١٩٤٤ كان موقف الألمان في فرنسا يدعو إلى اليأس، وقد سقطت باريس في ٢٥ أغسطس، وفي اليوم التالي تضمنت نشرة المعلومات التي يصدرها المقر العام الأعلى العبارة التالية:

انتهى شهران ونصف من المعارك القاسية بحمام دم بالنسبة للألمان، وأصبحت نهاية الحرب في أوروبا وشيكة، وتكاد تكون في متناول اليد، لقد تحطمت قوة الجيوش الألمانية في الغرب، واستعادت فرنسا باريس، وتتقدم جيوش الحلفاء تقدما لا تقف في سبيله أية مقاومة نحو حدود ألمانيا.

وبعد قليل أصدر المقر العام الأعلى تعليمات تتعلق بالعمليات، بدأت بهذه الكلمات: في جميع أنحاء الجبهة تبدو علامات الانهيار على مقاومة العدو، ومعظم قوات العدو الباقية- وهي تقدر بما يساوي فرقتي بانزر ضعيفتين وتسع فرق مشاة - موجودة في شمال غربي الأردن، ولكنها فقدت نظامها، وهي في تراجع كامل وتبدو عاجزة عن إبداء أية مقاومة ذات قيمة، وفي جنوبي الأردن تقدر قوات العدو بما يساوي فرقتي بانزر متخبتين، وأربع فرق مشاة ضعيفة، وهناك قوة خليطة مختلفة العناصر تنكفيء في جنوب غربي فرنسا، وقد يبلغ عددها حوالي مائة ألف رجل، ولكن قيمتها القتالية يمكن أن تقدر بما يساوي فرقة واحدة، وهناك ما يساوي نصف فرقة بانزر وفرقتي مشاة تتجه نحو الشمال بطريق وادي الرون، والطريقة الوحيدة التي يتمكن بها العدو من أن يعرقل دخولنا ألمانيا هي تعزيز جيوشه المتراجعه بفرق تأتي من الداخل ومن جهات أخرى لتحتل قطاعات هامة

من خط سيجفريد، ومن المشكوك فيه أن يتمكن العدو من فعل ذلك فى الوقت المناسب وبقوة كافية.

وكانت خطتى جاهزة، وقبل أن تنتهى العمليات الأخيرة فى معركة نورماندى، قررت التوجه لرؤية «برادلى» ومحاولة نيل موافقته على هذه الخطة، وفى ١٧ أغسطس كان مقرى العام التكتيكي فى لويينى بوكاج، فأخذت الطائرة لأزور «برادلى» الذى كان مقره العام فى شمالى فوجير، وقدمت الخطوط الأخيرة لخطتى، وهى الآتية:

١ - بعد أن تجتاز السين، يجب على مجموعتى الجيوش الثانية عشرة والحادية والعشرين أن تشكلا معا كتلة منسجمة من نحو ٤٠ فرقة إلى درجة تجعلها لا تخشى من العدو شيئاً، وهذه القوة عليها أن تتحرك باتجاه الشمال الشرقى.

٢ - تظهر مجموعة الجيوش الحادية والعشرين، على الجناح الغربى، ساحل المانش، والبادى كاليه، والفلاندر الغربية، وتستولى على أنفرس وجنوب هولندا.

٣ - تؤلف مجموعة الجيوش الثانية عشرة الجناح الشرقى للتحرك، وتسير بجناحها الأيمن نحو الأردن، باتجاه اكس لا شاييل، وكولونى.

٤ - تكون باريس محور مجمل الحركة، وتتمركز قوة أمريكية كبيرة فى منطقة أورليان، تروى، شالون، ريمس، لون، على أن يمتد جناحها الأيمن على طول نهر اللوار حتى نانت.

٥ - تتجه قوات عملية التين القادمة من جنوبى فرنسا نحو نانسى والشار، ويجب علينا ألا نحاول الانضمام إليها بميمتنا، إذ أن هذا يخل بتوازن استراتيجيتنا.

٦ - هدف الحركة الأساسي هو إقامة طيران قوى فى بلجيكا، وإنشاء رؤوس جسور فيما وراء الراين قبل بدء الشتاء، والاستيلاء بسرعة على الروهر، وبعبارة أبسط: هى خطة شليفن الألمانية فى عام ١٩١٤ معكوسة، مع فرق هام هو أنها ستنفذ ضد عدو مزعزع فقد نظامه، ويتوقف نجاحها على حشد القوات الحليفة، وبالتالي على المحافظة على وسائل العمل على الجناح الأيسر.

وقد أعلن «برادلى» أنه موافق كل الموافقة على الخطوط الكبرى لهذه الخطة. وفى ٢٠ أغسطس عقد «إيزنهاور» اجتماعا لأركان الحرب فى مقره العام الأمامى فى نورماندى لأخذ الأفكار بشأن سير الحرب المقبل، وكان رئيس أركان حربى حاضرا هذا الاجتماع الذى اتخذت فيه مقررات هى باختصار:

أ - تعديل نظام القيادة فى أول سبتمبر، بحيث يتولى «إيزنهاور» شخصيا قيادة مجموعة الجيوش.

ب - توجه مجموعة الجيوش الثانية عشرة نحو مترز، والसार حيث تنضم إلى قوات عملية التين، ولم أوافق على القرارات المتخذة، فكلفت «دى غوينغواند» أن يعود «فيرى إيزنهاور»، وسلمته بعض الملاحظات بالموضوع ليحملها إليه، وقد قضى فى ٢٢ أغسطس ساعتين مع «إيزنهاور» محاولا جعله يوافق على بعض النقاط المبدئية، وقد أعطى «إيزنهاور» الملاحظات التى دونتها قائلا له: إن «برادلى» وافق كل الموافقة فى ١٧ أغسطس على الخطة التى اقترحتها، وهذه هى ملاحظاتي:

١ - أن أسرع سبيل لإنهاء هذه الحرب إنهاء مظفرا هى جعل كتلة الجيوش الحليفة تتقدم باتجاه الشمال، وتطهير الساحل حتى أنفرس، وإقامة طيران قوى فى بلجيكا، والتغلغل فى الروهر.

٢ - يجب أن تعمل قواتنا ككل ويانسجام كبير، ويجب أن تكون من القوة بحيث تقوم بمهمتها بسرعة.

٣ - إنه لضرورى أن يكون هناك إشراف واحد على العمليات البرية وإدارة واحدة لها لتأمين النجاح، وهذه مهمة كافية للاستتار بنشاط رجل واحد.

٤ - لقد أمكن إحراز الانتصار الكبير فى شمالى غربى فرنسا بفضل القيادة الشخصية، وعلى هذا النحو فقط ستربح المعارك المقبلة، وإذا سمحنا بتسلل إشراف أركان الحرب فسرعان ما سيتعرض نجاحنا للخطر.

٥ - إن تعديل نظام القيادة فى وقت إحرازنا فيه مؤخرًا انتصاراً كبيراً ، يعنى إطالة أمد الحرب.

وحصل «دى غوينغواند» إلى النتيجة السلبية لحديثه مع «إيزنهاور» فعزمت على أن أراه بنفسى، فدعوته للمجئ لتناول طعام الغداء معى فى اليوم التالى - فى ٢٣ أغسطس - فى مقرى العام التكتيكى فى كوندية سورنوارو، فقبل دعوتى بسرور.

وكنت راغباً فى التحدث مرة أخرى مع «برادلى» قبل مقابلة «إيزنهاور»، وكان قد نقل مقره العام إلى لافال، فتوجهت إلى هناك بالطائرة فى ساعة مبكرة من صباح ٢٣ أغسطس، ولكم كانت دهشتى عندما اكتشفت أن «برادلى» غير رأيه، وعدت إلى مقرى العام فى الوقت اللازم لاستقبال «إيزنهاور» الذى اصطحب معه «بيدل سميث»، وكانت هذه هى المرة الأولى اتى ألتقى فيها «بيدل سميث» منذ تركته فى إنجلترا فى ليل ٦ يونيو.

وسألت «إيزنهاور»: هل أستطيع أن أتحدث إليه على انفراد؟، ووافق «إيزنهاور»، فتحدثنا وحدنا مدة ساعة شرحت له خلالها وجهة نظرى حول ضرورة وضع خطة بناءة سليمة على الفور، وقلت له إن عليه أن يقرر أين يجب أن يتركز

الجهد الرئيسى، وإن علينا أن نكون من القوة فى هذا الظرف بحيث نكون متأكدين من الحصول على نتائج حاسمة بسرعة، وأعطيته نظرة عامة عن الوضع الإدارى، مظهراً أن خطوط مواصلاتنا ستصبح قريباً ممتدة جداً، وأن علينا أن نحشد مواردنا من البترول والذخائر وراء خط الإندفاع ذاك، أما إذا وزعناها بالتساوى على طول الجبهة فلن نستطيع أن نحرز نجاحاً حاسماً، وعرضت له بعدئذ خطتى الخاصة التى كانت قد نالت فى البداية موافقة «برادلى».

ورسمت لايزنهاور تفاصيل الخطة على الخريطة، مدللاً على أن لها آمالاً كبيرة فى النجاح، ولفت نظره إلى أنه إن اعتمد استراتيجية الجبهة الواسعة بأن تتقدم القوات على طول الخط وتقاتل كل وحدة من الواحدات طول الوقت، فإن التقدم سيتوقف حتماً فى وقت من الأوقات، فيتنفس الألمان عندئذ الصعداء وتمتد الحرب خلال الشتاء، وحتى فى عام ١٩٤٥.

وأضفت أن على «لايزنهاور» بوصفه القائد الأعلى ألا يتزل عن رتبته فيتولى شخصياً قيادة المعركة البرية، فالقائد الأعلى يجب أن يكون قادراً على أن تكون له نظرة شاملة للمشكلة المعقدة التى تنفرع إلى مشاكل برية وجوية ومدنية وسياسية.

إن قائداً آخر يجب أن يتولى هو قيادة المعركة البرية، ولقد أحرزنا فى نورماندى إنتصاراً كبيراً بفضل عملنا الموحد، لا بالرغم من العمل الموحد، وقلت «لايزنهاور»: إن هذه النقطة هى من الأهمية بحيث إنه إذا شاء أن يراعى الرأى العام الأمريكى فهو يستطيع أن يوكل إلى «برادلى» قيادة المعركة، وأنا مستعد للخدمة تحت إمرته بطيب خاطر، وقد أحدث هذا الاقتراح لدى «لايزنهاور» رد فعل سريع، وأكد أنه لم تكن لديه فى أى يوم من الأيام مثل هذه النية.

وأثناء حديثنا وافق «لايزنهاور» على أن مجموعة الجيوش الحادية والعشرين لم تكن قوية قوة كافية لأن تقوم وحدها دون مساندة بالمهمات التى يقتضيها القيام

بزحف فى الشمال، وأقر بأن كل العون الأمريكى الضرورى يجب أن يقدم ، وأن تنسيق الإندفاع فى الشمال والقيادة العامة لعملياتها يجب أن يمارسها قائدا أعلى واحد أى أن أمارسها أنا شخصيا.

وقلت: إننى أرغب فى أن يتقدم جيش أمريكى لا يقل عن ١٢ فرقة على الجناح الأيمن لمجموعة الجيوش الحادية والعشرين، فأجاب أن مجموعة الجيوش الثانية عشرة لن يبقى لها فى هذه الحالة إلا جيش واحد، وأن رأى العام الأمريكى قد يحتج، فسألته: لماذا يحملنا رأى العام على اتخاذ قرارات هى فى نهاية الأمر قرارات خاطئة؟ ووافقت على أننى ربما ذهبت بعيدا بعض الشيء فى إصرارى على أن يتبنى خطتى، ولم أراع مراعاة كافية للعبء السياسى الذى يثقل كاهله، ذلك أنبنى «إيزنهاور» لخطتى كان يقتضيه أن يوقف «باتون»، والجيش الثالث الأمريكى، ولكن حججى لم يكن لها تأثير، فقد صاربنى استراتيجية الجبهة الواسعة، وكان على مجموعة الجيوش الثانية عشرة وهى تقوم باندفاع إلى الأمام لمساندة مجموعة الجيوش الحادية والعشرين، أن توجه جهدها الرئيسى باتجاه متر، والشار، وفوضت بأن أوجد تنسيقا للعمليات بين مجموعة الجيوش الحادية والعشرين والجناح الأيسر لمجموعة الجيوش الثانية عشرة، وقد حذفت كلمة تنسيق العمليات من التوجيهات.

ومع ذلك فإن توجيهات أعطاها «إيزنهاور» فيما بعد، أى بعد أن تسلم فى أول سبتمبر القيادة المباشرة للقوات البرية، تنص على: أن على مجموعة الجيوش الثانية عشرة أن تتأكد من أن قواتها العاملة على ميمتى ضد الروهر مدعومة دعما ملائما من الناحية اللوجستية، وهكذا كنا جميعا مستعدين لاجتياز السين وسلوك طرقتنا المختلفة، وكان التفاؤل متشرا، والقائد الأعلى يحض كل فرد على طول الجبهة كلها، فالجميع يجب أن يقاتلوا كل الوقت، ولكن المزعج كان أننا نفتقر إلى خطة أساسية تعالج العملية كوحدة تامة، فقد كانت استراتيجيتنا آيلة إلى التفكك.

وكننت مصمما على أن ألعب دورى كليا، فتظهر القوات البريطانية - حين يأتى وقت معركة التحرك- أنها لا تتأخر فى شىء عن الجيوش الأخرى، ولكن كان عندى قلق كبير، فكل خبرتى العسكرية تقول لى إن هذا القلق يستند إلى أساس، وأن علينا أن نتوقع حملة شتاء طويلة الأمد بكل ما يعنيه هذا بالنسبة للشعب البريطانى.

وكننت كلما فكرت فيما نحن فاعلون إزداد اقتناعى بأنه خطأ، فالاقتصاد واليد العاملة البريطانيان كانا بحاجة إلى النصر فى عام ١٩٤٤، لا بعد هذا العام، والحرب ترهق كاهل جمهور الشعب البريطانى، فمن الضرورى أن تنتهى بسرعة، وهذه الضرورة تختلف عن الضرورة الأمريكية، إنه اختلاف فى درجة الإلحاح، واختلاف أيضا فى المبدأ وهذا ما لم يكن يفهمه الجنرالات الأمريكيون، فالحرب لم تنقل يوما إلى داخل بلادهم، فلماذا يتحتم علينا أن نكون ضحية الراى العام الأمريكى وانتخابات الرئاسة الأمريكية؟

إن الاستراتيجية التى نعتمدها الآن تعنى خسائر أكبر فى القتلى والجرحى، ولن يكون انتشار الجيوش على جبهة واسعة لأسباب تتعلق بالسلامة، فجناحنا الجنوبى كان فى نجوة كلية، وكان يمكن حمايته بفضل تفوقنا الجوى وحده مع مساندة عسكرية ضئيلة، وإن لم تحقق عملية التين شيئا فإنها حققت هذا على الأقل.

ولم يكن هناك أية مجازفة حقيقية فى فعل ما اقترحته، وكانت خطتى تقدم الامكانية الوحيدة لإنهاء الحرب بسرعة.

وأخذت أعلم بواسطة ضابط اتصالى لدى مقر الجنرال «برادلى» العام، أن القوات الأمريكية على ميمتى ليس لها أية أفضلية فيما يتعلق بتموين القوات، فخطه «إيزنهاور» القاضية بالقيام بزحفين، أحدهما نحو الروهر، والآخر نحو السار، تعنى أن كل شىء يجب أن يقسم الجيش البرى والطيران وتموين القوات ووسائل النقل والعتاد المتحرك، لقد قذفنا إلى البحر بمبدأ حشد الجهود وتركيزها.

وكان مقر «إيزنهاور» العام فى غرانفيل على الجانب الغربى من شبه جزيرة كوتانتان وربما كان هذا المكان ملائماً لقيادة عليا، ولكن لم يكن ملائماً لإطلاقاً لقيادة قوة برية، وهى القيادة التى يجب أن تراقب باستمرار نبض جيوشها وتتخذ قرارات سريعة إزاء أوضاع تتعدل بسرعة، فقد كان المقر يوجد على بعد أكثر من ٤٠٠ ميل وراء جبهة القتال، أضف إلى ذلك أن «إيزنهاور» كان يلزم الفراش لمرض فى ركبته، ولم تكن هناك خطوط هاتفية، ولا حتى تليفون لاسلكى يصل مقره العام بى ولايرادلى، وفى مطلع سبتمبر لم يكن لايزنهاور- بمقدار ما أعلم- أى اتصال بالمعركة البرية.

وقررت أن أخاطب «إيزنهاور» مرة أخرى متابعاً مساعى لاعتماد خطة مقبولة فأرسلت إليه بالرسالة الآتية فى ٤ سبتمبر، وهو اليوم الذى استولينا فيه على أنفرس ولوفان:

- أود أن أعرض لكم بعض وجوه العمليات المقبلة، وأن أقدم لكم رأى فيها:
- ١ - إننى أرى أننا قد بلغنا الآن مرحلة يمكن فيها لزحف قوى فعلا باتجاه برلين أن يقودنا إلى إنهاء الحرب على هذا النحو مع ألمانيا.
- ٢ - ليست لدينا موارد كافية للقيام بزحفين قوين.
- ٣ - لذلك فالزحف المختار يجب أن توفر له كل الموارد التى يحتاج إليها دون أى تأخير، وعلى القوات المكلفة بأية عملية أخرى أن تبذل أقصى جهدها بما يتبقى.
- ٤ - فى رأى أن الزحف الذى يمكن أن يعطى أحسن النتائج وأسرعها هو الذى يجرى باتجاه الشمال بطريق الروهر.
- ٥ - إن عامل الوقت عامل أساسى، ويجب أن يتخذ القرار المتعلق باختيار الزحف الأفضل بسرعة، وأن يطبق مضمون الفقرة الثالثة من هذه الرسالة.

٦ - إذا نحن اعتمدنا حلا له طابع التسوية، وقسمنا مواردنا بصورة لا تجعل أى واحد من الزحفين قويا، فإننا نطيل أجل الحرب.

٧ - إننى أرى أن القضية كما تتجلى فوق هى قضية بسيطة وواضحة والمسألة هى من الأهمية الحيوية على مقدار يجعلنى مقتنعا بأنكم ستكونون من أصحاب الراى القائل بأن اتخاذ قرار مطابق لما سبق يجب أن يتم دون تأخير، وإذا مررتم بمقرى العام قد ترغبون فى بحث الموضوع ومناقشته، وفى هذه الحال يسرنى أن أجمع بكم غدا على الغذاء، ولا أعتقد أننى أستطيع أن أترك المعركة فى الوقت الحاضر والواقع أن الوقت كاد يكون قد فات، فقد بدأ الزحف نحو السار، وتلقى «باتون» كل ما يلزمه لتقدمه نحو متر، وإلى يمينى كان على الجيش الأول الأمريكى أن يغطى تقدم «باتون»، ولم يكن قادرا على أن يساند فى الوقت نفسه عملياتى كما تلقى الأمر بذلك، ولكن ربما لا يزال هناك وقت لإنقاذ شىء من السفينة الغارقة إذا استطعنا الوصول إلى قرار سريع.

وقد تلقى «أيزنهاور» رسالتى فى ٥ سبتمبر، فأجبنى فى الساعة ١٩,٤٥ من اليوم نفسه، وكانت الاتصالات مع مقره العام فى غرانفيل على جانب من سوء التنظيم، حتى أن جوابه وصلنى على دفتين، ووصلت الفقرتان ٣ و ٤ من هذا الجواب أولا فى الساعة التاسعة من صباح يوم ٧ سبتمبر، ثم وصلتنى الفقرتان ١ و ٢ الساعة ١٥, ١٠ قبل ظهر يوم ٩ سبتمبر.

وهذه هى رسالة «إيزنهاور» الكاملة كما أعدت ترتيبها بعد وصول أجزائها:

١ - مع موافقتى على فكرتك القائلة بوجوب القيام بزحف قوى باتجاه برلين، إلا أننى لست مع الراى القائل أن هذا الزحف يجب أن ينفذ على أساس استبعاد كل العمليات الأخرى.

٢ - إن معظم الجيش الألماني الذي كان فى الغرب قد دمر الآن، وعلينا أن نستغل على الفور نجاحنا بفتح ثغرة فى خط سيجمفريد، معجنازين الراين على جبهة واسعة، وبلاستيلاء على السار وعلى الروهر، وأنا أنوى أن أفعل ذلك بأسرع ما يمكن ، فهذا سيبيح لنا أن نمسك بخناق منطقتين من أهم مناطق ألمانيا الصناعية، فنجعلها عاجزة عن مواصلة الحرب مهما حدث، وسيساعدنا هذا على قطع خط الرجعة على قوات العدو المنسحبة الآن من جنوب فرنسا، وهكذا ستكون لنا حرية العمل للضرب فى أى اتجاه من الاتجاهات، وسنجبر العدو على أن ينشر على مسافة واسعة القوات التى قد يجمعها لدفاعه.

٣ - سنفتح أثناء تقدمنا مرفأى الهافر و أنفرس، الأساسين لدعم الزحف القوى نحو قلب ألمانيا، فأية إعادة لتوزيع مواردنا الحالية لن تكون كافية من أجل دعم الزحف بإتجاه برلين.

٤ - وبمقتضى ذلك تتجه نيتى إلى احتلال السار والروهر أولاً، وعندما يتم هذا يصبح مرفأ الهافر ومرفأ أنفرس قادرين على دعم الزحفين اللذين تشير إليهما أو أحدهما، ومن هذه الناحية أعطيت دائماً ولا أزال أعطى الأفضلية للروهر ولطريق الشمال، كما تشير إلى ذلك توجيهاتى أمس، وهى التى صادف وقتها وقت برقيتكم، إن القاطرات الحديدية والعتاد المتحرك هى الآن مخصصة- على أساس هذه الأفضلية - لدعم قوتكم المندفعة إلى الأمام، وقوة «برادلى» فى شمال غربى الأردن، فتفضلوا بإعلامى منذ الآن بحاجاتكم للتقدم.

وفى هذه الأثناء، تحدثت مع «برادلى» عن الوضع الخطر الذى تعانیه لوجستيتنا، واتفقنا على أنه يتحتم التخلّى عن مشروعاتنا القاضى بإلقاء قوات محملة جوا لدعم

التقدم، كما يتحتم استخدام جميع الطائرات المتوفرة من أجل نقلياتنا، ولم يكن في هذا تضحية كبيرة لأن سرعة تقدمنا منذ أن اجتزنا السين بلغت حدا لم نعد معه بحاجة إلى المظليين لمساعدتنا.

منذ أن كسبنا معركة نورماندى، تركزت عيناى باستمرار على الراين وعلى الروهر، وكنت أعلم أننا سنحتاج إلى جميع القوات المحملة جوا لتمكن من عبور الموز والراين، وقد خصص لى الجحفل الحليف الأول المحمل جوا.

وفى ٣ سبتمبر- وهو اليوم الذى حررنا فيه بروكسل- طلبت إلى قائدها الجنرال «براوننج»، أن يأتى ليرانى كى نتفق على الخط العام للزحف باتجاه الراين، وأنسب المناطق لإلقاء الفرق المحملة جوا.

وفى ٩ سبتمبر، أثبت من لندن أن الصواريخ الأولى من طراز (ف ٢) وجهت ضد إنجلترا فى الأيام السابقة، وكان يشك فى أنها قادمة من جوار روتردام وأمستردام، وسئلت متى أستطيع أن أطوق هذه المناطق؟ أما أنا فكنت أرى أن هذا من شأنه أن يقرر إتجاه زحفى وعمليات اجتيازى للموز، والراين، وأما نقطة الاتجاه فيجب أن تكون أرnhem، وكنت أعلم أن وضع عمويتنا هو العامل الذى يحد من أى قرار يمكن أن يتخذ، وتلبية للطلب الذى وجهته إلى «إيزنهاور» قبل ثلاثة أيام، وصل إلى بروكسل بالطائرة بعد ظهر ١٠ سبتمبر، وكان يرافقه «تدر»، وجرى لنا حديث طويل فى طائرة «إيزنهاور»، إذ لم يستطع أن يتزل منها لأنه كان ما يزال يعرج. وعرضت له موقفى بالتفصيل، فحدثته عن الصواريخ التى أخذت تضرب إنجلترا وعن المنطقة التى تنطلق منها، فقال لى: إنه كان ينوى دائما إعطاء الأفضلية للزحف نحو الروهر والتقدم بطريق الشمال، وأن الأمر قد وقع الآن، فأجبت: إن شيئا لم يقع بعد، فأوضح إنه لا يقصد بقوله: (أفضلية)، الأفضلية المطلقة وأنه لا يستطيع بأية حال من الأحوال تخفيف الزحف نحو السار، فقلت له: إن مقاومة

العدو ستشدد على خط قناة ألبرت، وأن استهلاكنا للبتروول والذخائر سيزداد، وأنا ستجاوز حدود تمويننا، وأصبح واضحا أنني لن أتمكن من شن العملية على نطاق كبير باتجاه أرnhem باكرا كما كنت أرجو، مما سيعطى للعدو وقتا يستجمع فيه قواه.

ومنذ أن اجتزنا السين انتقل مقرى العام إلى الشمال، ومقر «برادلى» العام إلى الشرق، وأصبحت المعركة البرية منتظمة وغير منتظمة فقلت إنه ما دامت المعركة مستمرة بزحفين وبتموين موزع بينهما فلن نصل إلى شيء، وأوضحت أن أنفرس وضواحي المرفأ التي لم نبلغها بعد تقع وراء الزحف على ذاك الجناح الأيسر الذى دعوت إلى إقامته فى ٢٣ أغسطس، وكان هناك خطتان ممكتان: خطة «برادلى»، وخطتى، وكان من الضروري دعم إحدى الخطتين، أما إذا أردنا دعم الخطتين معا فلن نستطيع الوصول سريعا إلى نتائج حاسمة، وأن أسرع سبيل لتطهير مرفأ أنفرس هو مساندة خطتى القاضية بإجراء حشد على المسيرة، وهى الخطة التى لا تعزز فقط وضعنا اللوجستى ووضع تمويننا، بل تبقى على الضغط الحاصل على الألمان الذين تنهال عليهم الضربات فى منطقة ذات أهمية بالغة، فتساهم بذلك فى إنهاء الحرب بسرعة.

وكان واضحا أن «إيزنهاور» لا يوافق على تحليلى للموقف، فقد كان يكرر أن علينا أولا أن نعبر الراين، وأن نعبره على جبهة واسعة، وعندئذ وعندئذ فقط، يمكننا أن نركز احتشاداتنا للقيام بزحف واحد، لكن «إيزنهاور» وافق على أن تقوم مجموعة الجيوش الواحدة والعشرين بزحف نحو أرnhem، وأقر بأن القيام بعمليات تتكامل بالنجاح فى هذا الاتجاه يساعد كثيرا على القيام بعمل مقبل.

وفى اليوم التالى ١١ سبتمبر، بعثت إلى «إيزنهاور» بالرسالة الآتية:

«لقد درست بعناية وضع تمويننا منذ التقائنا أمس، إن قراركم القاضى بالألا تكون للزحف باتجاه الشمال نحو الروهر الأفضلية على العمليات الأخرى ستكون له

مضاعفات يجب أن تعرفوها، إن العمليات واسعة النطاق - عمليات الجيش الثانى والحجفل المحمل جوا فى الشمال بإتجاه الموز والراين - لا يمكن الآن أن تجرى قبل ٢٣ سبتمبر، كأقرب موعد، وربما لا يمكن أن تجرى قبل ٢٦ سبتمبر.

إن هذا التأخير سيعطى العدو وقتا لاتخاذ ترتيبات دفاعية أفضل، وعلينا أن نتوقع مقاومة أشد وتقدما أبطأ، وبما أن الشتاء يقترب، فمن المحتمل أن يسوء الطقس وأن تتضاءل النتائج التى سيؤمنها لنا تفوقنا الجوى من الآن فصاعدا.

إن عملياتنا تتوقف إلى حد كبير على النقلات بالسكك الحديدية، وبالطرق البرية، والنقلات الجوية، فإذا لم تحشد كل هذه النقلات لتوفير الإندفاع لواحد من الزحفين المختارين، فإن أيا من هذين لن يتقدم بعيدا، ذلك أننا جميعا بعيدون عن قواعد تمويننا، وأتينا سنبدل قصارى جهدنا للقيام بمهمتنا، ولكن الحقائق سالفة الذكر تظهر لكم أنه إذا استمرت مقاومة العدو فى الاشتداد - كما هى الحال الآن - فلن يمكننا أن نتوقع نتائج هامة مادما لم نستكمل من جديد مخزوننا من الذخائر وسواها من المؤن.

وقد أحدثت هذه الرسالة رد فعل شبه كهربائى، فجاء «بيدل سميث» يرانى فى اليوم التالى ليقول لى: إن «إيزنهاور» قرر العمل على النحو الذى أوصيت به، وستتوقف الزحف نحو السار، وستلجم ثلاث فرق أمريكية مع وسائل النقل التى تستعملها؟ وذلك لتوفير تموين إضافى لمجموعة الجيوش الحادية والعشرين، وسيعطى معظم الدعم اللوجستى المخصص لمجموعة الجيوش الثانية عشرة إلى الجيش الأول الأمريكى على ميمتى، وسأخول التعامل مباشرة مع الجنرال «هودجز» القائد العام للجيش الأول الأمريكى.

فأعدت النظر فى خططى مع «دمبسى»، وحددت يوم الأحد ١٧ سبتمبر موعدا لعملية الزحف على أرnhem.

وبعد ظهر يوم ٢٢ سبتمبر، عقد «إيزنهاور» مؤتمرا في مقره العام بفرساي، لتقرير الخطة التي ستعتمد لتسيير الحرب في مقلب الأيام، وفي ذلك اليوم لم يكن الموقف حسنا في أرْنهم، وإلى الجنوب قطع الألمان الممر واستقروا على الطريق الرئيسى بين فيخل وغرايف جنوبى نيميج، وقررت أننى لا أستطيع ترك جبهة القتال وكلفت «دى غوينغواند» بتمثيلى فى هذا المؤتمر.

وأثناء الليل، أرسل لى «دى غوينغواند» من فرساي رسالة تقول:

إن «إيزنهاور» دافع عن خطتى مائة بالمائة، وأن الإندفاع الشمالية يجب أن تشكل المجهود الرئيسى وتحظى بالمساندة الكاملة، وقد تلقيت هذه الرسالة قبل ظهر ٢٣ سبتمبر، وفي ذلك التاريخ كان الموقف سيئا في أرْنهم، فقد قطع الممر المؤدى إلى نيميج مرة أخرى، وكان يبدو أننا سنضطر لسحب الباقين على قيد الحياة من الفرقة الأولى البريطانية المحملة جوا إلى الضفة الأخرى من الراين الأدنى، وقد جرى إنكفاء هذه الفرقة بالفعل فى ٢٥ سبتمبر.

وكانت أوضاع التموين على طول الجبهة تسوء بالتدريج، فالجيش الأول الأمريكى على ميمتى كان - فى حوالى ٦ أكتوبر - عاجزا عن تطوير عملياته وفقا لأنه لم يكن يملك الذخائر الضرورية.

وفى ٧ أكتوبر، بعثت إلى «إيزنهاور» من إيندهوفن، بتقرير كامل عن وضع الجناح الشمالى وأشرت فى هذا التقرير إلى أننى لن أتمكن من مواصلة العمليات المقررة لبلوغ خط الراين إلا إذا أمكن زيادة التموين المخصص لهذه العمليات، وأضفت: إننى رجوت «برادلى» أن يأتى ليراتنى فى اليوم التالى ٨ أكتوبر لبحث الموقف معى.

وقد علم «إيزنهاور» أن «برادلى» سيكون معى فى إيندهوفن فى ٨ أكتوبر فأرسل إلينا رسالة ضمنها وجهة نظره فى المشكلة التى وجدنا أنفسنا جميعا أمامها وتبدأ هذه الرسالة بالعبارات الآتية:

إن الصعوبات الأساسية الناشئة على الجناح الشمالى تبدو متباعدة من نقص فى القوة إزاء تعزيزات العدو، ولذلك فالخطة المتعلقة بالهجوم المنسق باتجاه الراين يجب أن تؤجل إلى أن يمكن الإتيان بفرق أمريكية من الشواطئ، ومع ذلك فإن المهمة الأولى لمجموعتى الجيوش لا تزال بلوغ خط الراين فى شمالى بون بأسرع ما يمكن للطاقة البشرية.

ولم نستطع - أنا «ويسرادللى» - أن نوافق على هذا التصريح، وكان رأينا أن علينا أن نخفف عملياتنا باتجاه الراين إلى أن يتحسن وضع تمويناتنا، وكتبت لايزنهاور تقريراً وفقاً لذلك، قلت له فيه: إننى أوقفت عمليات الجيش الثانى باتجاه الروهر وسأركز جهودنا الآن على ضواحي أنفرس بحيث يمكن تشغيل هذا المرفأ.

وفى اليوم التالى ٩ أكتوبر، تلقيت من «لايزنهاور» رسالة تقول:

«ما لم يرجع العمل إلى مرفأ أنفرس فى منتصف نوفمبر، فإن جميع العمليات ستجمد ويتحتم على أن أشير أنتى أعتبر أنفرس ذات أهمية رئيسية بين جميع عملياتنا على مجمل الجبهة من سويسرا حتى المانش».

وفى الشهر نفسه، بعد قليل، وبعد أن أنجزت خططنا للمستقبل مع «دمبسى»، انتقلت إلى مقرى العام الرئيسى فى بروكسل، وكنت فيه أفضل تمركزاً لممارسة قيادة شخصية على العمليات المعدة لتطهير ضواحي أنفرس، وهى مهمة الجيش الأول الكندى بقيادة «سايموندس».

وفى ٣ نوفمبر أنبأت «لايزنهاور» بما يلى:

يتوجب على أن أبلغكم أن ضواحي أنفرس ومصب نهر أسكو قد ظهرت تماماً من فلول العدو، وتستولى قواتنا الآن فى فالشرن على الساحل من دومبورج إلى وستكابل، وفى الجزء الغربى من فلاشنج التى هى فى أيدينا، استولينا على جميع

مواقع العدو الساحلية وعلى عدد من المدافع، وقد باشر كانسو الألغام عملهم فى المصب، وبلغ بعضهم ترنيوزن، ونحن نحتل كل ييفلاند الشمالية وييفلاند الجنوبية، ولا يزال هناك بعض الأعداء فى شمالي جزيرة فالشرن وشماليها الشرقى، وهم على وشك الإبادة، وقد توقفت الآن كل مقاومة على أرض القارة جنوبى فالشرن، وفى منطقة كنوك، وأخذنا ١٤ ألف أسير منذ اجتيازنا قناة نيوبولد، وأن الاستعمال الكامل بكل حرية لمرافأ أنفرس ليس الآن إلا قضية بحرية.

وجاءنى الجواب الآتى:

إن للاستيلاء على ضواحي أنفرس أهمية كبرى بالنسبة لنا، وأنا شاكر لكم أصدق الشكر، ولك شخصيا، لما أبدىتموه من نشاط فى عملكم، وأرجو أن تتفضل بنقل شكرى وتهانى لقائد القوات الكندية العام.

وفى ٦ نوفمبر، غادرت بروكسل لأقضى بضعة أيام فى إنجلترا، ولدى وصولى إلى إنجلترا، توجهت فورا لمقابلة رئيس الوزراء لأحدثه فى قضايانا، ولأقول له أيضا إن عليه الآن أن يتوقع استمرار الحرب فى الشتاء كله وحتى فى عام ١٩٤٥.

وفى ١٠ نوفمبر، عدت إلى مقرى العام فى بروكسل.

* * * *

الفصل السادس عشر

معركة أرnhem

١٧ - ٢٥ سبتمبر ١٩٤٤

فى تحركنا إلى الأمام على الجناح الشمالى بغية احتلال الروهر وفقا لأوامر «إيزنهاور» اعترضتنا عقبتان كبيرتان هما نهر الموز ونهر الراين، وأيا كانت الطريق المختارة فقد واجهنا عقبات أخرى على شكل أقنية واسعة.

وكانت خطتى الإندفاع بقوة باتجاه الراين بعد أن نجتاز كل هذه العقبات، وإنشاء رأس جسر فيما وراء الراين قبل أن يتمكن العدو من إعادة تنظيم نفسه تنظيما كافيا لإيقافنا.

ولقد أعطيت الجحفل الأول الحليف المحمل جوا بقيادة اللوتنان جنرال «براوننج» وكان هذا الجحفل مؤلفا من الفرقة الأولى البريطانية للمحملة جوا، ومن الفرقة ٨٢ الأمريكية المحملة جوا، ومن الفرقة ١٠١ الأمريكية المحملة جوا، ومن لواء المظليين البولونى، وقد وضعت هذا الجحفل تحت قيادة الجيش الثانى بقيادة «دمبسى».

وقد سبق أن أوضحت أن هذه الإندفاعة يجب أن تجرى باتجاه أرnhem والأسباب الموجبة لذلك، وكان أهم ما فى الخطة تشكيل سجادة من القوات المحملة تتشر من طرف لآخر على العقبات المائية الرئيسية الخمس التى توجد على الخط العام للطريق المارة بايندهوفن نحو أودن وجرايف ونيميج ثم نحو أرnhem.

أما الجحفل الثلاثون، بقيادة «هوروكس»، فعليه أن يعمل على طول خط السجادة بالاتصال مع الفرقة الأولى البريطانية المحملة جوا فى منطقة أرnhem، وأن ينشئ فى شمالى هذه المدينة رأس جسر فيما وراء الراين الشمالى، وعلى الجيش

الثانى بعدئذ أن يستقر فى المنطقة الواقعة بين أرnhem وبحر زفيدر مواجهها الشرق لكى يكون قادرا على القيام بعمليات ضد الجانب الشمالى للروهر.

وبينما كان الجحفل الثلاثون يتقدم على طول خط السجادة المحملة جوا، كان على جحفلين آخرين توسيع خط التقدم، وهما الجحفل الثامن بقيادة «أوكونر» فى الشرق، والجحفل الثانى عشر بقيادة «ريتشى» فى الغرب.

وقد أطلق على مجمل هذه العملية اسم عملية ماركت جاردن، وبدأنا فى شن هذه العملية نهائيا فى ١٧ سبتمبر ١٩٤٤، ولم ننشئ بالنتيجة رأس الجسر هذا فى شمالى أرnhem، ونتج عن هذا أننا لم نتمكن من تشكيل الجيش الثانى شمالى الراين الأعلى فى أرnhem، ووضعته بصورة يمكنه معها توسيع عملياته ضد الطرف الشمالى للروهر، ولكن الاستيلاء على مواقع اجتياز الموز فى جرايف، ومواقع اجتياز الراين الأسفل فى نيميج، كان كما ظهر فيما بعد، ذا قيمة كبرى.

ولقد حررنا قسما كبيرا من هولندا، وأصبحنا نملك نقطة الانطلاق التى نحتاج إليها لكسب المعارك اللاحقة فى رينانى، ومن غير هذه الانتصارات لم نكن قادرين على اجتياز الراين بقوة فى مارس ١٩٤٥، ولكننا لم ننشئ رأس الجسر الذى كان انشاؤه هدفنا، ويجب أن نعرف بذلك بكل صراحة.

لقد حالت أسباب كثيرة دون نجاحنا الكامل فى أرnhem، وهاك، فى رأى، أهم هذه الأسباب:

١ - لم ينظر إلى العملية فى المقر العام الأعلى على إنها رأس الحربة لتحرك حليف كبير على الجناح الشمالى يستهدف عزل الروهر ثم احتلاله أخيرا، وهى المنطقة التى لا يستطيع الألمان فى الغرب السماح لأنفسهم بفقدانها، وليس فى نفسى أى شك فى أن «إيزنهاور» قد أراد دائما إعطاء الأفضلية للإندفاع باتجاه الشمال وكبح الإندفاع باتجاه الجنوب، وقد أعطى الأمر

بذلك، وكان يعتقد أن هذا الأمر قد اقترن بتيجة، لكن لم يكن الحال كذلك.

٢ - لقد ألقى بالقوات المحملة جوا في أرnhem بعيدا عن الجسر أكثر مما ينبغي، وهو الهدف الأساسي، فقضت عدة ساعات في بلوغه، وأنا أنهم نفى بهذا الخطأ، لقد كان على أن أعطى الأمر للجيش الثاني والجحفل الأول المحمل جوا بأن يجعلوا لواء كاملا على الأقل من المظليين يلقي من الجو قريبا جدا من الجسر لكي يمكن الاستيلاء عليه في بضع دقائق، وينظم الدفاع عنه دفاعا متينا دون إضاعة الوقت، ولكنني لم أفعل ذلك.

٣ - لم يكن الطقس ملائما لنا بعد اليوم الأول، فلم نستطع تنفيذ شيء كثير من برنامج القوات المحملة جوا، وكان يمكن أن يكون للعملية حظ من النجاح لو خصص لها موارد إضافية ولو أصبحت عملية حليفه بدلا من أن تبقى عملية بريطانية.

٤ - لقد أعاد جحفل العاصفة الثاني المدرع تنظيمه في منطقة أرnhem، وهي المنطقة التي سبق إليها بعد أن ضرب بقوة في نورماندي، وكنا نعلم أنه موجود هناك، ولكننا إستهنا بقيمته القتالية التي ظهر أنها أكبر مما ظننا، ولقد وضع هذا الجحفل المدرع سريعا في العمل ضد الفرقة الأولى المحملة جوا.

ولقد شعرت بخيبة مريرة بعد معركة أرnhem كذلك التي شعرت بها بعد معركة نورماندي، فلقد كانت تلك محاولتي الثانية لفتح الروهر بسرعة، وكان من عادة «بيل وليامز» أن يقول لي: إن الألمان لن يستطيعوا مواصلة الحرب أكثر من ثلاثة شهور بعد أن يفقدوا الروهر، ولكننا لم نكن قد استولينا عليه حتى الآن. وهنا

يتوجب على الإقرار بأننى أخطأت، لقد استهنت بالصعوبات الناشئة عن تطهير ضواحي أنقرس، الذى سيتيح لنا استخدام هذا المرفأ بحرية، فقد كنت أحسب أن الجيش الكندى يستطيع أن يتم هذا التطهير بينما نحن نتقدم نحو الروهر، وكان هذا خطأ.

* * * *

الفصل السابع عشر قبل معركة الأردن

إن معركة الأردن بدأت فى ١٦ ديسمبر ١٩٤٤ واستمرت حتى ١٦ يناير ١٩٤٥، وقد ولدت إحساسات بلغت من المראה بين البريطانيين والأمريكيين حدا لا يمكننى معه إغفال الإشارة إليها هنا، ولكن أعتقد أن علينا أولا أن نصف الأحداث التى أوجدت هذه الإحساسات، إذ أن مثل هذا الدرس يدل على أنه كان من الممكن تجنب هذه المعركة بسهولة فائقة.

إن حرب الإنهاك فى أشهر الشتاء، هذه الحرب التى فرضتها علينا استراتيجيتنا المغلوطة بعد إنتصارنا الكبير فى نورماندى، أصبحت باهظة بالخسائر فى الأرواح البشرية، وكانت الجيوش الأمريكية تعاني من نقص كبير فى الذخائر، وفى جميع الفرق كان عدد الجنود أقل من العدد الطبيعى المعتاد، وكانت أوضاع الإمدادات سيئة، وأخذت الفرق الأمريكية فى خط القتال تعاني جديا من تجليد الأقدام، وقد أثار قلقى فى مجموعة جيوشى إزدياد الخسائر.

ولقد جاء «إيزنهاور» فى ٢٨ نوفمبر يقضى السهرة معى فى مقرى العام التكتيكى فى زونهرفن، وجرت بيننا فى هذه السهرة وفى صباح اليوم التالى محادثات طويلة ناقشنا خلالها الموقف الراهن الذى لم يكن حسنا، وهذا أقل ما يمكن أن يقال فيه.

وفى حديثى مع «إيزنهاور»، قلت له: إن مجموعة جيوش «برادلى» الثانية عشرة لا تبدو لى متوازنة توازنا حسنا من الوجهة التكتيكية، واقترحت من أجل توفير هذا التوازن التكتيكى أن تنقل بعض فرق «باتون» نحو الشمال وأن يوقف هجومه فى الجنوب وقد نقل هذا الاقتراح إلى «برادلى» الذى بعث إلى فى ٣ ديسمبر برسالة تقول إنه لا يستطيع توقيف الهجوم شارحا أسباب ذلك.

وقبل أن يغادرني في ٢٩ نوفمبر، اقترحت على «إيزنهاور» أن من الأفضل جدا عقد اجتماع بينه وبين «تندر» و «برادلي» و «ويني»، ونستطيع كلنا في هذا الاجتماع شرح وجهات نظرنا، ويستطيع هو إبلاغنا خطته للمرحلة المقبلة، فوافق على الاقتراح وحدد للاجتماع موعداً في ٧ ديسمبر في مايسترخت، حيث التقينا نحن الأربعة في الساعة العاشرة والنصف قبل الظهر.

وهاك خلاصة ما دار في هذا الاجتماع كما سجلتها في يومياتي في مساء اليوم ذاته:

استعرض إيزنهاور ما حدث منذ بداية سبتمبر، ثم تبين أن العمليات الأخيرة أدت إلى نتائج جيدة وأنها تتطور بصورة مرضية، وختم إيزنهاور كلامه قائلاً إن غاية الاجتماع الإفصاح عن آرائنا وإتاحة المجال له كي يفكر فيها، مضيفاً أنه ليس في نيته إعطاء أوامر نهائية قبل أن نفرق، فإذا لزم إصدار أية أوامر فسيصدرها فيما بعد.

فذكرت أن عاملين رئيسيين يجب أن يسيطرا على حل المشكلة لكسب الحرب بسرعة:

١ - إن الهدف الوحيد الجدير حقاً بالمواجهة على الجبهة الغربية هو الروهر، فإذا نحن عزلناه عن سائر ألمانيا فإن مقدرة العدو على مواصلة القتال ستتهار بالتدريج.

٢ - من الضروري إكراه الألمان على خوض قتال متحرك في الربيع أو في بداية الصيف، فلم يبق لديهم إلا قليل من وسائل النقل وقليل من البترول، ودباباتهم لا تستطيع مضاهاة دباباتنا في قتال متحرك، فحالما تغدو الحرب متحركة ستحل نهاية الألمان.

إن هذين العاملين أساسيان، ويستحيل رفضهما، وهما يستبعان:

أ - أن الروهر يجب أن يكون هدفنا الاستراتيجي.

ب - أن جهدنا الرئيسي يجب أن يتركز في الشمال إذ هناك - وهناك فحسب- توجد الأرض المناسبة للقتال المتحرك، أعني شمالي الروهر.

إن جميع خطوط السير الأخرى في داخل ألمانيا لن تعطى النتائج المتبغاة، إذ أن الأرض وعرة وهيئتها تساعد على الحرب الدفاعية.

إن سلوك طرق أخرى غير ذلك الطريق لن يكون من شأنه إلا إطالة أمد الحرب، مما يناسب العدو لأن المعركة ستكون معركة دفاعية ثابتة.

إن علينا أن نكون أقوياء في الشمال إلى حد نستطيع معه الحصول على نتائج حاسمة دون أن يكون هناك إمكان للفشل.

إننا نعمل في الوقت الحاضر وفقا للخطة التي تضمنها توجيه إيزنهاور المؤرخ في ٢٨ أكتوبر، على أن هذه الخطة لم تبلغ مرحلة النضج، إننا نطلب الآن خطة جديدة تشتمل مراحلها المتوالية على أهداف لم تلاحظها الخطة الرئيسية، والخطة الجديدة يجب أن تفي بحاجات استمرار القتال خلال أشهر الشتاء بشكل ينهك قوة العدو، ولا شك أن الوحل ونقص المساندة الجوية سيكونان سببا في نشوء صعوبات، ولكن علينا خلال الشتاء القيام بعمليات تهدف إلى:

أ - بلوغ الأهداف الوسيطة باتجاه الروهر.

ب - تمركزنا في موقع أمامي جيد للقيام بقتال متحرك في الربيع.

وهناك عامل بالغ الأهمية في عملياتنا في الشتاء هو إجبار جيش البانزر الألماني السادس على خوض المعركة ودحره بصورة حاسمة، فإن هذا الجيش هو احتياطي العدو الإستراتيجي الوحيد على الجبهة الغربية، ويشتمل على الفرق الوحيدة التي

لها بعض الحظ في النجاح في القتال المتحرك، فهذه الفرق يجب إذن أن تضرب خلال أشهر الشتاء بصورة تصبح معها خارج المعركة عندما يحل الربيع، وسيقاتل الألمان بضروا ليمنعونا من دخول الروهر ولكي تبقى الحرب ثابتة، وسيحاولون بكل ثمن تفادي تحول القتال إلى قتال متحرك، فلن تكون هناك إذن صعوبة في حملهم على أن يردوا في غربي الراين.

ويتلخص مفهومي للخطّة الجديدة بأن تعمل مجموعتا الجيوش الثانية عشرة والحادية والعشرون معا في شمالي الأردن، على أن يكون الجناح الأيمن لمجموعة الجيوش الثانية عشرة في ضواحي بروم، وستلقى الإندفاع القوية على خط بروم - بون أرضا صالحة للعمليات وتتفادي خطوط الدفاع والحواجز الموجودة.

وتعمل مجموعة الجيوش الثانية عشرة باتجاه الراين على الخططين الرئيسيين، بروم - بون - ، ودورن - كولوني.

أما المسيرة التي تضم على الأقل عشر فرق، فتعمل في الشمال باتجاه إندفاع مجموعة الجيوش الحادية والعشرين القادمة من الجنوب بين الموز والراين، وتزداد قوة مجموعة الجيوش الثانية عشرة حتى تبلغ ما يقرب من ٣٥ فرقة.

أما مجموعة الجيوش الحادية والعشرون فتشن بعد إعادة تجمعها هجوما قويا في منطقة نيميج، باتجاه الجنوب بين الموز والراين، مستهدفة الاستيلاء على كل الأرض الواقعة بين الموز والراين، حتى خط أورسوى - فنلو، في الجنوب.

وسيكون هذا هو العمل الهجومي الوحيد على جبهة مجموعة الجيوش الحادية والعشرين، وسيقدم ببطء خلال أشهر الشتاء، وموعده الأقصى أول يناير.

وتعزز مجموعة الجيوش الحادية والعشرون بفرق أمريكية، وفرق محملة حسب حاجاتها، وتجتاز الراين في مواضع مختارة بين فيسل ونيميج، ثم تقوم بعمليات

متحركة فى شمالى قناة ليب وفى شمالى النهر، مستهدفة الالتفاف حول الروهر من الشمال ودخول ألمانيا، وهذا يمكن أن يحدث فى مارس ١٩٤٥، وتجتاز مجموعة الجيوش الثانية عشرة الراين فى منطقة بون، وتقوم بعمليات التفاف حول الروهر من الجنوب، وتواصل مجموعة الجيوش السادسة، وقاعدتها مرسيليا، العمل فى السار بمقدار ما تسمح لها به قوتها ومواردها، وألاحظ أن من الصعب فى هذه المرحلة التنبؤ بالضبط كيف ستطور العمليات المرسومة أعلاه؟، وعلى مجموعتي الجيوش فى شمالى الأردن، المجموعة الثانية عشرة والمجموعة الحادية والعشرين أن تبحثا أولا عن القتال فى غربى الراين وتجذبنا كل قوات الاحتياطى الاستراتيجية لدى الألمان وتدمرها، ثم تتقدما نحو الراين، ولا يمكن تقرير ما تبقى بتفاصيله فى الوقت الحاضر.

ثم إننى أدعو إلى أن يتولى قائد أعلى واحد الإشراف على العمليات وإدارة جميع القوات فى شمالى الأردن، وهذا القائد الأعلى يجب أن يكون إما «برادلى» أو أنا، وأنا مستعد للخدمة تحت إمرة «برادلى».

وعرض «إيزنهاور» فكرته العامة عن الحملة وهى كالتالى:

أ - فى الشمال، تكون مجموعة الجيوش الحادية والعشرون والجيوش التاسع الأمريكى المؤلف من تسع فرق، تحت قيادة واحدة، ويجب أن يبلغ خط حدود مجموعة الجيوش الحادية والعشرين نهر الراين فى ضواحي أورسوى على الزاوية الشمالية الغربية للروهر، وستكون مهمة مجموعة الجيوش هذه اجتياز الراين والالتفاف حول الروهر من الشمال.

ب - يخصص الجناح الأيسر لمجموعة الجيوش الثانية عشرة لصد العدو، فهو لن يجتاز الراين بقوة ولكنه يتظاهر بذلك ويقوم بتهديدات فى منطقة كولونى

- بون؟ وأبعد إلى الجنوب، وبعبارة أخرى: لن تكون هناك إندفاع قوية في هذا المكان.

ج - على الجانب الجنوبي يقوم الجناح الأيمن لمجموعة الجيوش الثانية عشرة بضغط قوى على خط فرانكفورت - كاسل.

د - إن الغرض العام لهذه الخطة يتألف من هجومين، أحدهما يلتف حول الروهر من الشمال، والآخر يلتف حوله من الجنوب، وبين هذين الهجومين تجرى تهديدات وتظاهر بالهجوم، وتتشرب مجموعة الجيوش الثانية عشرة من أورسوى ممتطية الأردن، حتى وورمز.

وسألني «إيزنهاور» عن انطباعي إزاء خطته، فذكرت له أنني لا أستطيع الموافقة على خطته، فإذا نحن بعثرنا مواردنا لم يعد بالإمكان القيام بأية إندفاع قوية للحصول على نتائج حاسمة، وهذا ما فعلناه سابقا وندفع الآن ثمن أخطائنا، وكنت أمل ألا نعيد الكرة، وأضف أننا نشكو حاليا من سوء تنظيم القيادة وعجزه، وخطة «إيزنهاور» لا تحسن هذا التنظيم، وإنما هي في الحقيقة تزيد سوءا، وختمت كلمتي بمرافعة قوية لصالح القيام بحشد في الشمال لجميع القوات المتوفرة، وشن هجوم من هذه المنطقة يكون من القوة بحيث يتأكد النجاح، ورافعت أيضا من أجل تنظيم القيادة تنظيمًا منطقيًا، فأعلنت أنني أرى أننا، دون هذين الإصلاحين، لن ننجح، وسيحل الربيع قبل أن نكون مستعدين للمهمة التي تنتظرنا.

ولم يوافق «إيزنهاور» على وجهة نظري، بل كان يرى أن سبيل كسب هذه الحرب هو القيام بزحفين قوين:

أ - أحدهما يلتف حول شمال الروهر.

ب - والآخر يلتف حول خط فرانكفورت - كاسل.

على أن تجرى بين هذين الزحفين تهديدات وتظاهر بالهجوم.

لم يسفر اجتماع ٧ ديسمبر في مايسترخت عن شيء، لقد أملت في أن نصل إلى اتفاق يتقل بموجه ثقل قواتنا الأكبر نحو الشمال، وكنت أرغب في أن يتجه نشاط مجموعتي الجيوش الثانية عشرة والحادية والعشرين نحو الروهر، وأن تكلف هاتان المجموعتان بأن تفرضوا على العدو قتالا متحركا في بداية الربيع في سهول ألمانيا الشمالية، ولكن لم يتخذ أى قرار بهذا المعنى، وفي هذه الأثناء تشكلت مجموعة جيوش «برادلى» الثانية عشرة في احتشادين رئيسيين، وتشكل كل من هذين الاحتشادين أيضا من أجل الهجوم، وكان بينهما مسافة تبلغ نحو مائة ميل يغطيها الجحفل الثامن الأمريكى المؤلف من أربع فرق تحت قيادة «ميدلتون».

* * * *

الفصل الثامن عشر

معركة الأردن

١٦ ديسمبر ١٩٤٤ - ١٦ يناير ١٩٤٥

فى صباح يوم ١٦ ديسمبر ١٩٤٤، وأثناء ممارستى للعبة الجولف مع «واى ريز» أستاذ الجولف الشهير وسائق لقائد القاعدة الجوية فى إيندهوفن، وصلتني رسالة تخبرني أن الألمان شنوا فى صباح اليوم نفسه هجوما عنيفا على جبهة الجيش الأول الأمريكى، وأن الموقف غامض، فعدت بالطائرة إلى مقرى العام التكتيكي فى زونهوفن.

وقد وجهت الضربة بصورة رئيسية إلى جزء من جبهة الجيش الأول الأمريكى، وهو الجزء الذى يربط فيه مرابطة ضعيفة فى الأردن الجحفل الثامن بقيادة «ميدلتون»، وفتحت ثغرة عميقة فى الخطوط الأمريكية.

لقد ساء الموقف بسرعة، وأخيرا شقت مجموعة جيوش «برادلى» الثانية عشرة إلى قسمين وكان مقره العام فى لوكسمبورج، حيث لم يكن يستطيع من هناك الإشراف على النصف الشمالى من مجموعة جيوشه، ولقد كنت أعرف الموقف بفضل فريق ضباط الاتصال التابع لى، فاتخذت ترتيبات لتأمين سلامة الجناح الأيمن والمؤخرة اليمنى لمجموعة الجيوش الحادية والعشرين، مهما حدث.

وفى الساعة ١٠.٣٠ قبل ظهر ٢٠ ديسمبر، اتصل بى إيزنهاور هاتفيا من مقره العام وأعطانى أمرا بأن أتلسم على الفور قيادة جميع القوات الأمريكية على الجانب الشمالى من النتوء، وقد وضع هذا الأمر جيشين أمريكيين تحت قيادتى، وهما الجيش التاسع «سمبسون» الموجود إلى يمينى مباشرة والجيش الأول «هودجز» الموجود إلى يمين الجيش التاسع، وكان الجيش الأول يقاتل قتالا يائسا.

وبعد أن أعطيت أوامري للمبسى ولكرير اللذين أتيا لحضور اجتماع في الساعة ١١.٠٠، توجهت ظهرا إلى المقر العام للجيش الأول، وكنت أعطيت سمبسون تعليمات بأن يلاقيني هناك، وعلمت أن الجانب الشمالي من التواء قد فقد نظامه، وكان الجيش التاسع يضم جحلفين وثلاث فرق، والجيش الأول ثلاثة جحافل وخمس عشرة فرقة، وكان يجب أولا النظر إلى المعركة على الجانب الشمالي ككل، والتأكد من أن المناطق الأساسية محمية حماية قوية، وإيجاد قوات احتياطية لشن هجوم معاكس، وانصرفت إلى واجب اتخاذ التدابير المناسبة، فوضعت تحت قيادة الجيش التاسع قوات بريطانية لتقاتل إلى جانب القوات الأمريكية، وجعلت هذه الأخيرة تأخذ جزءا من جبهة الجيش الأول، ووضعت قوات بريطانية في الاحتياط خلف الجيشين الأول والتاسع إلى أن يمكن إيجاد قوات أمريكية احتياطية.

وهكذا استطعنا أن نحصى المواقع يبطء لكن حماية مؤكدة، واستقام الموقف بالنتيجة، وقام برادلى بعمل مشابه في الجانب الجنوبي بواسطة الجيش الثالث.

وفي ١٦ يناير اعتبرت المعركة متهىة وأعطاني إيزنهاور الأمر بأن أعيد- في ١٧ يناير- الجيش الأولى إلى برادلى على أن يبقى الجيش التاسع تحت إمرتي.

إن الحلفاء أصيبوا حقا في معركة الأردن بضربة قاسية، فقد فقد الأمريكيون نحو ٨٠ ألف رجل، ولم يكن هذا ليحدث أبدا لو كانت لنا استراتيجية مقبولة بعد إنتصارنا العظيم في نورماندى، أو لو أننا حققنا فقط توازنا تكتيكيا في تشكيلات القوات البرية عندما تطورت حملة الشتاء.

أضف إلى ذلك أن هذه المعركة قد أضاعت علينا ستة أسابيع، مع كل ما استتبعه هذا التأخر من نتائج سياسية في وقت كانت تقترب فيه نهاية الحرب.



الفصل التاسع عشر إنهاء الحرب في أوروبا

ابتداءً من أول سبتمبر ١٩٤٤ لم أكن راضياً عن تنظيم القيادة والإشراف على العمليات، لقد كان انتقادي الرئيسي منصبا على كون قيادة العمليات المباشرة للجيش التي تخوض القتال لا تشمل كما كانت في السابق على اتصال حميم بقواد الجحافل والفرق والوحدات، فالقائد الأعلى عليه أثناء المعركة أن يمسك جيدا بزمام الموقف وأن يكون متقدما إلى الأمام، ولقد حققت هذا المطلب في نورماندي، أما الآن فما من أحد يهتم به، فإذا بنا نلاقى متاعب.

وبعد أن قرأ إيزنهاور مذكرتي، أجابني مباشرة برسالة مؤرخة في ١٣ أكتوبر يقول فيها إنه لا يعتقد أن رجلا واحدا يستطيع إدارة عمليات المعركة البرية على جبهة تمتد من سويسرا إلى بحر الشمال، فإن طول هذه الجبهة يستلزم قائدا يوزع على مختلف المجموعات العاملة في مختلف القطاعات المهمات المناسبة، وهذا القائد يجب أن يكون القائد الأعلى نفسه، وتشير الرسالة أيضا إلى مسألة القومية باعتبارها متعارضة مع الاعتبارات العسكرية المحضة.

وكنا نجتاز فترة عصيبة، وكان على إيزنهاور أن يواجه الموقف الذي تنبأت له به لدى التقائنا في ٢٣ أغسطس في مقرى العام التكتيكي، فإن استراتيجيته وعدم وجود خطة، قادانا إلى الوضع المخيب للآمال في أكتوبر، وكان إيزنهاور حزينا بشكل واضح، ولذلك قررت التخلي عن الأخذ والرد في موضوع القيادة الوحيدة.

لقد طويت الصفحة الآن، فلم يعد أمانا إلا محاولة الوصول إلى خطة صائبة لحملة الشتاء التي نتظرنا، وتنسيق جهود مجمل القوات الحليفة تنسيقا ملائما، وأثناء

معركة الأردن أجبر سير الأحداث القاسى إيزنهاور على أن يفعل ما كنت أقترحه دائما، فسلمنى قيادة عمليات الجناح الأيسر لقوات الحلفاء، واضعاً تحت قيادتى جيشين أمريكيين.

وفى ٢٨ ديسمبر، جاء إيزنهاور يزور الجناح الشمالى، وجرى لى معه حديث طويل فى قطاره الخاص فى هاسلت، وكان زمام معركة الأردن قد أصبح الآن فى أيدينا وانصب حديثنا بشكل خاص على ما يجب فعله عندما تنتهى هذه المعركة، وكررت له أن الروهر هو فى رأى الهدف المباشر، فكل القوة المتوفرة يجب أن تحشد وتركز لبلوغه، والإشراف على عمليات القوات المشتركة فى هذه العملية يجب أن يمارسه قائد واحد.

وفى هذه الأثناء كان إيزنهاور قد أعد مسودة خطة من ابتداعه، وفى ٣١ ديسمبر، كتب إلى بخط يده الرسالة الآتية:

عزيزى مونتى:

تجد طيه الخطوط الكبرى لخطتى المشتملة على العمليات بمقدار ما يمكن التنبؤ بها، والأمر يدور فى الوقت المباشر حول توجيه سلسلة من الضربات للعدو فى التواء مدمرين أكبر قدر مستطاع من قواته، وبعد ذلك تقضى الخطة بحشد كل ما هو ضرورى لتدمير العدو فى شمال بروم - بون ، ملقية على عاتق كل منكما، أنت وبرادلى، المهمة المنوطة به، وتقضى الخطة أيضا بإنشاء قوة كبيرة فى شمال الروهر عندما يتم اجتياز الراين، أما فيما يتعلق بالقيادة فليست أوافقك على الفكرة القائلة بأن يخوض قائد مجموعة جيوش معركته الخاصة وهو يعطى فى الوقت نفسه أوامر لقائد مجموعة جيوش أخرى، وخطتى تضع جيشا أمريكيا كاملا تحت قيادة مجموعة الجيوش الحادية والعشرين، وهو أمر اعتبره ضروريا من الوجهة العسكرية، ويعكس بكل تأكيد الثقة التى لى بك، ولو كان الأمر على خلاف ذلك

لما أمكنتى اتخاذ هذا القرار، تفضل بقراءة هذه الوثيقة بعناية، ولاحظ بأى وضوح قررت بعد إزالة التواء، تعزيز مجموعة الجيوش الحادية والعشرين وتكليفها بمهمة خطيرة تحت قيادتك، أضف إلى ذلك أن برادلى سيكون على مقربة من مقرك العام.

أننى أعرف ولاءك كجندى والاندفاع الذى تتصرف به إلى المهمات الموكولة إليك.

صديقك الدائم

آيك

وانصرفت إلى درس مشروع الخطة هذا، فإذا به يعطينى كل ما أرغب فيه إلا فى شأن الإشراف على العمليات، لأن هذا الموضوع استبعد على أثر برقية الجنرال مارشال وهذه الخطة تضع فى الشمال كل ثقل العمليات وتلحق الجيش التاسع الأمريكى بمجموعة الجيوش الحادية والعشرين، وتخولنى سلطة التقرير فى حالة الخلاف مع برادلى على تخطيط الحد بين مجموعتى الجيوش الثانية عشرة والحادية والعشرين، والواقع أن هذه الخطة تعطينى على وجه التقريب كل ما كنت أطلب به منذ شهر أغسطس، ولأن يتم الأمر متأخراً خير من أن لا يتم أبداً، ولم أكن طبعاً أستطيع أن أطلب أكثر من ذلك. ولقد بدأنا عملية «الحقيقة» فى غابة رايبسفولد فى شرقى نيميج فى فبراير، زاحفين باتجاه الجنوب بجناحنا الأيسر نحو الراين، وهجم الجيش التاسع الأمريكى فى الشمال فى ٢٣ فبراير، وزحف جناحه الأيمن باتجاه دوسلدورف، بالاتصال مع هجوم الجيش الكندى.

وفى ١٠ مارس انتشرت قوات الجيش التاسع الأمريكى ومجموعة الجيوش الحادية والعشرين على ضفة الراين الغربية، من نويس إلى نيميج، بعد أن دمرت جميع الجسور، وفى هذه الأثناء استولى الجيش الأول الأمريكى فى ٧ مارس فى

ريماجن على جسر سكة الحديد سليما، وسرعان ما أنشأ رأس الجسر على الضفة الشرقية، وقد كانت أهمية رأس الجسر هذا كبيرة جدا بالنسبة لعملياتنا اللاحقة، فهو لم يجمد فقط في هذه المنطقة عددا كبيرا من فرق العدو الباقية، وإنما كان له أثره على كل الحملة إذا أمكننا استغلاله كما نشاء، وفي الأسبوع الثالث من مارس كانت الجيوش الحليفة قد أقتربت من الراين على طول مجراه، من سويسرا حتى البحر.

وفي شهر مارس وقبل عبور الراين، درست وضعنا الإداري، فوجدته حسنا، فقد كانت لدينا كميات احتياطية ضخمة من البترول والذخائر والمتجات الغذائية، وحالة القوات الصحية ممتازة، وبلغ مجموع خسائرنا منذ يوم الغزو في ٦ يونيو ١٩٤٤ حتى ٢٢ مارس ١٩٤٥ الأرقام الآتية:

قتلى: ٣٥٨٢٥ جرحى: ١١٤٥٦٣ مفقودون: ١٧٩٩٠

وأخذت مجموعة الجيوش الحادية والعشرون ٢٥٠ ألف أسير تقريبا، وفي كل يوم كان نحو ٤ آلاف جندي وضابط يذهبون في إجازة إلى إنجلترا، وقد خططنا لرفع هذا العدد حتى ٦ آلاف كل يوم، إبتداء من أول أبريل.

وما كدنا نجتاز الراين حتى أخذت أدرس مع إيزنهاور خطط العمليات المقبلة، فعقدنا اجتماعات عدة، ولقد كنت أعطى برلين الأفضلية على سائر أهدافنا، فهي مركز سياسى، وكنت أشعر أننا إذا استطعنا أن نسبق إليها الروس فستكون الأمور أيسر علينا بكثير في السنوات التى تعقب الحرب، ولكنه لم يوافق على رأى هذا.

لقد كنت مقتنعا - بعد انتصار نورماندى - بأن انهزام القوات الألمانية المسلحة النهائية بات وشيكاً، فالنقطة الهامة كانت إذن أن نتصرف بشكل نحقق معه فى أوروبا - حين يأتى هذا اليوم- توازنا سياسيا يساعدنا نحو الدول الغربية على ربح

السلام، وكان هذا يعنى أن علينا أن نستولى قبل الروس على عدد من المراكز السياسية الأوروبية ، لا سيما فيينا وبراغ وبرلين، ولو كان لزعماء الغرب السياسيين الحس بالوقائع ، ولو أعطيت التعليمات المناسبة للقواد الأعلى، لتمكنا من الاستيلاء على العواصم الثلاث قبل الروس، لكن ماذا حدث؟

لقد تناقست إمكانية إستيلائنا على فيينا عندما تقرررت عملية التتبن، وهى عملية النزول فى جنوبى فرنسا، فقد أخذت القوات اللازمة لهذا النزول من قوات الفيلد مارشال الكسندر فى إيطاليا، مما عرقل عملياته، ويمكننا أن نشير إلى أن ستالين وافق على عملية التتبن بحماسة، وهذا طبعى إذ أن هذه العملية تضمن له أن تصل قواته إلى فيينا قبل قواتنا.

أما فيما يتعلق ببراغ، فقد أوقف الجيش الثالث على الحدود الغربية لتشيكوسلوفاكيا حتى آخر أبريل لأسباب ما تزال مجهولة عندى.

ولقد فقدنا برلين منذ أن أهملنا فى أغسطس ١٩٤٤ بعد انتصار نورماندى وضع خطة مقبولة للعمليات ، فالأمريكيون لم يكونوا يستطيعوا أن يفهموا أن لربح الحرب استراتيجية قيمة ضئيلة إذا نحن خسرناها على الصعيد السياسى، وبسبب من نظراتهم الغربية واجهنا كل تلك الصعوبات منذ يوم النصر ولا تزال نواجهها حتى الآن، إن الحرب أداة سياسية، فمنذ اللحظة التى يتأكد فيها أن الحرب ستربح يجب أن تسيطر على مجراها الاعتبار السياسية.

ولم يبق هناك الكثير مما يمكن قوله ولم يقله سوى، أما وقد أصبح الراين وراءنا، فقد تقدمنا إلى الأمام باتجاه البلطيق، وكان غرضى أن نصل إليه فى الوقت المناسب لمنع الروس من الدخول إلى الدانمارك والسيطرة على مدخل البلطيق، ولكى نزيد من سرعة تقدمنا، كانت الفرق تعمل بعمق على خطوط إندفاع ضيقة، وكادت مدرعاتنا تطوق مناطق مقاومة العدو ثم تهاجمها من الجنب قوات أخرى

متقدمة وراء المدرعات، وفي نهاية الأمر، تفوقنا على الروس، فقد بلغنا البلطيق في فيسمار وفي لوبك في ٢ مايو، مقفلين بذلك شبه الجزيرة الدانماركية قبل ست ساعات تقريبا من وصول الروس.

وأنشأنا جبهة شرقية ممتدة من فيسمار على البلطيق إلى دومتر على نهر الألب، وكانت قوات ألمانية ومدنيون ألمان يتدفقون على جناحنا محاولين الفرار من الروس، وكانت لنا جبهة غربية ممتدة من لوبيك نحو باد أولدسلو وجنوبي الألب، وبين هاتين الجبهتين كان يسود إضطراب وفوضى كبيران، فعلى هذه الطرق كان عدد كبير من الجنود والمدنيين الألمان يتزاحمون بالمناكب قادمين من الشرق، وفي ٢ و ٣ مايو، بلغ عدد الأسرى الذين وقعوا في يد الجيش الثاني نحو نصف مليون. وهكذا وجدت ألمانيا الهتلرية نفسها وجها لوجه أمام كارثة كاملة.

* * * *

الفصل العشرون استسلام ألمانيا

فى ٢٧ أبريل، تلقيت من وزارة الحربية تقريراً يقول: إن «هملر» قدم فى ٢٤ أبريل عرضاً للاستسلام بواسطة الصليب الأحمر السويدى، معلناً أن «هتلر» فى حالة يائسة، وأن له هو كل الصفة للعمل، فلم أول هذا التقرير أى اهتمام، إذ كان الروس القادمون أشد خطراً فى رأى من الألمان المهزومين حتى الموت، ومهمتنا الأساسية المباشرة هى الزحف إلى الأمام بأقصى سرعة، وبلوغ البلطيق وتشكيل جناح قوى فى وجه الشرق، فهذا هو السيل الوحيد لمنع الروس من الدخول إلى شلسفيج - هولشتاين، ثم إلى الدانمارك.

وتتوالى الأحداث الآن بسرعة، وفى ساعة متأخرة من يوم أول مايو التقطنا إذاعة ألمانية تقول: إن هتلر مات فى مركز قيادته فى برلين، وأنه عين الأميرال «دونتز» ليخلفه كفوهرر، ولم تكن هناك أية إشارة إلى «هملر».

وبعد ظهر ٢ مايو، بعث الجنرال «بلومزت»، الذى كان يقود جميع القوات الألمانية البرية بين البلطيق ونهر الفسر، برسالة إلى المقر العام للجيش الثانى يقترح فيها القدوم فى صباح اليوم التالى لعرض استسلام قواته، ولكنه لم يأت، بل أرسل رسالة جديدة تقول إن مفاوضات مستجری على مستوى أعلى.

وفى ٣ مايو، أرسل الفيلد مارشال «كايتل» وفداً إلى مقرى العام بمقاطعة لونبورج بغية الشروع فى مفاوضات للاستسلام بإذن من الأميرال «دونتز»، وكان هذا الوفد الذى وصل فى الساعة ١١,٣٠ يضم:

* الجنرال أميرال «فون فريد بورج» القائد الأعلى للبحرية الألمانية.

• الجنرال «كتزل» رئيس أركان حرب الفيلد مارشال «بوش» الذى كان يقود القوات الألمانية البرية على جناحى الغرب وعلى جناحى الشمال.

• الأميرال «فاجنر».

• الماجور «فرايدل»، ضابط أركان الحرب.

وفيما بعد انضم إلى الوفد الكولونيل «بولك»، وهو ضابط آخر فى أركان الحرب. وقد جىء بهم جميعا إلى مكان مركبتى فاصطفوا فى ظل العلم البريطانى الذى كان يرفرف مختالا فى النسيم.

وجعلتهم ينتظرون بضع دقائق ثم خرجت من مركبتى واتجهت نحوهم، فأدوا التحية جميعا تحت العلم البريطانى، وكانت لحظة مؤثرة، فقد كنت أعلم أن هؤلاء الألمان جاءوا للاستسلام، وأن الحرب قد انتهت.

وعندئذ قرأ لى الأميرال «فريد بورج» رسالة من الفيلد مارشال «كايتل» يقترح فيها أن تستسلم لى الجيوش الألمانية الثلاثة التى تتراجع أمام الروس بين برلين وروستوك، فرفضت العرض قائلا إن هذه الجيوش يجب أن تستسلم للروس، وأضفت أنه إذا جاء جنود ألمان إلى جبهتى رافعين أيديهم، فسيؤخذون بالطبع أسرى بصورة أتوماتيكية، فقال «فريد بورج»: إن الاستسلام للروس الذين هم قوم متوحشون أمر غير معقول، إذ أن الجنود الألمان سيرسلون على الفور إلى روسيا ليشتغلوا هناك.

فلفت نظره إلى أنه كان على الألمان أن يفكروا بهذا كله قبل أن يبدأوا الحرب، وخصوصا قبل أن يهاجموا الروس فى حزيران ١٩٤١.

وقال «فون فريد بورج» بعد ذلك: إنهم كانوا قلقين جدا بشأن سكان ميكلمبورج التى اكتسحها الروس، وأنهم يريدون أن يدرسوا معنى الطريقة التى

يمكن بها إنقاذهم، فأجيبته أن ميكلمبورج ليست من منطقة العمليات التابعة لى، وأن هذه المشكلة يجب بحثها مع الروس، وأضفت أن عليهم أن يفهموا أننى أرفض التفاوض فى أى موضوع يتعلق بالموقف على جبهتى الشرقية بين فيسمر ودونتز، وأن عليهم أن يتوجهوا إلى الروس فى هذا الموضوع، وسألتهم بعدئذ إن كانوا يريدون أن يدرسوا معى كيف يمكن أن يتم استسلام قواتهم على الجبهة الغربية، فأجابوا أنهم لا يرغبون فى ذلك، وإنما هم قلقون بشأن السكان المدنيين فى هذه المنطقة، وأنهم يريدون التفاهم معى على خطة لتراجع قواتهم تراجعا متمهلا كلما تقدمت قواتى إلى الأمام، فرفضت ذلك.

ووجهت حديثى لفون فريد بورج، فقلت له: هل تريد أن تتصرف بحيث تستسلم لى كل القوات الألمانية الموجودة على جناحى الغرب والشمال، بما فيها جميع القوات الموجودة فى هولندا، وفى منطقة فريزلند، وفى شليفج - هولشتاين، وفى الدانمارك؟ إذا كنتم موافقين على ذلك فإننى أعتبر هذا الاستسلام استسلاما تكتيكيا فى ميدان القتال لجميع قوات العدو التى تعترضنى مباشرة، ولل قوات التى تحتل الدانمارك أيضا.

فأجاب أنه لا يستطيع أن يوافق على هذه النقطة، ولكنه راغب فى الوصول إلى ترتيب ما بشأن السكان المدنيين فى هذه المناطق، فلم أقبل البحث فى هذا الموضوع، وقلت عندئذ إنه إذا كان الألمان يرفضون مواجهة استسلام القوات الموجودة فى المناطق التى ذكرتها - دون قيد ولا شرط - فسأعطى الأمر بمواصلة القتال، وسيسفر عن ذلك مقتل عدد أكبر من الجنود الألمان، وعدد أكبر أيضا بلا ريب من المدنيين نتيجة نيران المدفعية والغارات الجوية.

وبعد الغذاء، عقدنا الاجتماع هذه المرة فى الخيمة المخصصة لمؤتمراتى، وعلى الطاولة خريطة الموقف الحربى، وبدأت الحديث بتوجيه إنذار إليهم، فجميع قواتهم

الموجودة فى المناطق التى ذكرتها آنفا يجب أن تستسلم دون شروط، فإذا قبلوا هم هذا، فسأبحث معهم فى كيفية إحتلال هذه المناطق مع المحافظة على سلامة السكان المدنيين، وإذا رفضوا فسيستمر القتال.

وشعروا على الفور بأننى سأتصرف وفقا لما أقول، وقالوا إنهم غير مخولين حق قبول طلباتى، بيد أنهم مستعدون الآن لتوصية الفيلد مارشال «كايتل» بأن تستسلم دون شروط جميع القوات الموجودة، على الجناحين الغربى والشمالى لمجموعة الجيوش الحادية والعشرين، وعاد اثنان منهم إلى قيادة الجيش الألمانى العليا حيث قابلا «كايتل» وحملا إلينا موافقته، وحررت عندئذ وثيقة تلخص المقررات التى توصلنا إليها فى اجتماعنا.

وكانت وثيقة الاستسلام جاهزة، وكانت الترتيبات المتخذة تحت الخيمة بسيطة للغاية، وكان على الطاولة ميكروفون لمحطة الإذاعة البريطانية.

وتحت هذه الخيمة المنصوبة فى مقاطعة لونبورج، قرأت على الملأ بالإنجليزية وبحضور رجال الصحافة وغيرهم من المشاهدين وثيقة الاستسلام، وقلت إنه إذا لم يوقع الوفد الألمانى فورا هذه الوثيقة دون طرح أية أسئلة حول ما سيحدث بعد الاستسلام، فسأعطى الأمر بمواصلة القتال، ثم وقعت الوثيقة باسم الجنرال «إيزنهاور».

* * * *

وثيقة استسلام جميع القوات الألمانية المسلحة

فى هولندا وفى شمالى غربى ألمانيا بما فيها الجزر وفى الدانمارك

- ١ - توافق القيادة العليا الألمانية على أن تستسلم للقائد الأعلى لمجموعة الجيوش الحادية والعشرين جميع القوات الألمانية المسلحة الموجودة فى هولندا، وفى شمالى غربى ألمانيا بما فيها جزر فريز وهليجولند وسائر الجزر الأخرى، وفى شلسفيج - هولشتاين، وفى الدانمارك، ويشمل الاستسلام جميع السفن الحربية الموجودة فى هذه المناطق، وأن هذه القوات تلقى أسلحتها وتستسلم دون قيد ولا شرط.
- ٢ - تتوقف فى الساعة الثامنة - حسب التوقيت البريطانى - من صباح يوم السبت فى ٥ مايو ١٩٤٥ جميع العمليات الحربية فى البر والبحر والجو من جانب القوات المسلحة فى المناطق المذكورة أعلاه.
- ٣ - تنفذ القيادة العليا الألمانية على الفور ودون مناقشة أو تعليق كل الأوامر التى يمكن أن تعطى لها فيما بعد فى أى موضوع كان من جانب الدول الحليفة.
- ٤ - إن عدم تنفيذ الأوامر، أو عدم طاعتها يعتبران خرقاً لشروط هذا الاستسلام وتعاملهما الدول المتحالفة وفقاً لأنظمة الحرب وعاداتها.
- ٥ - إن وثيقة الاستسلام هذه مستقلة، ولا تنقص ولا تحل محل أية وثيقة استسلام عام تفرضه الدول الحليفة أو يفرض باسمها ويشمل ألمانيا والقوات الألمانية المسلحة بمجملها.
- ٦ - إن وثيقة الاستسلام هذه مكتوبة باللغتين الإنجليزية والألمانية، ويعتبر النص الإنجليزى هو الأصل.

٧ - يكون قرار الدول الحليفة نهائيا في حال نشوء شك أو خلاف حول معنى أو تأويل شروط الاستسلام.

ب. ل. مونتجومرى فريد بورج

فيلد مارشال كترل

٤ مايو ١٩٤٥ فاجنر

الساعة ١٨,٣٠ بولك

فرايدل

وكان على أن أقوم بعمل كثير بعد توقيع وثيقة الاستسلام، وقد أعطيت الأمر بأن يتوقف كل عمل هجومي في ٣ مايو عندما جاء الألمان لمقابلتي أول مرة، وكنت أعلم أنها النهاية، وأريد أن أتجنب وقوع خسائر أخرى بين القوات المعهود بها إلى، ففي ذلك الحين أصدرت أمرا بوقف إطلاق النار على أن يكون نافذا في الساعة الثامنة من صباح السبت في ٥ مايو ١٩٤٥.

لقد ربحنا الحرب ضد ألمانيا، والمهم الآن أن نربح السلام، وكثيرا ما أتساءل هل ربحنا السلام؟ والحقيقة أنني لا أعتقد أننا قد ربحناه.

* * * *

الفصل الحادى والعشرون حول خواطر القيادة العليا فى زمن الحرب

لقد كان لى امتياز فريد أن أتولى - خلال حياتى العسكرية - القيادة على كل مستوى، من الرهط حتى مجموعة الجيوش، وأقول إنه امتياز فريد لأننى أشك فى أن يكون جندى آخر عامل الآن فى العالم الحر قد استفاد من مثل هذا الاختيار. ولقد تبدلت الأيام منذ حملات مارلبورو و ولنجتون، ويكاد يمكننا القول إن هذين قد ربحا معاركهما وخدمتهما، فهما بالتأكيد لم تنهكهما آلاف التفاصيل فى العمل الضخم الذى تقوم به أركان الحرب وتستلزمه الجيوش الحديثة، ويمكن اليوم أن نشبه القائد الأعلى فى الميدان برئيس فريق هو بالإضافة إلى ذلك فريق كثير العدد.

وخلال صيف ١٩٤٥ طرح السؤال لمعرفة ما إذا كان يتوجب على الأمة أن تقدم هبات من المال إلى القادة العسكريين البارزين الذين مارسوا القيادة فى ساحات القتال، اعترافا بخدماتهم، ووفقا للسابقات التى أوجدتها الحروب السابقة.

ولكن مشاكل كبرى تنشأ عندما يأخذ الناس - بعد حرب حديثة - فى اختيار الأشخاص الذين كانت مساهمتهم فى المجهود الحربى من الطراز الأول فعلا، فماذا يحل بأولئك الذين نذروا أنفسهم للعمل فى الرادار، والأجهزة المضادة للغواصات، والاستخبارات، والأبحاث الطبية؟ ماذا يحل بجميع أولئك الذين ساعد عملهم الحثيث فى المراتب الدنيا على جعل النصر ممكنا؟

لهذه الاعتبارات كلها أعلنت فى سبتمبر ١٩٤٥ أنه إذا قدمت لى مكافأة مالية فسأرفضها، وقد كانت هناك بالطبع أسباب أخرى، فقد كنا فى ذلك الحين كدولة

على وشك الانهيار مالياً، وكان يصعب علينا أن نسمح بتخصيص نحو مليون جنيه استرليني لهذا الغرض، والمحارب القديم أيا كانت رتبته سيجد الحياة شديدة العسر في سنوات ما بعد الحرب، أفلا يحدث في نفسه رد فعل سيئ إذ يرى قوادا كبارا، مهما بلغ إعجابه بهم وإحترامه لهم، يتقاضون ١٠٠ ألف أو ٥٠ ألف جنيه مثلا بالإضافة إلى رواتبهم التقاعدية، بينما هو المحارب القديم لا يستطيع أن يسد حاجات ذويه إلا بصعوبة.

إن ملايين الناس سيعانون الجوع في مختلف أنحاء العالم، فلم يكن ضميري ليعرف الراحة لو قدم لى مبلغ يمثل هذه الضخامة، لا لشيء إلا لأننى قمت بواجبى بأحسن ما أستطيع كما فعل الكثيرون سواى، ولذلك كانت وجهة نظرى ولا تزال أن أسلوب المكافآت المالية، سوى وجوه التكريم التى يمنحها التاج، هو أسلوب بال. إن القيادة العليا اليوم أكثر تعقيدا مما كانت عليه فى الماضى، فيجب أن يكون للقائد الأعلى هيئة أركان حرب جيدة، ينسق أعمالها رئيس أركان حرب من الدرجة الأولى، وعلى القائد الأعلى أيضا أن يختار بعناية فائقة القواد التابعين له ويعهد إلى الجنرالات بالمهام التى تناسب أمزجتهم، وعليه أن يعرف جنوده وأن يعرفه جنوده.

إن الجيش اليوم هو مجتمع مستقل، يشتمل على كل ما يحتاج إليه أعضاؤه من أجل الحرب، من العيارات النارية حتى بنوك الدم، فالقائد الجيد ليس عليه أن يربح المعارك فحسب، بل عليه أن يربحها بأقل قدر ممكن من الخسائر.

وعندما التحقت عام ١٩٤٢ بالجيش الثامن، لم يكن مسموحا للممرضات بأن يكن فى منطقة القتال، فألغيت هذا الأمر، وكان وجودهن مريحا للجنود المصابين بجروح خطيرة ومهدئا لأعصابهم، إذ أخذوا يدركون منذ ذلك الحين أنهم سيكونون محل العناية المناسبة.

كل هذه الأمور وكثير مثلها يجب أن تبقى حاضرة فى ذهن القائد العصرى، فعلى الصعيد الإدارى يجب أن تقرر النسب الدقيقة بين حاجات العمليات العسكرية والموارد الإدارية، وتتوقف فعالية التنظيم الإدارى على إستباقه للحاجات، فعلى القائد الأعلى فى الميدان أن يطلع دائما أركان حربه على نياته بحيث يمكن إنجاز الإعدادات الإدارية الضرورية فى الوقت المناسب، ولقد منى الكثيرون من القواد بالفشل لأنهم أهملوا التأكد من أن ما يريدون تحقيقه على صعيد العمليات منسجم مع مواردهم الإدارية، وبعضهم فشل أيضا لأنهم بالغوا فى تقدير حاجاتهم.

والعبرة التى يجب استخلاصها من ذلك، هى أنه يتوجب أن يكون هناك توازن بين هاتين الضرورتين، إن محك الضابط الذى يطمح إلى القيادة العليا هو قدرته على إدراك جوهر المشكلة الحربية بسرعة، وعلى التقرير الفورى لما يجب عليه فعله، وإفهام جميع المعنيين بوضوح ما ينوى فعله، وكيف سيمضى فى ذلك، ثم السهر على أن ينفذ الرؤوسون التابعون له أوامره، وعليه قبل كل شىء أن يتخلص من كل الشوائب التى لا علاقة لها بالموضوع، وأن ينصب على الجوهر وعلى التفاصيل الضرورية فقط لتنفيذ خطته، واثقا بهيئة أركان حربه، معتمدا عليها فى إجراء التنسيق اللازم.

وعندما يكون كل شىء قد قيل وعمل، فإن الميزة الكبرى المطلوبة من القائد الأعلى هى ميزة التقرير، فعليه أن يكون قادرا على إعطاء أوامر واضحة والزخم اللازم لتنفيذها، إن التردد لدى الضابط أمر مميت، أما لدى القائد الأعلى فهو جريمة، ولا يستطيع أى قائد أعلى أن يحرز نجاحا إذا هو أهمل العامل البشرى، فإنما تربح المعارك فى قلوب الرجال على الأخص، فإذا خسر القائد الأعلى معركة كسب قلوب رجاله، فلن يحقق إلا القليل.

وفى كل جيش يجب أن يكون تنظيم القيادة والإشراف بسيطاً ودقيقاً، والذي يقود قوات وطنية له دائماً الحق بأن يطلع رئيسه على وجهة نظره حول خطة سير العمليات، بل هو واجبه أن يفعل ذلك، لكن حين يتخذ الرئيس قراره لا يبقى مجال للنقاش.

إن هناك ثلاثة أنواع من كبار القادة:

- ١ - أولئك الذين يملكون الإيمان والإلهام، ولكنهم يفتقرون إلى تلك الطاقة غير المحدودة التي تسمح لهم باتخاذ جميع الاستعدادات لمواجهة الطوارئ التي يمكن التنبؤ بها، وهذا أساس كل نجاح حربي، وهؤلاء يفشلون.
- ٢ - أولئك الذين يملكون هذه الميزة، ويلهمهم معها إيمان وإقتناع هم بفضلها قادرون في اللحظة التي يتطلب فيها الموقف الإقدام على المجازفة بكل شيء من أجل كل شيء، ففي الحرب يجب أن يعرف المرء كيف يجازف ليتصر.

٣ - أولئك الذي يملكون هذه الميزة إلى درجة تقرب من العبقرية.

وللممارسة مهمات قيادة عليا بنجاح، يجب أن تكون للقائد الأعلى المقدرة غير المحدودة، على التطبيق والتحضير الفطن، وأن يتحلى بإيمان صميمي يتجاوز أحيانا حدود ما هو معقول، فبعد القتال فترة طويلة في الغالب لإحراز الأفضلية، تأتي فجأة ساعة الإقدام، فهل يجب عندئذ المقامرة بكل شيء من أجل كل شيء، والسمو من المعلوم لإدراك المجهول؟

إن الجواب على هذا السؤال هو الذي يكشف عن قائد الحرب العظيم أو لا يكشف عنه.

الفصل الثانى والعشرون الرقابة على ألمانيا بعد الحرب

فى ٨ مايو ١٩٤٥، انتهت الحرب رسميا فى أوروبا، إذ وقع ممثلون عن القيادة الألمانية العليا وثيقة الاستسلام العسكرى، لكن يجدر التنبيه بأن هذا الاستسلام كان صنع القيادة العليا لا حكومة الأدميرال دونتر الألمانية، التى اتخذت لنفسها صفة تمثيل الأمة الألمانية بعد إعلان موت «هتلر» فى برلين.

والحق أن الحلفاء رفضوا الاعتراف بهذه الحكومة، واعتقل «دونتر» بعد ذلك فى فلنسبورج، فوجدنا أنفسنا بالتالى أمام وضع يختلف كل الاختلاف عن ذاك الذى كان محل البحث فى اللقاءات بين «تشرشل» و «روزفلت» و «ستالين»، التى نوقش فيها أمر التنظيم الحليف لاحتلال ألمانيا، فقد كان الاتفاق الذى تم بينهم أن تنشأ فى برلين لجنة رقابة تضم أربعة أعضاء: بريطانى، وأمريكى، وروسى، وفرنسى، على أن يكون تحت إمرة كل من هؤلاء الأعضاء مندوبه وهيئة أركان حربه الخاصة المدنية والعسكرية، مع أمانة سر مركزية مشتركة بين الحلفاء، وعلى الأعضاء الأربعة المجتمعين فى برلين أن يتركوا للحكومة ألمانية مركزية طريقة إدارة البلاد، أضف إلى ذلك أن ألمانيا ستقسم إلى مناطق تحتل كل دولة من دول الحلفاء منطقة تشرف داخلها على تنفيذ مقررات لجنة الرقابة التى تنشأ لدى استسلام الحكومة الألمانية دون قيد ولا شرط.

ومع ذلك فعندما حان الوقت، لم يعترف الحلفاء بأية حكومة ألمانية يمكنها الاستسلام، وبالتالى لم تتمكن لجنة الرقابة من مباشرة أعمالها أوتوماتيكيا، ولم يكن لدى الألمان أى جهاز حكومى مركزى تستطيع بواسطته لجنة الرقابة أن تعمل، وكانت

برلين قد دمرت تدميرا جعل الروس يدعون أنه لا يمكن حكم ألمانيا من هذا الركام من الانقاض، وعلى الرغم من أن «إيزنهاور» عين عضوا في لجنة الرقابة، فلم يكن أى عضو بريطانى أو روسى قد عين بعد، أما فى المنطقة التى يحتلها الحلفاء الغربيون فيواصل المقر العام الأعلى لقوات الحملة الحليفة العمل كمقر عام للعمليات، وكان علينا أن نبدأ فى حكم ألمانيا بمساعدة الآلة الإدارية والعسكرية.

وكانت هناك مشاكل مدنية هائلة يقتضى حلها فى المنطقة التى تحتلها مجموعة الجيوش الحادية والعشرون، فقد لجأ إليها أكثر من مليون مدنى هاربين من وجه الروس، وكان هناك نحو مليون ألمانى جريح فى مستشفيات المنطقة بدون مواد طبية، واستسلم أكثر من مليون ونصف مليون مقاتل ألمانى غير جرحى فى ٥ مايو لمجموعة الجيوش الحادية والعشرين، فهم الآن أسرى حرب بكل ما تقتضيه هذه الصفة، وكانت الأغذية على وشك النفاذ.

وتوقفت مصالح النقل والمواصلات الألمانية عن العمل، وتجمد القسم الأكبر من الصناعة والزراعة، وكان المهم إطعام السكان وإسكانهم وحفظهم من الأوبئة.

وأخيرا، وقع الصدام بين الروس والغربيين، فقد كان تفكيرهم إزاء كل مشكلة يختلف كل الاختلاف عن تفكيرنا، وكان سلوكهم خاصة أسلوب تعاملهم مع النساء يشير فى نفوسنا الذعر، وفى بعض قطاعات المنطقة الروسية لم يبق عمليا ألمان، إذ هربوا جميعا قبل وصول البرابرة، مما أوجد بالنتيجة فى المناطق الغربية ميلا من اللاجئين بلغ من التدفق حدا جعل مشاكل التغذية والإسكان تكاد تبدو مستعصية على الحل.

وكان من الضرورى أن نقبض على هذه المشكلة الكبرى بكل جراءة وبأسرع وقت، ولقد تنبأت بهذه الضرورة قبل أن تنتهى الحرب، فأبلغت وزارة الحربية فى

٢٤ أبريل أننى أرى وجوب تعيين الرجل الذى سيكون قائدا أعلى للمنطقة البريطانية وممثلا لبريطانيا فى لجنة الرقابة دون تأخير.

ولكننى لم أستطع أن أحمل «هوايتهول» على العمل بصورة من الصور فى هذا الصدد، بيد أننى فى الوقت الحاضر كنت أنا الرئيس، فأنصرفت إلى العمل على طريقي.

وكان أول ما يجب فعله إعطاء أوامر حازمة جدا بمنع النهب والاستيلاء على وسائل النقل الألمانية، ذلك إنه إذا كان يتوجب أن تنهض ألمانيا بسرعة فستحتاج إلى السيارات لمواصلاتها ونقلاتها.

وفى ٦ مايو أصدرت الأوامر المقتضاة، فمنعت النهب الفردى والجماعى بصورة قاطعة، وأكدت أن كل مخالفة تعرض صاحبها - أيا كانت رتبته - للإحالة إلى المحكمة العرفية، وإذا كان قائد من القواد أو وحدة من الوحدات بحاجة إلى أى شئ للاستعمال الجماعى من قبل الضباط أو الجنود، فيجب تقديم طلب إلى السلطة العليا بالتسلسل فتصادر المواد المطلوبة بصورة نظامية، وتنطبق هذه القواعد أيضا على السيارات وغيرها من العربات.

وكانت خطتى للمنطقة البريطانية تقوم على مبدأ استعمال نظام القيادة الألمانى بالدرجة الأولى، إذ توجه أوامرى المتعلقة بالقوات الألمانية إلى الفيلد مارشال «بوش»، القائد العام الألمانى فى شمالى غربى أوروبا، وكان عليه أن يقيم مقره العام فى شلسفيج - هولشتاين، على أن يلازم رئيس أركان حربه الجنرال «كتزل» مع هيئة أركان حرب صغيرة وفريق من ضباط الارتباط مقرى العام.

ثم نظمت المنطقة البريطانية فقسمتها إلى مقاطعات بالنسبة للواجبات الناشئة عن الاحتلال:

١ - مقاطعة برلين (الجنرال لاين).

تحتلها القوات التي ستوجه إلى برلين بعد الوصول إلى اتفاق مع الروس.

٢ - مقاطعة شلسفيج - هولشتاين (الجنرال باركر).

الجنرال الثامن مع فرقتين ولواء مدرع.

٣ - مقاطعة هانوفر (الجنرال هوروكس).

الجنرال الثلاثون مع ثلاث فرق ولواء مدرع.

٤ - مقاطعة وستفاليا (الجنرال كروكر).

الجنرال الأول مع أربع فرق ولواء مدرع.

واحتفظت بعدد من التشكيلات الأخرى في الاحتياط لاستخدامها في حال حصول اضطرابات، وأصدرت كذلك أمرا بالتوقف عن تدمير الأسلحة والأعتدة الحليفة احتياطا لحالة قد يحتاج معها الحلفاء إلى هذه الأسلحة والأعتدة لسبب من الأسباب، وبوجوب حفظها كلها.

وكان هدفي إقامة حكومة محلية في المنطقة البريطانية، مستخدما نظام قيادتي بمقرات عامة للمجافل والفرق والألوية والفيالق، فهذه يجب أن تحتل مناطق تطابق المقاطعات والكوميونات وغيرها، والعمل في كل حال بمساعدة التنظيمات المدنية المختصة.

وقررت أن تؤخذ حاجات السكان المدنيين بعين الاعتبار بالترتيب الآتي:

التغذية، الإسكان، الحيلولة دون الأوبئة، ثم يجب العناية بمسألة النقلات وكثير من المشاكل الأخرى.

وكانت أهم مشكلة: المشكلة الغذائية، وكان الكثير يتوقف على الموسم المقبل، فأصدرت أمرا يمنع على القوات المسلحة أن تشتري أو تصادر المواد الغذائية، إذ يتوجب على السكان المدنيين أن يحتفظوا بها لحاجاتهم الخاصة.

لقد وجدت نفسى فجأه مسئولاً عن إدارة نحو ٢٠ مليون ألماني ورفاهيتهم، فكان على أن أحل مشاكل مخيفة، وإذا هي لم تحل قبل بدء الشتاء فإن عددا كبيرا من الألمان سيموتون من الجوع والبرد والمرض.

بينما كانت الأيام تنقضى بعد انتهاء الحرب فى ألمانيا، كان قلقى يزداد بسبب افتقارنا إلى التنظيم الملائم لإدارة ألمانيا، لذلك أخذت الطائرة فى ١٤ مايو إلى لندن لأوضح لرئيس الوزراء أنه لا غنى عن اتخاذ قرار سريع لتعيين قائد أعلى للمنطقة البريطانية، بحيث يتمكن الرجل الذى سيعين فى هذا المنصب من تنسيق خطط لجنة الرقابة مع أعمال الحكومة العسكرية، وكانت مهمتى إقناع رئيس الوزراء بأن مشكلة حكم ألمانيا بالغة الأهمية إلى حد يقتضى معه اتخاذ قرار حيوى، ونجحت فى ذلك، إذ قرر رئيس الوزراء تعيينى قائدا أعلى لقوات الاحتلال البريطانية وعضوا يمثل بريطانيا فى لجنة الرقابة على ألمانيا، وطلبت أن يكون مندوبى فى اللجنة اللسوتان جنرال السير «رونالد ويكس»، نائب رئيس هيئة أركان الحرب الامبراطورية فى وزارة الحرب، فقبل طلبى، وأذيعت هذه التعيينات فى ٢٢ مايو.

وفى اليوم التالى جمعت فى لندن الأعضاء المدنيين فى الأقسام البريطانية للجنة الرقابة وشرحت لهم المشكلة المتعلقة بألمانيا، وقد قلت لهم إن كل ما كنا نستطيع فعله فى الوقت الحاضر بعد أن افتتحنا ألمانيا، هو أن نفرض عليها حكما عسكريا، وقد فعلنا ذلك، ولكن يجب ألا يدوم هذا الوضع وقتا أطول مما ينبغى، فعلىنا أن ننشئ رقابة مدنية، فمن المهم إذن أن تكون خطط الحكم العسكرى القصيرة الأجل متصلة اتصالا مباشرا مع خطط الأقسام المدنية البعيدة المدى، ولتحقيق هذا الهدف

يستحسن أن أرى هذه الأقسام المدنية مقيمة في ألمانيا بأسرع وقت ممكن ، ثم عرضت أساليب الخاصة في العمل وكيف استخدم النظام القاضى بوجود رئيس لأركان الحرب، وبعد أن أصدرت الأوامر بإقامة العنصر المدني في لجنة الرقابة في ألمانيا، عدت إلى مقرى العام بطريق باريس.

وعدت إلى ألمانيا في ٢٦ مايو، فعلمت أن شغبا ظهر من أسرى الحرب في معسكرهم ومن السكان المدنيين في المنطقة البريطانية، وكان هؤلاء جميعا قلقين على مصيرهم في المستقبل.

وعندما لاحظت في آخر مايو أن الألمان في المنطقة البريطانية قد أصبحوا صعبا القياد، وأنهم قلقون على المصير الذى يتظرهم، عزمت على أن أوجه إليهم رسالة أشرح لهم فيها ما أنوى فعله، تماما كما كنت أفعل مع جنود الجيوش التى كنت أقودها خلال الحرب.

وفي الأيام التى عقت الاستسلام، كان موقف الألمان على الجملة سليما، سواء كانوا عسكريين أم مدنيين، لقد كانوا على استعداد لتنفيذ الأوامر المعطاة أيا كانت، إذ كانت خشيتهم الكبرى أن يعادوا إلى المنطقة الروسية.

* * * *

الفصل الثالث والعشرون

بدء المتاعب مع الروس

فى يوم ٢٣ مايو ١٩٤٥، خولنى الملك صلاحيات مطلقة لتوقيع تصريح الحلفاء المتعلق بهزيمة ألمانيا واستسلامها بلا قيد ولا شرط، وللمفاوضة مع الدول الأخرى فى المسائل المتصلة بالاستسلام، وكُلفت فيما بعد بالسهر على أن تكون بنود هذا التصريح موضع التقيد الدقيق.

وحيث إن حفلة التوقيع الكبرى واجتماع لجنة الرقابة يجب أن يجريا فى برلين فى الخامس من يونيو، فقد وصلت فى الساعة الواحدة بعد ظهر هذا اليوم نفسه إلى مطار تمبلهوف قادمًا من المنطقة البريطانية بطريق الجو، فاستقبلنى عدد كبير من كبار الضباط الروس بين جمع غفير من الصحفيين من جميع الجنسيات.

وجرى توقيع التصريح فى الساعة ١٦.٣٠ فى أنوار المصابيح المشعة من على أقواسها وأمام جمع غفير من الصحفيين والمصورين.

وبعد التوقيع الرسمى انسحب أعضاء لجنة الرقابة الأربعة ومستشاريهم ليعقدوا اجتماعا خاصا، وافتتح «إيزنهاور» الحديث موضحا أن تصريح الدول الأربعة الذى وقعناه يجعل من القادة الأعلين الأربعة وحدة حكومية مستقلة، فيتحتم علينا الآن أن نتفق على الجهاز الذى يسمح لهذه الوحدة الحكومية بالعمل، واقترح أن تنصرف أركان حربنا إلى العمل فورا فتدرس المشاكل المتعلقة بلجنة الرقابة، وبعد موافقة اللجنة ترفع نتائج الدراسة إلى الحكومات.

ولكن «جوكوف» صرح بكل وضوح إن إنشاء جهاز لجنة الرقابة لا يمكن أن يتم قبل انسحاب القوات البريطانية والأمريكية إلى مناطقها، وما دام هذا لم يحدث لن

يمكن للمندوبين أو لأركان الحرب الشروع فى أى عمل استشكافى، فقلت إن قواتنا وصلت إلى مواقعها الحالية على أثر العمليات الحربية، وأن تجميعها من جديد وإعادتها إلى مناطقها يستغرق بعض الوقت، فسألنى «جوكوف» كم يقتضى هذا الأمر من الوقت؟ فأجبته: ثلاثة أسابيع على الأقل، فقبل على الفور، مضيفاً أن القواد الأعلى يمكنهم فى هذه الفترة أن يشكلوا أركان حربهم المفترضة للجنة الرقابة، وقال: إنه لن يكون لديه أى اعتراض عندما يحين الوقت، على أن تعمل لجنة الرقابة فى برلين.

وألقي «إيزنهاور» عندئذ كلمة ممتازة اختتم بها الاجتماع، فقال: إنه جاء وهو مقتنع بأن إقامة جهاز لجنة الرقابة وانسحاب القوات الغربية من المنطقة السوفيتية يمكن أن يحدثا معاً فى وقت واحد، على أنه بات واضحاً الآن - تبعاً للملاحظات «جوكوف» - أن الأمر ليس كذلك وأن الروس غير مستعدين لدرس المسائل التى تهم لجنة الرقابة قبل أن تكون القوات البريطانية والأمريكية قد انسحبت من مناطقها، فلم يكن هناك إذن شىء آخر يمكن فعله فى الوقت الحاضر سوى اطلاع حكوماتنا على ما جرى، وطلب تعليمات جديدة.

كما رأينا، لم يسفر الاجتماع الأول لقواد الحلفاء الأعلى عن أية نتائج، فالموقف الروسى، على الرغم مما ارتداه من طابع الود، كان مبهماً يصعب سبر أغواره، وكانت لدينا أدلة دقيقة على وجود دعاية شيوعية روسية فى بعض أجزاء المنطقة البريطانية، وقد تشكلت خلايا فى كل المناطق التى يحتلها الحلفاء الغربيون، واقتضى هذا الأمر مراقبة بأشد اليقظة، إذ أن هذه الخلايا الشيوعية توقد النار فى كل مكان تبدو فيه أمارات خلاف فى المعسكر الغربى، وكانت الدعاية الشيوعية ناشطة بشكل خاص فى المعسكرات التى أقمتها للأشخاص النازحين، وكانت مسألة التغذية تشغل بالى، فإذا لم تتحسن الأوضاع الغذائية فقد نواجه فى الشتاء المقبل مجاعة

خطيرة، ولا تكاد المنطقة البريطانية تتج نصف الأغذية التي يحتاج إليها عشرون مليوناً من السكان.

ولم تكن الحصة المخصصة للشخص الواحد في اليوم الواحد أكثر من ١٢٠٠ وحدة حرارية، وإذا أردنا رفع هذه الحصة إلى ١٨٠٠ وحدة حرارية، فهذا يقتضى أن نستورد خلال اثني عشر شهراً مقبلة ما يساوي مليوني طن من القمح، أضف إلى ذلك أن الكثير كان يتوقف على وسائل النقل والتوزيع، وهذه الوسائل كانت غير مستقرة، وفي كل مكان كان الفحم يشكل أولى الحاجات الملحة، وكان لدينا ١٤٠ منجماً تتج يومياً ٤٠ ألف طن، ولم تكن هذه الكمية كافية إلى حد بعيد، وإذا أردنا الحصول على مزيد من الفحم فإن علينا تغذية عمال المناجم تغذية ملائمة، وكان لدينا أيضاً مليونان ونصف مليون من أسرى الحرب، وقد أطلق سراح هؤلاء وأرسلوا إلى العمل بواقع ١٢ ألفاً كل يوم، وكانت سياستي إزاء هؤلاء الأسرى الإفراج عن أولئك الذين يمكن اعتبارهم غير مؤذنين، والاحتفاظ بجنود القمصان السود في المعسكرات.

وإذا شئنا أن يعمل جميع الألمان في تجديد بلادهم، فإن علينا أن نكف عن لعنهم، فالحرب مع ألمانيا قد انتهت، ويتوجب علينا إعطاء الألمان أوامر محددة ونسهر على أن تنفذ هذه الأوامر، علينا أن نكون صارمين لكن عادلين.

وكان على أيضاً أن أهتم بجيشنا، فمن المهم عدم إزعاج الجنود باستخدامهم في المهمات الناشئة عن الاحتلال، وعدم إرهابهم بأعمال حراسة تتكرر أكثر مما ينبغي، فنحن لا نستطيع مراقبة كل شيء، وقررت ألا نحرس إلا المتجبات الغذائية والمتفجرات وبعض الأسلحة والسجناء الخطرين.

وبدا تطيق خطة التسريح، وكنت أشعر أنني لا أستطيع أن أترك أولئك الذين أبلوا البلاء الحسن يذهبون دون أن أوجه إليهم كلمة شكر على ما قاموا به، فقررت أن أرسل إلى كل ضابط وكل جندي يغادرنا رسالة شخصية مطبوعة على بطاقة.

وبعد اجتماعنا فى برلين فى ٥ يونيو مباشرة، اتخذت قرارا بتوزيع المقررات العامة الرئيسية للجنة الرقابة، الأقسام العسكرية والمدنية، فى المنطقة البريطانية بين هانوفر وأوسنابروك، ولم يكن ممكنا إدخال برلين فى الحساب فى الوقت الحاضر، وقررت أن يكون لى مقر عام تكتيكى مع الأمريكين فى فرانكفورت، وهو تدبير أقره «إيزنهاور»، وأملت أنه بهذه الطريقة تستطيع حكومة تتصرف بانتظام أن تعمل بسرعة فى المنطقة البريطانية وتساير خطوات الأمريكين، وعندما ستمكن من الذهاب إلى برلين سأنقل مقرى العام التكتيكى من فرانكفورت إليها، وفى الحقيقة أننى كنت أنوى الاحتفاظ بأهم أقسام لجنة الرقابة فى المنطقة البريطانية، إذ فى هذه المنطقة تفرض المشاكل نفسها، أما ما سنتقله إلى برلين فلا يخص أحد سوانا، ولم يكن فى نيتى أن أدع الروس يسنون لى القوانين فى هذه المنطقة.

بعد أن أعطيت أوامرى فيما يتعلق بجميع هذه المسائل وكثير غيرها، توجهت فى ١٦ يونيو إلى لندن لأحاول الحصول على مقررات حول بعض الشئون السياسية، وأهم المسائل التى أثرتها كانت المسائل الثلاث الآتية:

أ - لن يتعاون معنا الروس فيما يتعلق بالمسائل التى تعود إلى لجنة الرقابة، مادام الحلفاء لم يسحبوا قواتهم إلى مناطقهم، ولم يكن هناك بالنسبة إلينا أى مبرر ذى طابع عسكري للبقاء حيث نحن، ولا مفر فيما يبدو من الشروع فى أسرع وقت بالمباحثات حول المسائل التى تتعلق بلجنة الرقابة، وقد ضاع حتى الآن كثير من الوقت الثمين وما تزال قرارات هامة معلقة بانتظار عقد اجتماع بين أعضاء لجنة الرقابة، ولذلك نصحت بالحاح أن يحصل اتفاق فى موعد قريب حول الانسحاب إلى المناطق المحددة من قبل.

ب - ما لم يحتفظ بعدد كبير من الضباط تطبيقا لمادة الضرورة العسكرية الملحة، فإن عمليات التسريح المرتقبة ستكون نتيجتها أن تخسر بعض أقسام أركان

الحرب أكثرية ضباطها المدربين الذين يشكل تعيين سواهم فى أمكتهم أكبر الصعوبات.

ج - لقد جمعت كميات ضخمة من السلاح والعتاد الألماني، وأصبح على الجندي البريطاني بالإضافة إلى كل واجباته الأخرى أن يقوم الآن بالحراسة حول تجميعات هذه الأسلحة، وبالنظر إلى عدد هذه المستودعات وأحجامها، يصعب حراستها بصورة ملائمة، وهناك خطر كبير فى أن يعود جزء من هذه الأسلحة إلى أيدي العدو، ولذلك أعطيت التعليمات بحفظ هذه الأسلحة سليمة، وأنا الآن أتح على إلغاء هذا الأمر لأننا لا نتمكن من تدمير الأسلحة.

وأثناء إقامتى فى لندن شرحت للحكومة البريطانية المشاكل التى يتحتم على أن أواجهها واستحالة تحقيق كثير من التقدم فى إدارة ألمانيا ما دام جهاز اللجنة المركزية لا يستطيع أن يعمل، فعلمت أن مباحثات تسير سيرا حسنا بين رئيس الوزراء والرئيس «ترومان» والمارشال «ستالين» فيما يتعلق باحتلال المناطق المخصصة للدول الأربعة الكبرى فى ألمانيا أم فى النمسا، حيث يحتل الروس منطقة كبيرة يجب أن يسلموها للحلفاء الغربيين.

وفى ١٩ يونيو، أبلغت أن المارشال «ستالين» وافق على الانسحاب المتزامن فى المناطق المشار إليها من ألمانيا والنمسا وانتقال حاميات إنجليزية فرنسية أمريكية إلى برلين، على أن تبدأ هذه التحركات المختلفة فى حوالى أول يوليو، وقد علقت على هذا الاتفاق أهمية عظيمة إذ أن مؤتمر الأقطاب الثلاث كان يجب أن يعقد فى منتصف يوليو ببرلين، وكان من المتظر أن يكون كل من الحلفاء قد عاد إلى منطقته فى هذا التاريخ.

وعلى أثر هذا الاتفاق بين الحكومات على الانسحاب المتزامن إلى المناطق المعنية، سافر الجنرال «ويكس» والجنرال «كلاى»، وهما يمثلان بريطانيا وأمريكا فى

لجنة الرقابة، بالطائرة إلى برلين في ٢٩ يونيو للتباحث مع المارشال «جوكوف» في الطريقة التي يجرى بها الانسحاب، وتقرر في هذا الاجتماع أن تبدأ عمليات الانسحاب في أول يوليو، فيخلى البريطانيون متكاً فيسمر في يوم واحد، وثنوء ماجدبورج في يومين، ويستغرق جلاء الأمريكيين عن القسم الذي يحتلونه من المنطقة الروسية ما بين ستة وتسعة أيام، وتحتل طلائع بريطانية وأمريكية قطاعاتها في برلين في أول يوليو، وتتبعها مجموعة القوات العظمى في ٤ يوليو، وأوضحت للروس ضرورة الوصول بحرية ودون عقبات إلى هذين القطاعين، فقبل الروس بأن يمنح البريطانيون والأمريكيون طريقاً برياً وخطاً حديدياً مع الحق باستخدامهما، على أن يتحمل الروس مسئولية العناية بهما والإشراف عليهما، وكذلك وافق الروس على تخصيص مطار طوال انعقاد مؤتمر الأقطاب الثلاث، أما تخصيص مطارات أخرى فقد أرجىء النظر فيه إلى مباحثات لاحقة، واتفق على إنشاء عمر جوى إلى برلين يبلغ عرضه عشرين ميلاً، وسمح باستخدام هذا الممر مع تحفظ يقضى بإبلاغ الروس قبل ساعة من الزمن كلما أرادت طائرة أن تدخل أجواء منطقتهم. وكتيجة لهذا المؤتمر، بدأت في أول يوليو الانسحابات إلى المناطق المتفق عليها، وفي اليوم نفسه توجهت الطلائع إلى برلين.

وتم الاتفاق أيضاً على الترتيبات الواجب اتخاذها لعقد مؤتمر الأقطاب الثلاث في برلين، وشرع القطاع البريطاني في برلين بالأشغال التي يقتضيها انعقاد المؤتمر، وجرى تسليم منطقتي فيسمر و ماجدبورج إلى الروس دون اصطدمات وأنهى ذلك في ٤ يوليو، وفي الوقت نفسه توجهت قوة مؤلفة في معظمها من الفرقة السابعة المدرعة لاحتلال القطاع البريطاني في برلين، وحلت هذه القوة محل الروس الذين سحبوا معظم قواتهم، ولكنهم رفضوا أن يسحبوا القوات التي كانت تشكل في برلين الحكومة العسكرية ما لم يتحمل البريطانيون مسئولية تغذية ٩٠٠ ألف ألماني

يعيشون فى هذا القطاع، وواجه الأمريكيون شرطا مثل هذا فى قطاعهم أيضا، وكانت برلين تتلقى عادة فى مجملها موادها الغذائية من المنطقة الواقعة على بعد ٥٠ ميلا من العاصمة، وهى الآن محتلة كلها من الروس، ولذلك بدا ما يشترطونه غير معقول، وبعد مباحثات طويلة واجتماعات كثيرة تم الإتفاق أخيرا على أن يؤمن البريطانيون والأمريكيون لمدة شهر تغذية سكان قطاعيهم فى برلين دون أن يؤثر هذا على القرار المقبل الذى سيتخذ فى المسألة المبدئية وهى التى ستبحث فى مؤتمر الأقطاب الثلاث.

وفى هذه الأثناء كانت مسألة مستقبل ألمانيا وعمل لجنة الرقابة قد تركت ليتخذ بشأنها القرار المناسب فى مؤتمر الأقطاب الثلاث الذى سيفتح فى برلين فى ١٦ يوليو، وكان قد إتضح لى أن الروس لن يوافقوا على إعادة بناء ألمانيا كوحدة اقتصادية، فالجيوش الروسية كانت فى منطقتها تعيش حالة على البلاد ناهية خيراتها لانتظام.

وبعد تعيينى عضوا بريطانيا فى لجنة الرقابة الحليفة تلقيت توجيهها مسهبا لكن غير دقيق، يتعلق بالمسلك الذى يجب على إنتهاجه، وكان هذا التوجيه يفترض أن لجنة الرقابة ستعمل، وأنها ستحل بقرارات اجماعية جميع المشاكل التى تواجهها، غير أن الموقف كان فى الواقع مختلفا كل الاختلاف عما يراه السياسيون، فالروس لم يكونوا مستعدين لأن تشرع لجنة الرقابة فى العمل، أضف إلى ذلك إنه لم يكن فى ألمانيا أية سلطة مركزية تستطيع هذه اللجنة بمساعدتها أن تعمل، ولمواجهة هذا الوضع طلبت من هوايتسهول أن تعطينى تعليمات جديدة، وأخيرا حولنى وزير الحرية حق العمل بمبادرة شخصية منى على أن أحاول جهدى أن أعمل بقدر المستطاع بالانسجام مع الخط الأمريكى، فحررت عندئذ لأركان حربى سلسلة من المذكرات أشرح لهم فيها سياستى العامة المتعلقة بإدارة المنطقة البريطانية فى ألمانيا، وكان كلما تقدم صيف ١٩٤٥ اتضح أن الأمور لا تسير فى الاتجاه الذى توقعناه،

وكان هذا عائدا لمتاعبنا مع الروس ولاختلاف الآراء أيضا بين الحلفاء الغربيين أنفسهم، لقد كنا مقيدين بيروتوكول بوتسدام الذى ينص فيما ينص عليه، على تعويضات متوجبة للروس من المنطقة البريطانية، وعلى إسكان اللاجئين فى المنطقة البريطانية، وعلى معاملة ألمانيا كوحدة اقتصادية تحت إدارة ألمانية مركزية وكانت هناك مشكلة أخرى متأتية من أنه إذا كان على ألمانيا أن تدفع نفقات الإحتلال البريطانى فيجب أن تتاح لها القدرة على فعل ذلك، ولكن طاقتها الصناعية كانت منخفضة انخفاضاً كبيراً، وسفنها اضمحلت وأموالها فى الخارج مجمدة، واللاجئون يتدفقون كالسيل على ألمانيا الغربية، وكان هذا يقتضى إطعام عدد من السكان أكبر، وتوفير عمل لهؤلاء السكان الذين يستحيل تصديرهم، وما دامت ألمانيا لم تستأنف مبادلاتها الدولية فلن تتمكن من الدفع ولم يكن الروس ليهتموا بكل هذا، ففى رأيهم أن على ألمانيا أن تدفع تعويضات سريعة على شكل آلات وعلى صورة عمل، ذلك أن ألمانيا المستاءة المقطعة الأوصال ستساعد على انتشار الشيوعية.

وكان الفرنسيون يدركون وجهة النظر البريطانية، ولكنهم كانوا حذرين إزاء كل محاولة لإعادة بناء ألمانيا عدوتهم القديمة.

أما الأمريكيون فلم يكونوا يحبذون فكرة إيقاف ألمانيا على قدميها بمساعدتهم لمجرد إيجاد سوق لبريطانيا العظمى أو للتوفير على المكلف البريطانى.

وكانت مهمة لجنة الرقابة توليد أوروبا جديدة، أوروبا يعيش فيها ٧٠ مليون ألماني بسلام، كوحدة تامة، ولم نكن نستطيع أن نبلغ هذا الغرض إلا برقابة رباعية على حكومة ألمانية مركزية، ويتوقف المستقبل على قدرتنا على النجاح أكثر مما يتوقف على قدرة ألمانيا إذا تركناها وشأنها.

وكانت المنطقة البريطانية تشكل همى المباشر، وكنت حريصاً على أن أستخرج شيئاً من النظام من قلب الفوضى القائمة، وأن أجعل العشرين مليون ألماني يجتازون الشتاء دون صعوبة، ولم يكن فى نيتى أن أدع متاعبنا مع الروس تشينى عن عزمى.

الفصل الرابع والعشرون النضال لإنهاء ألمانيا

فى منتصف يوليو ١٩٤٥، حل المقر العام الأعلى لقوات الحملة الحليفة، ولكن «إيزنهاور» بقى قائداً أعلى وحاكماً عسكرياً للمنطقة الأمريكية.

ولقد كنت دائماً أرى أن هذا التدبير خطأ كبير من جانب الحلفاء الغربيين، فكل شرقى ألمانيا يؤلف منطقة يحكمها رجل واحد هو «جوكوف»، بينما قسمنا نحن ألمانيا الغربية إلى ثلاث مناطق مستقلة، يحكم كلا منها حاكم عسكري مختلف، وكان رأى وجوب احتفاظ «إيزنهاور» بحكم نصف ألمانيا الغربى، فذلك كان الروس يواجهون جبهة واحدة، ولقد ارتدت علينا نتائج هذا الشموخ القومى.

وعندما توقف المقر العام الأعلى لقوات الحملة الحليفة عن ممارسة الحكم، كانت كل من الدول الأربع المحتلة قد تسلمت منطقتها فى ألمانيا وأنشأت حكومة عسكرية وكان الانتقال بين مناطق الحلفاء الغربيين حراً، ولكن الدخول إلى المنطقة الروسية كان ما يزال ممنوعاً، ولكى يسمح الروس للحلفاء الغربيين بالوصول إلى قطاعاتهم فى برلين، أعطوهم طريقاً برياً، وخطاً حديدياً، وعمراً جويماً، لكن لم يكن يسمح بأى تحول عن هذه الخطوط، أما فى داخل برلين فكان التجول مسموحاً به بين كل القطاعات.

وفى المنطقة البريطانية، كان تسريح الجيش الألمانى يجرى بصورة مرضية، وأرسل عدد كاف من الرجال إلى الريف ليعملوا فى الحصاد، لكن مقابل ذلك وصل عدد كبير من الأسرى من الترويج، فبلغ مجموع الأسرى الألمان الموجودين الآن فى المنطقة البريطانية، مليوناً وثمانمائة وخمسين ألفاً، وازداد إنتاج الفحم بالتدريج، إذ

تحسنت تغذية عمال المناجم، واستأنفت مصالح النقل والتوزيع العمل بمقدار ما كان يسمح توفر السيارات وإصلاح الطرقات والخطوط الحديدية.

واستؤنفت صناعة صيد السمك على طول الشاطئ، وبفضل هذه الصناعة أمكن إكمال المخزون من المواد الغذائية، وكانت مشكلة الأشخاص النازحين الذين بقى منهم مليون وثلاثمائة ألف دون عمل، ما يزال حلها شديد الصعوبة، وكان الروس يقبلون بانتظام مستمر رعاياهم النازحين، ويرفضون رفضا باتا استقبال البولونيين، ما دام رعاياهم لم يعادوا إلى وطنهم بعد.

ومن جهة أخرى بدأنا الآن نعرف كيف يدير الروس منطقتهم في ألمانيا، فمنذ توقف القتال أخذ الروس ينهبون هذه المنطقة بانتظام، مفككين جميع الآلات ومرسلينها إلى الشرق مع كل للمخزونات التي يمكنهم وضع أيديهم عليها، وكانوا يعتبرون هذا العمل تعويضا جزئيا عن كل ما نالهم على يد الألمان من أذى، وما نهبه هؤلاء من روسيا، أضف إلى ذلك أن الجيش الروسى يعيش حالة على البلاد مستهلكا حتى آخر حبة مخزونات الأغذية في المنطقة الروسية.

وأخيرا أعطى الروس كل الأرض الواقعة شرق خط أودر - نيسه إلى بولونيا، وكثير من سكان هذه المنطقة الألمان الذين كان عددهم يبلغ قبل الحرب نحو عشرة ملايين، طردهم البولونيون إلى المنطقة الروسية من ألمانيا، أما العدد القليل من السكان الذين بقوا في هذه المنطقة عالية الإنتاج فلم يكن كافيا لحرثها وزرعها وجعلها تتج بعض ما كانت تتججه في الماضي، وعلى ذلك فلم يعد لدى المنطقة الروسية من ألمانيا، كما كان لديها في الماضي، فائض من الأغذية يسمح لها بإطعام ألمانيا الغربية، بل كانت في حالة الموت من الجوع، أضف إلى ذلك أن طاقة ألمانيا الشرقية الصناعية تضاءلت يوما بعد يوم حتى أصبحت لا تذكر.

فى ١٥ يوليو، وصل رئيس الوزراء والرئيس «ترومان» والمارشال «ستالين» إلى برلين لحضور مؤتمر «بوتسدام»، وفى اللحظة التى بدا فيها أن المؤتمر قد توصل إلى

بعض القرارات، اضطر الوفد البريطاني إلى العودة إلى إنجلترا في ٢٦ يوليو ليعرف نتائج الانتخابات العامة، واتخذت كل الترتيبات لعودة المستر «تشرشل» ووفده إلى بوتسدام في صباح ٢٧ يوليو، ولكن هذه العودة لم تتم.

وكان إنهزام حكومة تشرشل النهائية في الانتخابات مفاجأة كبرى للجميع، وأحدث تشكيل حكومة جديدة تأخيرا طفيفا في وصول وفد بريطاني إلى بوتسدام، ونتج عن ذلك بالطبع بعض الشك في الأثر الذي سيتركه تغيير الحكومة على مباحثات المؤتمر، على أن جميع الشكوك زالت عندما وصل المستر «أتلي» والمستر «بيفن» إلى بوتسدام، فقبضا بأيديهما على المشاكل القائمة، وتركا لدى الجميع انطباعا ممتازا.

وبدت نتائج المؤتمر مرضية لأول وهلة، وهاك أهم النقاط المتعلقة بألمانيا:

أ - إنشاء لجنة من وزارة الخارجية لإعداد معاهدات السلام مع إيطاليا والدول الدائرة في فلك المحور، ولإعداد ترتيب للسلام مع ألمانيا يطبق عندما تقوم حكومة ألمانية بصورة نهائية، ولدرس بعض المسائل المتعلقة بالأراضي الأوروبية.

ب - اتفاق الدول الثلاث على معاملة السكان الألمان معاملة واحدة، إلى الحد الذي يكون ذلك ممكنا عمليا، وإقصاء جميع النازيين عن الوظائف العامة، وحرية القول والصحافة والدين، وتشكيل نقابات حرة خاضعة للإشراف العسكري، ولا مركزية البنية السياسية، إذ ليست أية حكومة ألمانية مركزية موضوع البحث في الوقت الحاضر.

ج - اتفاق تعامل ألمانيا بموجبه كوحدة اقتصادية إذ اعتمدت اللامركزية للاقتصاد الألماني، ويجب في البداية أن يستخدم حاصل عمليات التصدير لدفع أثمان المستوردات الأساسية التي توافق عليها لجنة الرقابة.

د - تستطيع الدول المحتلة أن تحصل من ألمانيا على تعويضات بشكل بضائع إلى الحد الذى تستطيع معه ألمانيا تسليم تجهيزات صناعية.

هـ - الاتفاق المتعلق بنقل السكان الباقين فى بولونيا وتشيكوسلوفاكيا وهنغاريا إلى ألمانيا، وهذا النقل يجب أن يجرى فى ظروف ملائمة وبروح إنسانية.

ولم يكن هناك أى جهاز مركزى لحكم ألمانيا، لكن بفضل النشاط الكبير الذى أبداه بشكل خاص الجنرال «ويكس» رئيس أركان حرب المنطقة البريطانية، فإن دوائر مختلفة مبنية على أساس ثلاثى أنشئت بغية العمل بشكل يجعل الحكومات العسكرية لكل منطقة من مناطق الحلفاء الغربيين تسير بخطى واحدة، وبحيث تدرس المشاكل الاقتصادية لهذه المناطق فى جملتها، ومع ذلك فقد انتهى وجود هذه الدوائر الآن بقيام الجهاز الثلاثى، وقد بدأ هذا الجهاز يعمل بعد اجتماعنا فى ٣٠ يوليو، واتخذ التنظيم كله اسم سلطة الرقابة الحليفة، وكان منقسما إلى ثلاث شعب:

١ - المجلس، ويتألف من قادة المناطق البريطانية والأمريكية والروسية والفرنسية.

٢ - لجنة التنسيق، وتتألف من المندوبين الأربعة لهؤلاء القادة.

٣ - أركان حرب الرقابة، وتشتمل على ١٢ قسما تعمل معا أغلب الأحيان بغية وضع سياسة مشتركة.

وفى آخر يوليو، اضطر الجنرال ويكس بسبب مرضه للاستقالة من أعماله كمندوب وك رئيس لأركان حرب المنطقة البريطانية.

وفى هذه الأثناء، كنت أفكر تفكيراً عميقاً فى مشكلة تقويم عقلية الشعب الألمانى، وكان لابد فى سبيل ذلك من خطة، ولم تكن لدينا بعد مثل هذه الخطة، ولذلك عزمت على وضع خطة تتلخص فيما يلى:

١ - السماح للألمان بمناقشة مشاكلهم فيما بينهم، وبأن يتخذوا بوجه عام هم أنفسهم التدابير التي تصونهم من عودة الماضي.

٢ - تحطيم أفضل حلفاء النازية، البطالة والضجر والخوف من المستقبل، وإحلال الأفكار السليمة والأمل محلها.

٣ - الوصول قبل كل شيء إلى الشبيبة الألمانية.

وكان أول ما يجب فعله إطلاع الألمان على هذه الخطة، فبينما كان مؤتمر بوتسدام منعقدا حررت رسالة ثالثة إلى الشعب الألماني في المنطقة البريطانية، وكانت مؤرخة في ٢٥ يوليو ١٩٤٥، ولكتني احتفظت بها حتى تنشر نتائج المؤتمر، وأخيرا أذيعت في ٦ أغسطس.

في مطلع أكتوبر ١٩٤٥، انتهى مؤتمر وزراء الخارجية في لندن بخلاف بين الوزراء، وكان قد انعقد لرسم الطرق المؤدية إلى معاهدات الصلح مع الدول المعادية السابقة، على نحو ما تم التفاهم عليه في مؤتمر بوتسدام، وقد أصبح الآن واضحا كل الوضوح أننا أمام صعوبات كبرى.

وفي ذلك الجنى، كانت لجنة الرقابة تلاقى في برلين عقبات جدية وتجذب نفسها في طريق مسدود، والسبب المباشر لهذا الوضع ناشئ عن معارضة فرنسا لإنشاء إدارة ألمانية مركزية، ففرنسا التي هوجمت ثلاث مرات في قرن واحد كانت تريد الأمن قبل كل شيء، وكانت تعتبر ألمانيا مقطعة الأوصال أقل خطرا عليها، أضف إلى ذلك أن الفرنسيين كانوا يتمنون أن تفصل عن ألمانيا وتدول منطقة الروهر التي تشتمل على جزء كبير جدا من إمكانيات ألمانيا الحربية، وكانوا يعتبرون أن إنشاء إدارة ألمانية مركزية - بينما لا يزال الروهر يشكل جزءا من ألمانيا - من شأنه أن يمس بمصير هذه المنطقة.

ولقد كان كل العمل الهام الذي قام به الجهاز الرباعي مستندا إلى فكرة إنشاء إدارة ألمانية مركزية، فاستبعاد هذه الفكرة أوقف فعليا عمل الجهاز الرباعي.

وبعد فشل اجتماع وزراء الخارجية الذين لم يستطيعوا التوصل إلى اتفاق حول مصير ألمانيا، توجهت إلى لندن للاجتماع بـ رئيس الوزراء المستر «أتلي»، ولقد قابلته في مطلع أكتوبر ١٩٤٥، وأوضحت له أن العقبة المباشرة في وجه تقدم اللجنة الرباعية هي المعارضة الفرنسية لإقامة إدارة ألمانية مركزية، على أن سياسة الستار الحديدي الروسية تصبح هي العقبة الحقيقية إذا هي استمرت إلى ما لا نهاية، إذ بدون حرية انتقال الموظفين من الألمان والحلفاء، وبدون حرية الصحافة وال الطيران، لن تستطيع الإدارة الألمانية المركزية أن تعمل، فإذا استمر الروس في الاحتفاظ بالستار الحديدي بيننا وبين منطقتهم فليس هناك أى أمل باستمرار ممارسة الرقابة الرباعية.

ويجب أن نجد لمشكلتنا حلاً سريعاً، إذ أن ألمانيا تنزلق نحو الفوضى الاقتصادية، وهذا لا يمكن تجنبه إلا باتخاذ قرارات هامة دون تأخير بشأن العملة والضرائب والقروض، وبأن تنشأ لهذا الغرض إما إدارة مالية مركزية، أو إدارة مالية في كل منطقة، ويجب الاختيار بين هاتين الطريقتين بسرعة، فإذا ما تم الاختيار فلن يكون سهلاً أن نعود القهقري.

وباقتراب الشتاء، أخذ يبدو أن مخاوفى المتعلقة بالأوبئة مستحققة، فالتغذية كانت غير كافية إلى حد بعيد، وبسبب رداءة الأحوال الجوية كان الحصاد سيئاً على عكس آمالى الأولية، ولم يكن هناك فحم لتدفئة المنازل، ولم يكن لدى السكان الألمان المقاومة الجسدية الضرورية لمواجهة وباء كبير، وأخذت التقارير الواردة من المنطقة الروسية تشير إلى أن كثيراً من الألمان - وخصوصاً من الأطفال - قد ماتوا فعلاً ببطء من الجوع في بعض أجزاء ألمانيا الشرقية، وستتشر بلا ريب الأوبئة التى ظهرت فى هذه المنطقة بين الأهالى الذين أنهكهم الجوع، ولا مساكن لهم ولا ألبة ولا وسائل كافية للتدفئة.

أما تنظيمنا نحن فكانت الأمور تسير فيه دون عقبات، ففي فترة انتقال تدريجي، حل محل الجهاز العسكري الصرف - الذي أقامته مجموعة الجيوش الحادية والعشرين - تنظيم مدني يشتمل على إدارة ألمانية تحت الرقابة البريطانية.

وفي هذه الأثناء كتبت توجيهاً يتعلق بتطور إدارة المنطقة البريطانية، وكان هذا التوجيه قائماً على مبدأ يقضي بأن يحل محل الحكومة العسكرية - حالما يمكن ذلك - نظام حكم مدني، أما السرعة التي سيجري بها هذا التعديل فتوقف على التقدم الحاصل في حقل نزع السلاح وحل الجيش ونزع النازية وإنشاء نهج للإدارة الديمقراطية.

ولكي يتاح لهذا أن يتحقق دون عقبات يتوجب تطبيق برنامج ذي مراحل متوالية على الفور، ففي المرحلة الأولى يكون قواد المقاطعات ما يزالون يهتمون بواسطة أركان حربهم بما يقع على عاتقهم بوصفهم حكاماً عسكريين، وفي المرحلة الثانية يدرب مفوضون إقليميون على أن يحلوا محل قواد المقاطعات كحكام عسكريين، وفي المرحلة الثالثة يكف قواد المقاطعات عن أن يكونوا في الوقت نفسه حكاماً عسكريين، وفي المرحلة الرابعة يتخذ ملاك الحكومات العسكرية بالتدريج طابعاً مدنياً مع تخفيض محسوس في صلاحياته، وبعد تحقيق أهداف المرحلة الرابعة تحقيقاً كاملاً، يحكم الألمان أنفسهم بأنفسهم بشرط ممارسة لإشراف عام، ويكون على رأس الإدارة رجل مدني لا رجل عسكري.

في أواخر عام ١٩٤٥، أخذت أتأمل في التقدم، أو في عدم التقدم، الذي حققناه في المنطقة البريطانية، وكانت معركة الشتاء مستمرة وأنا آمل أن نربحها، وكانت لجنة الرقابة تعمل، ويبدو أننا نتقدم إلى الأمام، أما ما يهددنا الآن فهو التفاؤل المستسلم، لقد بدأنا بداية حسنة، لكن ما يزال هناك الكثير مما يجب عمله، وكنت أحس باقتراب العاصفة.

وبينما كانت خططنا لإنهاض ألمانيا المعنوى تسير بانتظام، كانت المنطقة البريطانية هادئة، فالألمان مشغولون بصعوباتهم المباشرة، ومهتمون بشكل خاص بإيجاد الغذاء ووسائل التدفئة، ولكنى شعرت بأن منازعات ستحدث فيما بعد، فإذا نجحنا بأن نجعلهم يجتازون الشتاء بصورة ملائمة، فإنهم سيستعيدون قوتهم فى عام ١٩٤٦، وسيرون مصانعهم مفككة وفحمهم غير موجود، وسيحققون من أنه لن يسمح لهم الاستفادة من نهوض بلادهم، فلقد كانت سياستنا الصناعية والاقتصادية موضوعة بصورة تجعلها مرتبطة ببطالة عامة.

ولقد نحينا عددا كبيرا من الألمان الاشتراكيين الوطنيين عن مناصبهم، وكثير من هؤلاء قديرون جدا ومنظمون من الطراز الأول، وهؤلاء أصبحوا الآن عاطلين عن العمل، وقد يكونون سببا للاضطراب، ولقد سرحنا فى منطقتنا نحو مليونين من المحاربين القدماء، ويمكن إضافة نصف مليون إلى هذا الرقم، وكان فى ذلك بلا شك أرض خصبة يستطيع أن يبذر فيها قوم سيئو النية بذور الاستياء والاضطراب.

وبينما كانت هذه الأفكار تراودنى، خلصت إلى أن علينا ألا ندع قواتنا المسلحة فى ألمانيا تتناقص بسرعة أكثر مما ينبغى، فقد كان علينا أن نحفظ بقوات كافية للمحافظة على النظام وتطبيق القانون ومساعدة السلطة المدنية إذا هى ناءت بأعبائها.

وكان هناك احتمالات كثيرة لحدوث اضطرابات، ويمكن أن تسوء أمور كثيرة مما جعلنى أفكر فى أن علينا أن نكون واثقين من الأرض التى نقف عليها قبل أن نمضى قدما إلى الأمام.

وفى هوايتهول كان هناك ميل إلى التقدم بسرعة إلى الأمام، أما أنا فكنت أرى أن السير بسرعة أكثر مما ينبغى سيجعلنا نواجه مضاعفات غير سارة.

على أن رؤسائى من حزب العمال لم يكونوا جميعا موافقين على هذا، وكانوا يقولون إنهم يفهمون أكثر منى فى السياسة، وهذا بالتأكيد صحيح، لكنى كنت أنا المسئول عما قد يحدث، ولذلك رفضت تغيير سياستى.

ومع ذلك فقد علمت أن الأمور استعجلت بعض الشيء بعد أن غادرت ألمانيا فى مايو ١٩٤٦.

* * * *

الفصل الخامس والعشرون

أيامى الأخيرة فى ألمانيا

فى ٢٦ يناير ١٩٤٦ ، أبلغت رسميا أن الاختيار قد وقع على لمنصب رئيس هيئة أركان الحرب الامبراطورية، وأن على أن أتسلم مهام هذا المنصب فى ٢٦ يونيو، وحيث إننى سأغادر ألمانيا بعد بضعة أشهر، وجهت عنايتى إلى مسألتين كانتا فى رأى هما الأساس فى كل شىء، أولاهما: مشكلة السكان الألمان، والثانية: تطوير الإدارة فى المنطقة البريطانية لمواجهة هذه المشكلة.

وكان أحد أهم أهدافنا فى ألمانيا يتلخص - على ما أعتقد - فى تعديل أحاسيس الشعب الألمانى ونمط حياته، ففى خلال السنوات الثلاث عشرة الأخيرة أدخلت أفكار اشتراكية وطنية ودكتاتورية بقوة فى العقول الألمانية، وتضاءلت السلطة العائلية كما تضاءل نفوذ الكنيسة وازدادت قوة الدولة، وقد اقترنت هذه الفترة بالنسبة للشعب الألمانى بالاستخدام الكامل وبمستوى معيشة مرتفع، أما الآن فلم يبق إلا البؤس، وكان هناك خطر من أن نرى الشعب الألمانى يلقى نظرة إلى الوراء بحنين إلى النظام الماضى، وبحسب معلوماتى كانت هناك نسبة مئوية كبيرة ، ربما بلغت ٦٠ ٪ من الشعب الألمانى، أشتراكيون وطنيون متعصبون، وفى منطقتنا كان الرأى العام يتطلب إزاء المنطقة البريطانية نحو ٢٠ مليون ألمانى سيشهدون أوقاتا عصية بسبب قلة الأغذية، وعلينا بلا ريب أن نتظر الدخول فى نزاع معهم، وكان يجب التأثير عليهم وتوجيههم إلى حد ما كى لا يكونوا فى المستقبل سببا للمتاعب ، فكيف السبيل إلى ذلك؟

ولبلوغ مقاصدى كان يبدو لى أن باستطاعتنا أن نقسم هذه الكتلة البشرية إلى ثلاث فئات:

فهناك أولا الأولاد، وهؤلاء لن يصعب توجيههم رغم أن هناك خطرا دائما من أن يحدث عليهم تأثيرا سيئا أعضاء عائلاتهم الأكبر منهم سنا ممن لا يزالون نازيين مؤمنين.

ثم يأتي الشباب من الجنسين، ممن تتراوح أعمارهم بين الثامنة عشرة والخامسة والعشرين، وهذه المشكلة هي بلا أدنى شك أصعب مشكلة على. وأخيرا كان هناك الأشخاص الأكبر سنا، وربما كان كثيرون من هؤلاء ينحازون إلى جانبنا.

ورأيت أن أفضل طريقة للتأثير على هذه الفئات الثلاث، هي التركيز أولا على المجال الاقتصادي، ففيه يوجد بلا شك الحل العام لهذه المشكلة، وكان يجب أيضا أن نعطي الشعب الألماني الأمل بأيام أفضل، وأن نوضح للشبان بأنهم لن ينشئوا لأنفسهم مستقبلا قيما إلا بعملهم الخاص.

وبعد أن نعيد الألمان إلى العمل، يبقى علينا أن نجابه المشكلة السياسية، فعلى الصعيد العملي كانت تتحتم لامركزية الحكم والمصالح المدنية، ورأيت أيضا أن من المفيد تشجيع الاتصالات مع العالم الخارجى كى يتمكن الألمان من دراسة عقيدة جديدة تحل محل عقيدة النازيين.

وكان حلمى الكبير اختيار عدد من فتيان هذا الجيل وفتياته يمكن إرسالهم إلى إنجلترا للتعود على نمط حياة جديد عليهم.

كنت قد أصدرت الأمر بأن يسلم قادة الجحافل فى ١٥ أبريل ١٩٤٦ سلطاتهم إلى إداريين مدنيين، وهكذا نكون قد اجتزنا المرحلة الثالثة التى أشارت إليها التعليمات التى أصدرتها فى ديسمبر ١٩٤٥، وأصبح من الضرورى الآن إصدار تعليمات للانتقال إلى المرحلة الرابعة، فوزعت مذكرة بهذا الصدد فى ٢٥ مارس.

كان على أن أغادر ألمانيا في ٢ مايو ١٩٤٦، إذ يجب أن اتسلم مهماتي الجديدة في وزارة الحربية في يونيو، وبعد التفكير ملياً رأيت أن من واجبي إعداد مذكرة للحكومة عن الوضع في ألمانيا كما أراه، وهاك نصها:

١ - اللوحة مظلمة إن لم تكن سوداء، والأزمة الغذائية في الوقت الحاضر تضع كل ما تبقى في المرتبة الثانية، ولكنها بالتأكيد ليست العامل الهام الأوحـد في الوضع الخطير.

٢ - فالاقتصاد مريض، والفحم غير كاف، والصناعات الأساسية هي الوحيدة التي يمكن تنميتها، أما الصناعات الأخرى فمشلولة وإنتاج البضائع الاستهلاكية محدود، ولا يجد السكان في المخازن شيئاً يشترونه.

ولقد عقد الحلفاء اتفاقاً يحدد المستوى المقبل للاقتصاد الألماني، وقريباً يبدأ تفكيك عدد كبير من المصانع الألمانية، وسيستج عن ذلك بؤس أكبر للسكان وبطالة متزايدة في المنطقة البريطانية.

ومستوى الإنتاج الحالي هو من الانخفاض، بحيث أن صادراتنا لا تؤمن أثمان مستورداتنا.

٣ - إن الاقتصاد المريض لا يسمح بوجود نقد سليم، فلا يمكن شراء الكثير بالماركات بينما يميل السكان إلى تعاطي المقايضة للحصول على الأطعمة، وشيئاً فشيئاً يخسر المارك قيمته لدى السكان، وفي مثل هذه الظروف يستحيل تسير الصناعة من جديد، إذ هي تفتقر إلى الحافز، إننا نجد أنفسنا في بداية تضخم.

إن علينا أن نعمل وفقاً لخطة محددة محسوسة تستهدف تغيير أحاسيس الشعب الألماني، إنني أعلن أن الخطة الاقتصادية يجب أن تكون القاعدة لخط هجومنا.

ويجب أن يعرف الألمان ما هو مستقبل بلادهم، ولذلك يجب توفير مستوى معيشة معقول لهم وإعطاؤهم الأمل بحياة مقبولة.

وإننى أرى أننا إذا لم نتصرف على هذا النحو، فإن إحتلالنا لألمانيا سيتهى بفشل.

٥ - إذا أردنا التقدم يلزمنا:

* اقتصاد سليم.

* ميزانية متوازنة.

* رقابة مالية مركزية.

ومن الضروري إنتاج مقدار أكبر من بضائع الاستهلاك.

والقسم الأكبر من تمويل التعويضات يجب أن تتحمله ألمانيا كلها، أما الآن فهو يقع بعثه الأكبر على المنطقة البريطانية حيث توجد معظم الصناعات.

٦ - بينما الوضع الاقتصادى غير مستقر، يجرى تشكيل الأحزاب السياسية والنقابات، ولكن يجب الإقرار بأن هذا يشتمل على خطر محتمل، ولا شك فى أن قيام حزب اشتراكى ديمقراطى قوى فى ألمانيا مكثفة، سيكون ذا فائدة كبيرة، كما سيكون مساهمة فى السلام والأمن فى أوروبا الغربية.

أما إذا كان للألمان على العكس أسباب للاستياء، وإذا نحن لاقينا عداوة منظمة تجاه الدول المحتلة، فالشعب الألمانى سيجد فى الأوساط السياسية والنقابية جهازا يستطيع استخدامه لغايات إجرامية، إن هذا الوجه من وجوه المشكلة يجب أن يدرس بعناية فى السنوات المقبلة، ويجب أن تكون الدعاية القادمة من المنطقة الروسية موضوع رقابة دقيقة.

٧ - سيكون علينا أن نقرر ماذا يؤلف ألمانيا؟ لقد حددت الحدود الألمانية الشرقية في مؤتمر بوتسدام، على أنه لم يجر إتفاق بعد على الحدود الألمانية الغربية، إن هذه الحدود هي جزء من مشكلة مستقبل السار والروهر والريناني، إن علينا أن نُعلم الشعب الألماني كيف ستألف ألمانيا الغد.

٨ - من الممكن إيجاد مستوى معيشة معقول في ألمانيا على أساس المستوى الصناعي المتفق عليه، لكن بشروط معينة أهمها وجوب اعتبار ألمانيا كلا اقتصاديا، وليست هذه هي الحال الآن، أولا بسبب معارضة الفرنسيين وثانيا بتيجة موقف الروس، وأشك كثيرا في أن الروس كانت لديهم يوما نية معاملة ألمانيا اقتصاديا ككل، بالمعنى الذي نعطيه نحن لهذه الصفة، وأنا متأكد من أنهم لن يفعلوا ذلك إلا إذا مارسنا عليهم نحن وحلفاؤنا الآخرون ضغطا شديدا.

٩ - إن البلاد كلها في درجة من الفوضى تجعل السبيل الوحيد للعمل هو أن ندع الألمان، ينظمون الحالة بأنفسهم، وهذا ما تفعله المجالس التحكيمية في المنطقة الآن، ولكنه غير كاف، بل يجب أن تكون هناك إدارات مركزية، وليس لدينا مثل هذه الإدارات، ومن الضروري الحصول على موافقة الفرنسيين لإنشائها، ويجب الانتباه الشديد إلى ضرورة إنشائها تحت رقابة رباعية صحيحة، وإلى ألا تكون في تشكيلها ووظائفها خاضعة لنفوذ دولة أكثر من خضوعها لنفوذ الدول الأخرى.

١٠ - ويتحتم علينا أن نقرر هل سنطعم الألمان أم سندعهم يموتون جوعا؟ والفروق الموجودة بين المستوى الغذائي في منطقتنا وهذا المستوى في المناطق الأخرى يجب إزالتها تحقيقا لمستوى واحد بموجب إتفاق يعقد لهذه الغاية.

١١ - إنتى أعتبر النقاط الأربعة التى تضممتها الفقرتان السابعة والعاشرة من هذه المذكورة، كالدعامات الأربعة التى يجب أن نبنى عليها ألمانيا الجديدة، والدعامة الرئيسية هى الرابعة، أى الغذائية، فإذا هى انهارت، إنهارت سائر الدعامات، وحتى الآن ليست الدعامات الأربعة موجودة، فلا نستطيع إذن التقدم إلى الأمام، فيتحتّم علينا الشروع فى بناء الدعامات الأربعة، وعلينا قبل كل شىء أن نعلم الشعب الألمانى بما سيحل به وببلادهم.

فإذا لم نفعل لا هذا ولا ذاك، فإن من المحتمل أن نواجه فشلا، وسيكون نتيجة هذا الفشل عداء متعاضما من قبل الأهالى الذين سينتهون إلى التطلع نحو الشرق.

إن ألمانيا كهذه تشكل تهديدا لسلامة الامبراطورية البريطانية، وعلى العكس من ذلك، فإن ألمانيا المكثفة المزودة ببناء سياسى سليم يمكن أن تكون ذات فائدة ثمينة فيما يتعلق بسلامة الامبراطورية وسلام العالم.

* * * *

الفصل السادس والعشرون

قبل العمل فى هوايتهول

لقد أدركت أن من مقتضيات عملى فى لجنة رؤساء أركان الحرب، أن أعمد فور وصولى إلى هوايتهول إلى تقديم رأى، والاشتراك فى القرارات المتعلقة بمشاكل تقوم فى جميع أجزاء العالم المضطرب، ولن يمكتنى بالطبع أن أتكلم بالسلطان الضرورى دون أن أكون قد زرت مسبقا البلدان التى يتناولها البحث، وانتهيت إلى أن على أن أزور على الأقل بلدان المتوسط التى ترابط فيها قوات بريطانية، (مالطة، مصر، فلسطين، اليونان، وإيطاليا)، وأن ألقى نظرة كذلك على شرقى الأردن، وأن على أن أفعل ذلك قبل أن أبدأ عملى فى هوايتهول، وعندئذ أصبح فى وضع يمكتنى فيه أكثر مما يمكتنى الآن أن أعطى رأيا فى المشاكل الجارية للجنة رؤساء أركان الحرب وللوزارة بعد أن أتسلم مهام منصبى كرئيس لهيئة أركان حرب الامبراطورية.

عندما قمت بزيارتى لمصر، فى يونيو ١٩٤٦، كانت المفاوضات المتعلقة بعقد معاهدة مستمرة منذ بعض الوقت قد بلغت نقطة جمود، وكنت أعرف الشرق الأوسط معرفة كافية لجعلى أدرك أننا قد نطلب فى زمن الحرب - أو إزاء خطر الحرب - تسهيلات شبيهة بتلك التى استفدنا منها فى ظل المعاهدة الإنجليزية المصرية القاذمة، ولم يكن لنا غنى فى زمن السلم عن استعمال قناة السويس، والاستفادة من التسهيلات التى نحتاج إليها لمواصلاتنا الامبراطورية مع الهند وإستراليا والشرق الأقصى، ويجب أن نكون قادرين على الاحتفاظ بمنشآتنا الأساسية التى تستعملها قواتنا فى وقت الحرب، وأن يكون لنا حق إبقاء قوات فى المناطق الاستراتيجية وحق مرورها فى الشرق الأوسط.

ولكن الوفد البريطاني الذي كان موجوداً آنذاك في مصر أطلعني على أن كل محاولة نبذلها للإحتفاظ بمتطلباتنا ستكون تبيجتها حدوث اضطرابات خطيرة والاضطرار لاستعمال القوة واللجوء أخيراً إلى مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، وارتأى الوفد - كحل وحيد ممكن - أن نقترح سحب جميع القوات البريطانية في مصر، والمفاوضة بعد ذلك في سبيل الوصول إلى اتفاق مرض، وقد أدلى بتصريح بهذا المعنى ولكنه لم يعط النتائج المرجوة، إذ لم يبد المصريون أى قبول ولا أى عزم على ملاقاتنا في منتصف الطريق.

وفي هذه الظروف وصلت إلى مصر في ١٠ يونيو، بعد أن قضيت الليلة السابقة في مالطة، وجرت لي أحاديث مطولة مع سفير بريطانيا، السير «رونالد كامبل»، ومع القائد الأعلى للشرق الأوسط، الجنرال «برنارد باجت»، وكذلك مع ملك مصر ورئيس وزرائه صدقي باشا، ولقد تحدثت مع هذين الأخيرين بصراحة، فقلت لهما: إننا نرغب في أن يكون مفهوماً في مصر أن مصلحتها، في حال وقوع حرب عالمية، أن تتعاون قوات بريطانية مع الجيش المصري للمحافظة على كيان مصر ودول الشرق الأوسط العربية، ولذلك يجب أن تقدم في زمن السلم تسهيلات كافية للقوات البريطانية من أجل إقامة قاعدة في الحدود التي تتطلبها حاجات الحرب، وإذا كان الوضع على خلاف ذلك، فإن البلدين سيدآن الحرب بسلسلة من الكوارث لا يستطيعان النهوض منها، وهذه القاعدة يجب أن تكون في مصر.

ولكن شيئاً لم يتج عن هذه المباحثات، لأن الوفد المصري لم تكن لديه تعليمات واضحة من رؤسائه السياسيين.

ولم يبد على الملك أنه إهتم أى اهتمام بأقوالى، ولم يكف عن تكرار أن مصر قد عانت منذ أربعين سنة من سوء الإدارة البريطانية، ولذلك لم أضع معه وقتاً

آخر، أما «صدقى» فقد أظهر تفهما أكثر، وأعلن موافقته على أسلوب عرضي للمشكلة واعداد بالتعاون.

وأعلنت أننا سنخلى فى أقرب وقت ممكن مدن الدلتا، وسرعة هذا الإخلاء سيقابلها إخلاء بطيء لمنطقة القناة التى قد يتطلب الجلاء عنها خمس سنوات حسب تطور الوضع الدولى.

ثم أرسلت إلى هوايتهول تقريراً عن نتائج المحادثات التى أجريتها فى مصر. وقد انتهت - بعد زيارتى لمالطة ومصر - إلى أننا لا نزال نستطيع - دون إحتلال مصر - أن نسيطر على المتوسط الشرقى، وأن نكون قادرين على حماية مصالحنا الحيوية فى حالة الحرب بشرط إمكان تحقق المتطلبات الآتية على الأقل:

أ - الوصول إلى اتفاق يعطينا حق إقامة ما نشاء من القوات فى ليبيا، ويمكن أن تكون ليبيا قاعدة ممتازة لقواتنا الجوية، فحين تكون مالطة فى أيدينا، وتكون لنا قوات برية وجوية فى ليبيا، فسنكون فى وضع جيد لحماية مصالحنا الحيوية فى المتوسط وأفريقيا الشمالية.

ب - إقامة قوات أمامية برية وجوية فى قبرص، وقوات جوية فى شرقى الأردن، وفقاً لاتفاقات تعقد لهذا الغرض.

ج - الاحتفاظ بكامل حقوقنا العسكرية فى فلسطين.

د - الاحتفاظ بحق العودة إلى مصر فى حال خطر الحرب، على أن يحافظ لنا المصريون على نواة لقواعدها فى زمن السلم.

هـ - من المهم أن نبقى أقوىاء فى السودان فى حالة نشوء صعوبات مع المصريين، كى نكون قادرين على السيطرة على النيل شريان مصر الحيوى.

وكانت فلسطين المحطة التالية فى رحلتى، وكان الوضع فيها قد تدهور منذ زمن طويل، وقامت المنظمات اليهودية غير الشرعية مثل منظمة «إيرغون»، وعصابة

«شترن» بأعمال إرهابية، وقبل زيارتي بقليل وضعت اللجنة الإنجليزية الأمريكية تقريرها مقدمة توصيات، بينها توصية بقبول ١٠٠ ألف يهودى على الفور، وكان هذا التقرير ما يزال قيد الدرس، وقد أحدث نشره تباطؤا مؤقتا فى أعمال الإرهاب، ولكن اليهود أبدوا دلائل نفاذ صبر بسبب التأخير فى تحقيق رغباتهم، وكان يبدو أن الهدوء لن يدوم طويلا.

وكنت متزعجا كل الإنزعاج مما سمعته ومما رأيته، فكان إتخاذ قرار سياسى أمرا ضروريا بالتاكيد، ولكن لم يكن فى الوقت الحاضر من صلاحياتى تعيين حدود هذا القرار، وظهر لى أن المفوض السامى عاجز عن اتخاذ قرار، فالتردد يسود كل مكان، ابتداء من هوايتهول، لقد كان يجب تحديد خط للسلوك، وكانت قوة الشرطة الفلسطينية أقل خمسين بالمائة عما كان يجب أن تكون عليه، خاصة فى وقت يقترب فيه الوضع من الانفجار، ومن كل هذا نتجت حالة لم تعد فيها السلطة البريطانية إلا سلطة إسمية، وبدا لى أن الذين يمسون حقا بزمام السلطة هم اليهود.

وقد أبلغت القائد الأعلى فى فلسطين بوضوح أننا نخطئ السيل، إن قرار إعادة السلطة البريطانية بشكل فعال قرار سياسى - وعلينا تطبيقه - فإذا أسفرت عن ذلك حرب مع اليهود، فستكون من وجهة نظر الجيش حربا ضد عدو متعصب واسع الحيلة أسلحته القتل والخطف والتخريب، وسيقاتلنا النساء كما يقاتلنا الرجال، ولن يعرف أحد الصديق من العدو، وكل هذا يتطلب مراجعة دقيقة لنشاط الموظفين المكلفين فى فلسطين بالمصالح العمومية، ويجب أن تعلق النشاطات الاجتماعية وتتخذ أدق التحفظات، وبصورة عامة على كل فرد أن يعى مسئولية المهمة التى تنتظره، وألححت على أن تعطى توجيهات صارمة وبالغة الوضوح إلى الشرطة والجيش، قائلا: إن القوات ستال تأيدى الكلى لتنفيذ مهمتها الصعبة.

وقبل أن أغادر فلسطين، أبرقت إلى هوايتهول معربا بقوة عن وجهة نظري قبل أن أسافر إلى الهند، توجهت بالطائرة إلى عمان وتناولت الغذاء مع الملك عبد الله الذي كان صديقا قديما لي، وأكد لي الملك أنه سيستخدم كل نفوذه للدفاع عن القضية البريطانية لدى الدول العربية، وأضاف أن اتخاذ قرار لمصلحة العرب في فلسطين لا غنى عنه للمصالح البريطانية في الشرق الأوسط، فأجبت أنه هذا شأن الرجال السياسيين، وأنى سأطلع رئيس الوزراء على ملاحظاته، وقد فعلت ذلك.

قضيت في البصرة ليلة في طريقى إلى الهند، وكان الاهتمام الأكبر هنا بالطريقة التى تجرى فيها الأحداث في إيران وخصوصا في المناطق البترولية بإيران الجنوبية، فقد أقام حزب توده بنفوذ الروس وتأيدهم حكومته الخاصة في مقاطعة أذربيجان التى أعلنت مؤخرا استقلالها، وهو يبذل قصارى جهده لمساعدة السياسة الروسية في بقية إيران، ويشتمل هذا على محاولات لمضايقه المصالح البريطانية في المنطقة البترولية، وقد درست المشكلة مع القائد الأعلى للقوات البريطانية في العراق، وكانت مهمة حماية الأرواح والمصالح البريطانية والهندية في «عبادان» وفي مناطق آبار البترول الرئيسية الخمس على بعد نحو ١٥٠ ميلا شمالي شرقي وشمال عبادان، ولم تكن لديه قوات كافية لذلك، وهو يحتاج إلى لواء مشاة إضافي، فأبلغت لندن بالأمر موصيا بأن يعسكر اللواء المشار إليه في الشعبية مع مساندة جوية بمستوى فوج.

ومناخ هذا الجزء من العالم لا يلائم الجنود البريطانيين الشباب مهما كانت مدة الإقامة، فعزمت على أن أسال نائب الملك في الهند وقائده الأعلى إذا كانا يستطيعان إرسال لواء هندي، إذ أن أهمية هذه المنطقة البترولية كبيرة جدا بالنسبة للهند، كما هي كبيرة بالنسبة لبريطانيا، وقد قبل هذا الطلب فيما بعد وجاء اللواء في مطلع أغسطس ١٩٤٦ من الهند إلى الشعبية.

وفى الهند، كانت المشكلة العسكرية متوقفة على القرارات السياسية المقبلة، وقد قال لى «وايفل» إنه مقتنع بأن على البريطانيين أن يتركوا البلاد للهنود، ولم يكن هناك إقبال على التوظيف فى المصالح المدنية، ولم تكن نستطيع أن نحكم البلاد فترة طويلة فى مثل هذه الظروف، وكان «وايفل» يريد السير بالتدريج، إبتداء من الجنوب، بينما كانت الحكومة البريطانية تريد أن يتم الأمر بسرعة، وكانت هناك فى ذلك الحين بعثة من الوزارة البريطانية فى دلهى، وكنت مهتما بالمضاعفات العسكرية أيا كانت الخطة التى ستبناها الحكومة أخيرا، فإذا نشأت اضطرابات من جراء تطور الموقف فسيكون على العسكريين أن يحافظوا على الأرواح والمصالح البريطانية، وفى هذه الحال سيكون موقف الجيش الهندى عاملا بالغ الأهمية.

وبالإضافة إلى محادثاتى المطولة مع نائب الملك ومع أوكنلك، جرت لى مناقشات مع المرحوم مولانا «آزاد» رئيس حزب المؤتمر، ومع السيد «جناح» رئيس الرابطة الإسلامية وأعرب «غاندى» عن أسفه لعدم تمكنه من المجئ إلى دلهى لمقابلتى، إذ كان يشترك فى اجتماع للجنة حزب المؤتمر العليا.

وكانت هذه المحادثات قيمة بالنسبة لى، لا لأنها تنبأت بالمستقبل فحسب، بل لأنها أيضا أظهرت أن زعماء الحزبين السياسيين راغبون على السواء فى الإبقاء على القوات البريطانية فى الهند مهما كانت أقوالهم العلنية.

وكنت أنا محتارا بشأن الموقف الذى ستجد القوات البريطانية نفسها إزاءه إذا تسلمت حكومة هندية صرفة زمام الأمور، وقد بدا لى أن اهتمام «أوكنلك» منصرف إلى الجيش الهندى كليا، فهو قليل الإهتمام برفاهية الجنود البريطانيين فى الهند، ولذلك قررت بموافقة «وايفل» التامة أن أسعى لتعيين ماجور جنرال للقوات البريطانية فى مقر القيادة العليا فى دلهى، وإرساله فورا إلى الهند، ووافقت لندن وعينت الماجور جنرال «هويسلر» فى هذا المنصب.

وقد جرت كل هذه المحادثات فى دلهى خلال يومين اثنين، ولكنها زودتنى بصورة صحيحة عما كان عليه الوضع العام فى الهند، وهكذا تبين أن توسيع نطاق رحلتى كان مثمرا.

وكانت عودتى يجب أن تتم بطريق أثينا وناپولى، ولكننى قررت أن أتوقف ساعة فى اللد فى فلسطين لأتحدث مرة أخرى مع الجنرال باركر، ورجوت كذلك الجنرال «باجت» أن يلقانى فى اللد، ومرة أخرى أوضحت أنه يجب أن لا يكون هناك أى ضعف فيما يتعلق بالمحافظة على النظام وتطبيق القانون عندما يتصل الأمر بالإغتيالات والمحاولات الإرهابية.

وكان «باركر» يشكو من عدم مساندة السلطات الحكومية له، فوعده بتأييدى الكامل فى مهمته الشاقة، ثم واصلت سفرى نحو أثينا مع توقف فى قبرص للتزود بالبترول.

عرض لى السفير البريطانى السير «كليفورد نورتون»، والقائد العام الجنرال «كروفورد»، الموقف فى اليونان، وكان الصراع بين اليمين واليسار قد أصبح مشكلة خطيرة، وقد أثارت الأعمال الوحشية التى إرتكبها اليسار المتطرف فى الإنتخابات الأخيرة حقدا عميقا على الشيوعيين لدى أكثرية الشعب اليونانى، ولولا وجود القوات البريطانية لنجحت الأقلية الشيوعية التى يدعمها النفوذ الروسى فى الاستيلاء على الحكم بالإرهاب وبقوة السلاح، وفى ذلك الحين لم تكن الشرطة اليونانية، حتى مع دعم الجيش اليونانى، قادرة على فرض احترام القانون والمحافظة على النظام، وكانت السلطات المدنية والعسكرية البريطانية فى اليونان ترى أن هناك خطرا حقيقيا فى ترك اليوغسلافين والبلغاريين والروس يتدخلون فى شئون اليونان، وقيل لى إن حجم الجيش البريطانى فى اليونان يجب أن يتوقف على ضرورة الحيلولة دون وقوع إنقلاب مدعوم بأسلحة أجنبية، ولكننى أوضحت أن سياستنا فى اليونان يجب أن تقوم على أن اليونانيين يعود إليهم هم أمر فرض احترام القانون والمحافظة على

النظام فى بلادهم، فهذه هى مسئوليتهم الأولى، ونحن لا نستطيع أن نبقى القوات البريطانية فى اليونان إلى الأبد.

أما أكثر مهمات الجيش البريطانى فى اليونان إلحاحا فهى مساعدة الجيش اليونانى وتدريبه من أجل جعله قادرا فى أقصر وقت ممكن على السيطرة على الوضع الداخلى فى البلاد، فلا ريب أن الإعتداء من الخارج لن يحدث إلا إذا انفجرت اضطرابات داخلية خطيرة لا يمكن السيطرة عليها.

إن تعديل برنامج رحلتى بإضافة الزيارة إلى الهند أدى إلى تقصير إقامتى فى إيطاليا ثمانى عشرة ساعة، كى أستطيع العودة إلى إنجلترا فى ٢٦ يونيو، وهو اليوم الذى يجب أن أتسلم فيه مهمام عملى الجديد.

وبعد أن نزلنا فى نابولى توجهنا إلى كاسرتا، حيث إنصرفنا فوراً إلى العمل، وكان فى إيطاليا خوف من أن يغزو اليوغوسلافيون مقاطعة البندقية.

وكما كان الأمر فى اليونان، كانت خطورة الموقف تولى مقدارا من الأهمية أكبر مما يبرره مظهرها المحلى، فحرب الأعصاب الروسية لم تكن تعتبر خدعة بل دليلا على أن العمليات الحربية يمكن أن تنفجر فى كل لحظة.

وقلت إن نشوب حرب صغيرة مع يوغوسلافيا لا يمكن إلا أن يستتبع حرباً عالمية عظمى، مما يدركه المعسكر الخصم كل الإدراك، فإذا اضطرننا للقتال من أجل منطقة البندقية، فسيكون من واجب الحلفاء الغربيين أن تكون قواتنا قادرة على مجابهة العدو فى ظروف جيدة، وليست هذه هى الحال الآن.

ووعدت بالآلا أغفل المسألة، وبالوصول إلى اتفاق للجلاء عن بولا، فلم يكن لتعهدنا بشأنها ما يبرره من الوجهة العسكرية، وكان يبدو لى أن الإلتزامات التى أخذناها على عاتقنا فى النمسا وإيطاليا كانت مترابطة أوثق الترابط، وكنت أرى

تخفيض حجم القوات البريطانية فى النمسا لتعزيز القوات الموجودة فى منطقة البندقية.

وغادرت إيطاليا فى صباح يوم ٢٦ يونيو، ووصلت فى مساء اليوم نفسه إلى لندن متعباً، لكن مقتنعا بأننى أفضل تزودا لإبداء رأى فى المشاكل الخارجية مما كنت عندما غادرت ألمانيا فى شهر مايو، فقد علمت أن قوادنا العسكريين فيما وراء البحار يكافحون كثيراً من المشاكل الصعبة، وأن القوات المتوفرة لديهم غير كافية على الإطلاق، وقد بذلت قصارى جهدى فى كل مكان لأزرع الثقة واعدت بتقديم مساعدتى من أجل حل المشاكل وتقديم تأييدى لمجابهة أوضاع غير سارة.

* * * *

الفصل السابع والعشرون أيامى الأولى فى هوايتهول

لم يسبق لى أن علمت فى وزارة الحربية، ولم أكن أعلم إلا القليل من تنظيمها وعن طريقها فى العمل، وسرعان ما أدركت ضخامة العمل الذى أنجز فى هذه الوزارة خلال الحرب، وقبل أن أتركها فى عام ١٩٤٨ خلصت إلى الاعتقاد بأن وزارة الحربية هى بلا شك أفضل وزارات هوايتهول.

وفى أول اجتماع حضرته لمجلس الجيش، قدمت مذكرة كنت أعددتها فى «هندهيد» فور عودتى من ألمانيا فى مايو ١٩٤٦ حول مشكلة جيش ما بعد الحرب، وهاك النقاط الرئيسية فى هذه المذكرة:

أ - ضرورة الاتفاق على البنية التى يجب أن تكون بنية الجيش فى السنوات العشر أو الخمس عشرة المقبلة.

ب - أهمية الجيش المكتفى والعوامل الضرورية لتحقيق ذلك.

ج - الجيش النظامى والأمة المسلحة يجب أن يشكلا كلا متوازنا قادرا على العمل السريع عندما تنفجر الحرب، والوحدات الاختصاصية التى لا يمكن الإحتفاظ بها بسبب الحد الأعلى لإعداد جنود الجيش النظامى يجب أن يقدمها الجيش الشعبى.

د - ضرورة قيام صلة جيدة مع جيوش الدومنيون.

هـ - بناء الجيش النظامى وقوته العددية، القوات القاعدة وقوات الأمن الموزعة فى كل الامبراطورية مع القوات الاحتياطية الاستراتيجية فى المملكة المتحدة والشرق الأوسط.

- و - بناء الجيش الشعبى وقوته العددية ودوره.
- ز - أهمية الأبحاث العلمية وتنميتها.
- ح - مفهوم الحرب الحديثة، عقيدة واضحة مستوحاة من دروس الماضى يجب أن تلقن للجيش كله.
- ط - التدريب الجماعى يجب أن يكون خلاقاً واقعياً منسجماً مع شروط القتال الحديث، ويجب أن يجرى فى كل الفصول لا فى فصل الصيف وحده كما جرت العادة سابقاً.
- ى - مدارس عسكرية لإكمال تعليم الضباط، لا فى سلاحه فحسب بل فى دائرة أوسع أيضاً تشمل تعاون جميع الأسلحة والتنظيم والإدارة.
- ك - تدريب كبار الضباط والقادة على مستوى أعلى.
- ل - المعنويات، ضرورة درس هذه المسألة وتعليم الطريقة التى يمكن الحصول بها على معنويات عالية.
- م - أهمية إقامة تعاون وثيق مع سلاح الجو الملكى.
- وقد ألحقت بهذه الوثيقة ملاحظات تتعلق بمبادئ الحرب الأساسية، كما ألحقت بها مذكرة ألحقت فيها على إدخال نظام مختلف عن النظام الموجود فى الجيش فيما يتصل بالعلاقات بين القائد الأعلى وأركان حربه، وكان النظام البريطانى يترك آتذ للقائد الأعلى مسئولية تنسيق أعمال أركان حربه، والتجارب التى جرت خلال الحرب العالمية الثانية أقنعتنى بأن هذا النظام أصبح بالياً، إذ يجب أن يكون للقائد الأعلى إمكانية رؤية جوهر المشاكل التى يواجهها مع التفاصيل البالغة الأهمية فعلاً، لكن مع هذه التفاصيل وحدها، ففى هذه الظروف فقط يمكن أن يضع القائد الأعلى بنفسه خطة من الخطط، ولا يجوز أن يضعها شخص آخر، ولا يجوز أن

تفرض عليه هذه الخطة لا من جانب أركان حربه ولا من جانب الظروف ولا من جانب العدو.

وأعلنت أن نظامنا القائم لأركان الحرب لا يعطى أفضل النتائج، فالقواد الأعلون منهمكون بكثير من التفاصيل معرضون لإهمال الإعتبارات الكبرى، أن التفاصيل هى من شأن أركان الحرب، ورئيس أركان الحرب المكلف بالتنسيق لا غنى عنه ليخفف عن القائد الأعلى، ويتيح له التفكير والتأمل فى هدوء.

وكانت فى وزارة الحربية معارضة كبيرة لهذا التعديل سواء من جانب العسكريين أو الموظفين المدنيين، ولإقتناعى بأن مثل هذا التغيير فى نظام أركان الحرب ضرورى للوصول إلى إدارة حسنة فى زمن السلم، ولتحقيق قيادة فعالة فى زمن الحرب، فقد إنتهيت إلى القول بأننى إذا لم يدخل نظام رئيس أركان الحرب فى الجيش البريطانى فسأقدم إستقالتى، وأدع لرئيس الوزراء أمر الاهتمام بتعيين رئيس آخر لهيئة أركان الحرب الامبراطورية، وقد وضع هذا حداً نهائياً للمناقشة وجرى التغيير، لكن الأمر إقتضانى السعى عدة أشهر لتحقيقه.

وبعد أن قضيت بضعة أسابيع فى وزارة الحربية إنتهيت إلى استنتاج أن ليست هناك سياسة واضحة فيما يتعلق بالبحث العلمى، وضرورة الإنتقال إلى مرحلة الإنتاج فى مدة معينة، فالآراء المتعارضة والتردد قد وضع هذه المسألة فى المرتبة الثانية، وقد أدركت أن من غير المجدى طلب المشورة فى هذا الموضوع من الرجال السياسيين، وبعد أن درست كل الوثائق المتصلة بهذه القضية، خلصت أن الجيش النظامى يجب أن يجهز تجهيزاً كافياً فى مهلة خمس سنوات، ١٩٥١، ليتغلب على الصعوبات الصغرى التى يمكن أن تنشأ، يضاف إلى ذلك أن المجموع المتوازن للجيش النظامى والجيش البرى يجب أن يكون فى مهلة خمسة عشرة سنة، ١٩٦١، لجهة العتاد وإعداد الجنود والذخائر والاحتياطى، مستعداً لمواجهة حرب عظمى،

وأن يحافظ فيما بعد على هذا المستوى، ولقد أحدث اتخاذ قرار حازم في هذه المسألة إرتياحا كبيرا لدى الجميع في وزارة الحربية، وأبلغت بالطبع رئيس الوزراء ووزير الحربية ولجنة رؤساء أركان الحرب بالتعليمات التي أصدرتها، ولم يكن هناك تعليق، وفيما بعد أبلغت الجنرال «إيزنهاور» ورؤساء أركان حرب جيوش الدومنيون بما فعلت فكانوا جميعا موافقين.

أما فيما يتعلق ببنية الجيش، فقد تحققت خطوة كبرى إلى الأمام، وانتهت أخيرا إلى استتاج أن ليس لدى الأوساط الوزارية والعسكرية في هوايتهم أية فكرة واضحة عن الطريقة التي يجب أن نخوض بها حربا واسعة النطاق، وفي مذكرة حول الدفاع عن الامبراطورية - كتبها قبل أن أصبح عضوا في لجنة رؤساء أركان الحرب - وصفت الشرق الأوسط بأنه إحدى مناطق إرتكازنا الرئيسية والأكثر حيوية، ولم يتقبل رئيس الوزراء «اتلي» هذه النظرية وقاومها أثناء الاجتماع الأول الذي شهدته، وبعد هذا الاجتماع، قلت لزميلي: إن على رؤساء أركان الحرب أن يضعوا دراسة عن الاستراتيجية الغربية في حرب عامة، ورفعها إلى رئيس الوزراء، فلم يقبلوا إقتراحى استنادا إلى نقص المعلومات الحاسمة حول قوة الأسلحة المقبلة، وإلى أن أركان حربهم ليس لديها الوقت لكتابة مثل هذه الدراسة فقلت عندئذ إننى سأخذ على عاتقى وسأقدم هذه الدراسة إلى وزارة الحربية بعد اسبوع، وقد كتبت الدراسة في اسبوع واحد، وأرسلت منها نسخا إلى قائد الأسطول الأعلى وإلى رئيس أركان حرب سلاح الجو، وعلى الرغم من أن كليهما لم يخالفاني إلا فى النقطة الأولى من هذه الدراسة، والخاصة بإقامة كتلة غربية متينة لحماية شعوب العالم الغربى وأراضيه وحضارته ضد غزو يأتى من الشرق، فقد رفضا أن ترفع المذكرة إلى رئيس الوزراء بوصفها صادرة من لجنة رؤساء أركان الحرب.

تلك كانت بداية الصراع الذى كان على أن أخوضه فى هوايتهول للوصول إلى تحديد للاستراتيجية البريطانية يشترك فى وضعه الجميع، وتلك أيضا كانت بداية إحتكاكات كثيرة داخل لجنة رؤساء أركان الحرب.

ونشأ خلاف هام فى لجنة أركان الحرب يتعلق بطريقة وضع خطط المستقبل، وكان رأى أن على رؤساء أركان الحرب أن يعطوا توجيهات كبرى لهيئة المخططين المشتركة، حين تدعى هذه الهيئة إلى درس المشاكل القائمة، وحين تتصل هذه المشاكل على الأخص باستراتيجية الحرب وسيرها، وكان زميلاي يريان أن الأفضل ترك الهيئة تعمل دون توجيهات ليتاح المجال على هذا النحو لوضع أفكارها الخاصة، وكان ردى أنه حين يتعلق الأمر بمشاكل تقتضى استخدام وحدات هامة من الجيش البرى وسلاح الجو والبحرية، فليس من المعقول أن يطلب إلى ضباط صغار أن ينصرفوا إلى العمل دون توجيهات مسبقة، وواجبنا هو على العكس أن ندلهم أين توجد وجهة الحل، على أن حججى لم تؤثر فى رئيس الأركان الآخرين، ولذلك لم تعط أعضاء هيئة المخططين المشتركة أبدا أى رأى رسمى، بيد أننى أبلغت زميلى أننى بوصفى رئيسا لأركان الحرب الامبراطورية سأعطى دائما ممثلى الجيش البرى المكلفين بوضع الخطة مع ممثلى الطيران والبحرية وجهة نظرى فى المواضيع المطروحة، وبما أن ممثلى السلاحين الآخرين لم يكونوا مطلعين على وجهة نظر رؤسائهم، فقد كان رأى وزارة الحربية هو الذى يسود بصورة عامة.

ويجدر أن تذكر أيضا نقطة خلاف أخرى، فعلى جانبى الأطلسى كان يسود الإهتمام بمعرفة إلى أين ستقودنا متاعبنا مع الروس؟، وأصبح واضحا فى مطلع شهر أغسطس ١٩٤٦، أن على البريطانيين والأمريكيين أن يضعوا مبدأ مشتركا، وكانت هناك محادثات جارية فى هذا الصدد مع الأمريكيين على الصعيد الدبلوماسى، ولكن لم يكن هناك بعد شىء نهائى على الصعيد الحكومى.

وذهب زميلاي في لجنة رؤساء أركان الحرب إلى أن علينا أولا أن نستعرض مشاكل الساعة العالمية، واستخدام هذا العمل المسبق كمدخل لبحث المشاكل التي يعتبر حلها أقل إلحاحا، وكان هذا هو أيضا رأى الأمريكيين كما اتضح من تبادل وجهات النظر بين الدبلوماسيين.

ولم أكن موافقا على ذلك، بل أوضحت أن من غير المنطقي النظر في العمليات المحلية، في منطقة البندقية أو في ألمانيا، أو في أى مكان آخر، خارج نطاق الاستراتيجية التي أعدناها إحتياطا لاحتمال نشوب حرب عالمية ثالثة، فالحروب المحلية قد تثير حربا شاملة، ولذلك يجب أن تكون خططنا المحلية داخلة في إطار واسع.

وبعد مناقشة طويلة إنتهت بإقناع القائد الأعلى للأسطول الذي وافق على وجهة نظر وزارة الحربية، وعندئذ تخلى قائد سلاح الجو الملكى عن معارضته.

وفى ١٩ أغسطس ١٩٤٦، أبحرت فيه من ليفربول إلى كندا لزيارة هذه البلاد وزيارة الولايات المتحدة أيضا.

وقد قمت بهاتين الزيارتين تلبية لدعوتين وجههما إلى المستر «ماكتزى كنج» باسم الحكومة الكندية، والجنرال «إيزنهاور» وكان القصد الأول تمكينى من رؤية هذين البلدين اللذين لم أكن أعرفهما بعد، واللذين كانت جيوشهما قد خدمت فى مناسبات مختلفة تحت قيادتى خلال الحرب، وبالطبع كانت هناك فى كلتا الزيارتين مواضيع أهم أنوى معالجتها، وبعد ذلك أتاحت لى الظروف فرصة تجاوز المجال المحدد أولا ومباشرة أعمال كانت تبدو فى بداية الرحلة خارج الموضوع تماما، وكنا قد واجهنا فى (أوتاوا) مسألة توحيد مستوى الأسلحة والعتاد وإجراءات العمليات بين بريطانيا وكندا والولايات المتحدة وقد أرسلت تقريرا إلى رؤساء أركان الحرب فى لندن مقترحا أن تدرس هذه المسألة الآن فى المراجع العليا من جميع وجوها

وسائلاً إن كان لدى هوايتهول إعتراض على أن أبحثها في واشنطن، ولدى وصولي إلى جسر تلقيت برقية تأذن لي بالمضي قدما في الطريق الذي اقترحته، لكن في جسر كانت أفكارى قد تجاوزت مسألة توحيد المستوى هذه، إذا أخذت في ذهني فكرة أن الوقت قد حان كي تتعاون بريطانيا العظمى وكندا والولايات المتحدة تعاوناً تصميمياً في جميع الميادين المتصلة بالدفاع، فالمباحثات يجب أن لا تقتصر على توحيد المستوى بل يجب أن تشمل كل ما له صلة بالتعاون والعمل المشترك في حالة نشوب حرب وقد أعلن رئيس وزراء كندا أنه موافق كل الموافقة على اقتراحاتي، وأذن لي أن أنقل هذا الموقف إلى رئيس الولايات المتحدة.

وصلت إلى الولايات المتحدة في ١٠ سبتمبر، ووافق «إيزنهاور» على أن الوقت قد حان لدراسة عمل مشترك والتخطيط له، لا فيما يتعلق بتوحيد المستوى فحسب، بل فيما يتصل بجميع وجوه الدفاع والاستعداد لكل الاحتمالات، وأن الألوان قد آن في رأيه لجعل رؤساء الدول يتدخلون.

وقابلت الرئيس في صباح اليوم التالي، وكنا وحدنا، فافتحت الحديث قائلاً: إن «إيزنهاور» وأنا نعتبر أن الوقت قد حان للدخول في مباحثات تتعلق بمشكلة الدفاع في مجملها وحدثته عن موافقة «ما كترى كنج»، وقلت له أخيراً إنه إذا تفضل رؤساء الدول بأن يعطوا موافقتهم فقط، فإن هيئات أركان الحرب ستصرف فوراً إلى العمل، فوافق الرئيس دون تردد.

وعلى هذا النحو إنتهت هذه الزيارة المكلفة بالنجاح بشكل ظاهر، وإلى أبعد ما يمكن لي أن أحلم به، فقد تجلّى أن رئيس الولايات المتحدة ورؤساء أركان الحرب الأمريكيين قبلوا- دون مناقشة- استمرار عمل جهاز أركان الحرب المشتركة.

والحقيقة أنني نجحت في فترة من الزمن لا تتجاوز بضعة أيام، في الحصول على موافقة رؤساء الدول، ورؤساء أركان الحرب لكل من كندا والولايات المتحدة

والمملكة المتحدة، بشأن إفتتاح مباحثات عسكرية على أساس واسع، مما قاد
الامبراطورية البريطانية والولايات المتحدة إلى توحيد سياستهما الدفاعية وخططهما
قبل أن تفرض عليهما حرب أخرى.

* * * *

الفصل الثامن والعشرون

رحلاتي فيما وراء البحار

في عام ١٩٤٧

خلال الحرب، توليت قيادة قوات من كندا وأستراليا ونيوزيلندا وأفريقيا الجنوبية وروديسيا الجنوبية والهند وكثير من المستعمرات، وعندما إنتهت الحرب تلقيت من حكومات هذه البلدان دعوات لزيارتها.

في مؤتمر بوتسدام، الذي انعقد في يوليو ١٩٤٥، تعرفت على المارشال «ستالين» الذي دعاني لزيارته في موسكو في موعد لاحق، ووافق رئيس الوزراء تشرشل على أن ألبى هذه الدعوة.

ووصلت إلى موسكو في ٦ يناير ١٩٤٧ على طائرة من طراز يورك تابعة لسلاح الجو الملكي، وكان في استقبال المارشال «فاسيليفسكي»، رئيس أركان حرب القوات الروسية، على رأس جمهور من المارشالات والمصورين والصحفيين.

وكانت أكثر لحظات زيارتي إلى موسكو إثارة حين تحدثت إلى «ستالين»، وقد جرى هذا الحديث في مكتبه بالكرملين في الساعة ١٧ من يوم ١٠ يناير، وهو آخر يوم من أيام إقامتي في روسيا.

ومن كل ما رأيت وسمعت نشأ لدى الإنطباع بأن روسيا في حالة سيئة، فالغزو الروسي قد أحدث فيها تدميراً هائلاً، وفي روسيا البيضاء دمرت القرى والمدن، وفي أوكرانيا كانت المعارك عنيفة والتدمير مريعاً، وهذه المنطقة التي تضم نحو ٦٠ بالمائة من إمكانات روسيا الصناعية قد خربت خراباً تاماً، وكان الطعام قليلاً، إذ أن موسم ١٩٤٧ كان ضعيفاً، وكانت ظروف السكن مرعبة، وكان إنطباعي أن الروس

منهكون، وليس الأمر مجرد تعب ناشئ عن الحرب، إذ قد قيل لى إن البلاد فى مجملها متعبة، وإنما أنا أقدر أن روسيا كانت عاجزة كل العجز عن الإشتراك فى حرب عالمية ضد ائتلاف قوى للدول الحليفة، وأنها كانت تعرف ذلك حق المعرفة، إنها تحتاج إلى وقت طويل من السلام لتنهض.

فى ٢١ يونيو ١٩٤٧، غادرت لندن بطريق الجو لزيارة أستراليا ونيوزيلندا بناء على دعوة من حكومتى هذين البلدين، وفى مؤتمر رؤساء وزارات الدومنيون عام ١٩٤٦ أعلنت أستراليا ونيوزيلندا أنهما تتمنيان أن تتحملا مسئولية أكبر فيما يتعلق بمسائل الدفاع فى المحيط الهادى، ولذلك كان لموقفى أثناء هذه الرحلة أهمية خاصة فى هوايتهول، ورأيت أن من واجبى أن أكون على أتم الاستعداد للتباحث مع حكومات الدومنيون.

اتخذت عدتى لزيارة الهند وأنا راحل إلى أستراليا لسبيين، أولهما بغية وضع منهاج انسحاب القوات البريطانية من هذا الجزء من العالم، وثانيهما بغية الوصول إلى اتفاق مبدئى للإستمرار فى استخدام وحدات الغوركا فى الجيش بعد أن تنال الهند استقلالها.

ووصلت إلى دلهى ظهر يوم ٢٣ يونيو، وبدأت المحادثات مع «نهر» و«جناح» بعد الظهر، وفى ذلك الحين كان مشروع التقسيم قد قبل، فلم تكن هناك صعوبات حول هذه النقطة الأولى، وكان «نهر» و«جناح» متفقين على أن يبدأ انسحاب القوات البريطانية فى ١٥ أغسطس ١٩٤٧، وهو موعد إنتقال السلطة، وأن ينتهى فى آخر فبراير ١٩٤٨.

وقد ناقش «نهر» وحده النقطة الثانية، فأثار عدة اعتراضات ولم يعلن موافقته النهائية إلا فى مساء اليوم التالى ٢٤ يونيو.

غادرت دلهى فى ٢٥ يونيو وطرت إلى سنغافورة مارا بسيلان حيث قضيت السهرة، وفى سنغافورة أطلقت شرارات أثارت ردود فعل غير حسنة، إذ قلت إننى أرى أن على القائد الأعلى للأسطول فى الشرق الأقصى أن يقيم مقره العام فى سنغافوره، مع زملائه قواد الطيران، بدلا من أن ينزل فى هونج كونج، وقد أعربت رسميا عن وجهة نظرى لرؤساء أركان الحرب فى لندن، وفى الوقت نفسه اطلع بحارة الإمبرالية عليها، وقد غضب وزير البحرية غضبا شديدا، وطلبت أن ترفع مسألة المكان الذى يجب أن يقوم فيه المقر العام البحرى إلى رئيس الوزراء لإتخاذ قرار بشأنها، وأخيرا ربحت القضية ونقل المقر العام البحرى فى الشرق الأقصى إلى سنغافورة، على كل حال كنت سعيدا بمغادرة سنغافورة فى ٣٠ يونيو.

وصلت إلى دارون فى ٣٠ يونيو وتوجهت إلى كانبرا فى اليوم التالى، أول يوليو، وكانت رحلتى تشمل على زيارة كل ولاية من ولايات أستراليا، وجرت لى محادثات طويلة مع أعضاء الحكومة الأسترالية الذين توثقت بينى وبين كثير منهم عرى الصداقة، وقد إستأثر بمحادثتنا موضوعان هامان، أولهما مقدار المسئولية التى تعتبر أستراليا نفسها على استعداد لتحملها فى تطور مشاكل الدفاع التى تثيرها سلامة منطقة المحيط الهادىء، ففى لندن كانوا يعتقدون أن أستراليا مستعدة لأن تأخذ على عاتقها فورا مسئولية رئيسية فيما يتعلق بمصالح الكومنولث الإستراتيجية فى المحيط الهادىء، ولكن سرعان ما اكتشفت أن هذا الافتراض غير صحيح، فالذى تريده أستراليا قبل كل شىء هو إنشاء جهاز مختص تستخدمه لتوسيع نطاق مسئوليتها بالتدريج، وكنت شخصا موافقا على وجهة النظر الأسترالية، وأبلغت لندن بذلك.

والموضوع الآخر يتعلق بمسألة تمثيل الأسلحة الثلاثة فى أستراليا كما كانت تمارسه بريطانيا العظمى، وفى هذا الموضوع كنت على خلاف كلى مع زميلى عضوى لجنة

رؤساء أركان الحرب البريطانيين، فحسب النظام القائم كان رؤساء أركان الحرب البريطانيين ممثلين في أستراليا بهيئة ثلاثية، وكل ممثل يتلقى من قيادة سلاحه في هوايتهول تعليمات خاصة، وكان الأستراليون مصممين على الوصول إلى إزالة هذا النظام، أى أنهم كانوا يريدون أن يكون لرؤساء أركان الحرب الثلاثة ممثل وحيد مع هيئة أركان حرب تشترك فيها الأسلحة الثلاثة وتعمل تحت إدارته، يضاف إلى ذلك أن هذا الممثل يجب ألا يكون عضواً في لجنة رؤساء أركان الحرب الأستراليين - كما كانت الحال بالنسبة لأعضاء الهيئة الثلاثية الحالية - ويجب ألا يحضر اجتماعاتهم إلا عندما تبحث مسائل تؤثر في المصالح البريطانية.

وكننت موافقا كل الموافقة على وجهة النظر هذه، ورفعت تقريراً بهذا المعنى إلى لندن، مصرأ على أن تقبل وجهة النظر الأسترالية، ولكنى أبلغت أن وزير البحرية ورئيس أركان حرب سلاح الطيران لم يكونا موافقين، وأن وزير الدفاع طلب إليه أن يفصل في الخلاف، وباختصار إنتهت القضية أخيراً وفقاً لوجهة النظر الأسترالية.

في ١٦ يوليو ١٩٤٧، غادرت أستراليا بطريق الجو ووصلت في اليوم نفسه إلى نيوزيلندا وتناولت المحادثات العسكرية بشكل خاص الطريقة التي ستمثل فيها نيوزيلندا في جهاز الكومنولث الدفاعي في هذا الجزء من العالم، وكان رئيس الوزراء يرغب في التعاون الوثيق مع أستراليا، ولكنه أضاف أنه يجب أن يكون للحكومة النيوزيلندية صوت فعال فيما يتعلق بتنفيذ السياسة المقررة، وأن التوحيد مع أستراليا يجب أن يكون على أساس المساواة.

وقبلت دعوة وجهت إلى لزيارة اليابان بطريق عودتى للإجتماع بالجنرال «ماك آرثر» والوقوف على وجهة نظره فيما يتعلق بهذا الجزء من العالم، لكن بينما كنت في نيوزيلندا تلقيت من لندن أنباء خطيرة عن أزمة اليد العاملة والصعوبات الاقتصادية، وعن التهجم الذي يتعرض له الجيش نتيجة تهربات الحكومة في الشرق

الأوسط على العموم وفي فلسطين على الخصوص، وتفيد هذه الأنباء أيضا أن «سمبسون» نائبي في رئاسة هيئة أركان الحرب الامبراطورية، يتلقى وحده غضب وزير البحرية ورئيس أركان حرب سلاح الطيران بشأن المسائل التي أثيرتها في سنغافورة وفي أستراليا، وكان ألمى يزداد لكل هذا، إذ كنت أخشى أن يكون له مضاعفات سيئة على الجيش إذا لم أكن موجودا هناك لاتخاذ جميع الإحتياطات، فرأيت أنه من الضروري أن أعود إلى إنجلترا بأسرع وقت ممكن، ولذلك ألغيت بأسف زيارتي لليابان وغادرنا نيوزيلندا في ٣١ يوليو، فقضينا يومين في سيدني لتوضيح بعض النقاط الغامضة، وعقدنا مؤتمرات في سنغافورة وفي مصر مع القائد الأعلى في كل منهما وعدنا إلى لندن في مساء ٨ أغسطس.

وفي منتصف شهر نوفمبر ١٩٤٧، غادرت لندن للقيام برحلة في أفريقيا تشمل البلدان الآتية: مراكش الفرنسية، جامبيا، شاطئ الذهب، نيجيريا، الكونغو البلجيكي، إتحاد جنوب أفريقيا، روديسيا الجنوبية، كينيا، الحبشة، السودان، مصر. وخلال هذه الرحلة جرت لي محادثات مع كثير من الناس من كل الفئات الاجتماعية وطرحت على أسئلة ذات صلة بالجيش، وتلقيت طلبات باتخاذ قرارات أو بإصدار توجيهات.

وقد ختمت رحلتى في أفريقيا بزيارة للقوات البريطانية في منطقة قناة السويس.



الفصل التاسع والحشرون غيوم سوداء فى سماء فلسطين

منذ زيارتى للمتوسط الشرقى فى يونيو ١٩٤٦ ، خلف «دمبسى» باجيت كقائد أعلى للشرق الأوسط ، وبقي باركر قائدا للقوات البريطانية فى فلسطين ، وقد إزداد الموقف فى هذا البلد خطورة .

وفى أواخر أكتوبر ١٩٤٦ ، فكر وزير المستعمرات «كريتش جونز» أنه إذا أطلق الإنجليز سراح زعماء الإرهابيين ، وعلقت أعمال التفتيش على الأسلحة ، فقد ينشأ جو أفضل ، بل قيل إننا إذا تصرفنا على هذا النحو ، فستخلى الوكالة اليهودية عن الإرهاب وتوجه نداء إلى جميع اليهود الواعين لمحاربته ، ونتيجة لذلك أفرج عن زعماء الإرهابيين المعتقلين جميعا فى مطلع تشرين الثانى ، وتوقفت التفتيشات للعثور على الأسلحة باستثناء ما يجرى منها أثر حوادث إرهابية جديدة .

وكانت نتيجة هذا التنازل من جانب حكومة العمال أن فرضت قيود متزايدة على القوات البريطانية فى فلسطين لجهة نشاطها فى سبيل المحافظة على النظام ، وفى هذه الأثناء استمر قتل الجنود البريطانيين وأفراد الشرطة الفلسطينية وجرحهم .

وقد أغضبنى هذا الوضع ، فإتخذت استعداداتى للتوجه إلى فلسطين بطريق الجو فى ٢٨ نوفمبر ١٩٤٦ ، وجرى لى مع رئيس الوزراء حديث عنيف فى هذا الصدد قبل سفرى ، وأعلنت أن من الأفضل أن انسحب من فلسطين إذا لم نكن عازمين على المحافظة على النظام وفرض إحترام القانون فيها ، وأضفت أننى لا أستطيع أن أقبل أن يقتل جنود بريطانيون شبان من أجل لا شىء .

وقد أحدث هذا التصريح ضجة كبرى ، وطلب منى رئيس الوزراء تقريرا سريعا فى الموضوع ، فتوجهت عندئذ إلى فلسطين .

وفى ذلك الحين كان المندوب السامى فى فلسطين، الجنرال السير «آلن كنتنجهام»، وفى ٢٩ نوفمبر عقدنا اجتماعا أنا و«كنتنجهام» و«دمبسى» فى القدس تدارسنا فيه الموقف العام، ولم نناقش العوامل السياسية العديدة التى تتداخل فى استخدام الجيش، لكن «كنتنجهام» اضطر إلى الإقرار من الوجهة العسكرية بأنه لم يكن هناك عمل عسكري مناسب فى فلسطين، وأن الجيش لم يقم بمساعدة قوة الشرطة على المحافظة على النظام وفرض احترام القانون بسبب القيود التى فرضت عليه، وكنت كلما أمعنت فى دراسة الوضع فى فلسطين إزداد استيائي منه، فقد كانت تحت تصرف المندوب السامى القوات الضرورية للمحافظة على النظام وفرض احترام القانون، أعنى الشرطة والجيش، فلم تستعمل أى من هاتين القوتين استعمالا صائبا، وهكذا أصبح المجهود العام غير فعال.

بيد أن المندوب السامى أعلن أن الوكالة اليهودية والهاغانا سيتهيان بشرط أن نمتنع نحن عن إتخاذ أية تدابير تنفيذية ضد الفوضوية، وكان يقدر أننا لا نستطيع السيطرة على الفوضى بواسطة عمل هجومي، وأنا إذا حاولنا أن نفعل ذلك فلن نصل إلا إلى تغير اليهود وزيادة الموقف خطورة، وبعبارة أخرى أننا لا نستطيع أن نحكم فلسطين إلا إذا خضعنا لليهود، فقلت: إذن فى هذه الحال، فلتترك فلسطين.

وحيث إننى كنت أجهل إلى أين يمكن أن تقودنا سياسة الحكومة فقد أصدرت الأمر برفض السماح بعد اليوم لعائلات العسكريين بالسفر إلى فلسطين، وبعد يوم واحد، إتبع المندوب السامى سياسة أكثر شدة مصدرا أمره بأن يغادر فلسطين على الفور جميع النساء والأولاد البريطانيين وجميع المدنيين البريطانيين الذكور الذين لا ضرورة لإبقائهم، وهكذا أصبح المجال مفتوحا الآن للقيام بعمل.

وعندما بلغ الصراع فى فلسطين ذروته، قامت منظمات لا شرعية مختلفة بهجمات كثيرة على الأشخاص وعلى الأبنية، حتى أن إحدى هذه المنظمات

وتدعى «عصابة شترن»، أرسلت أحد رجال الكومندوز إلى أوروبا وتمكنت من نسف السفارة البريطانية في روما.

وفي فبراير ١٩٤٧، قررت الحكومة رفع قضية فلسطين إلى الأمم المتحدة دون أية توصية بريطانية حول ما يمكن أن تقترن به هذه القضية من نتيجة، وعينت الأمم المتحدة لجنة كلفتها بأن تقدم إلى الجمعية العمومية في أول سبتمبر تقريراً لا يشمل على معلومات إيجابية حول قضية فلسطين فحسب، بل على إقتراحات أيضاً من أجل حل هذه القضية، وقد دافعت روسيا عن قضية اليهود وأصرت في وقت واحد على إنهاء الإنتداب البريطاني.

وإجتزنا في فلسطين فترة عصية خلال صيف عام ١٩٤٧ وأخذ يتضح أكثر فأكثر أنه أياً ما كان قرار الأمم المتحدة فالحكومة عازمة على التخلي عن الإنتداب وسحب جميع القوات البريطانية من فلسطين في أول أغسطس ١٩٤٨، لكن في ذلك الحين اقترعت الجمعية العمومية للأمم المتحدة في أواخر نوفمبر ١٩٤٧ لصالح تقسيم فلسطين بين اليهود والعرب، وكلفت لجنة لتعيين الحدود، وعلى أثر هذا القرار، أعلنت الحكومة البريطانية عزمها على إنهاء الإنتداب في ١٥ مايو ١٩٤٨، وإنجاز سحب القوات البريطانية في أول أغسطس التالي، وأخيراً جرى تعديل الموعد الأخير فقدم حتى أول يوليو.

وتدهور الموقف بسرعة في فلسطين ابتداء من ديسمبر ١٩٤٧، إذ أخذ اليهود يسعون لأن يضمنوا لأنفسهم كل ما يستطيعون أن يضمنوه من الإمتيازات التكتيكية أثناء الفترة السابقة لنهاية الإنتداب، أما العرب فلم يعمدوا فوراً إلى القيام بأعمال حربية، باستثناء جيشهم المسمى جيش التحرير، مكتفين بتجميع قواتهم النظامية، محاولين دون نجاح كبير الإتفاق على شكل القيادة في الكفاح المقبل، ومطلقين التبريدات لليهود عما سيحل لهم بعد ١٥ مايو ١٩٤٨.

وفي ١٥ مايو سلمنا الإنتداب على فلسطين إلى الأمم المتحدة، وسحبنا قواتنا سليمة في أول يوليو.

وكان من نتيجة اضطرارنا لمغادرة فلسطين إضعاف مركزنا الاستراتيجي في الشرق الأوسط، وبصورة عامة إضعاف المركز الاستراتيجي للعالم الغربي في الصراع بين الشرق والغرب.

وفي ذلك الحين فقدنا الهند التي قسمت إلى قسمين ، وكنا على وشك أن نطرد من مصر.

وقد بات ذا أهمية أكثر من أي وقت مضى أن يكون لنا الآن مركز متين في السودان وفي ليبيا، وهذا ما لم أكف عن الإشارة إليه للسادة الوزراء .

* * * *

الفصل الثلاثون

أصبحت مصدر إزعاج في هوايتهم

فى سبتمبر ١٩٤٦، أصبح واضحاً أنه لابد من اتخاذ تدابير صارمة إذا نحن أردنا أن نسيطر على الموقف الذى يزداد خطورة نتيجة السرعة التى تتم بها عملية التسريح منذ إنتهاء الحرب، وكان فرض الخدمة العسكرية الإجبارية فى زمن السلم ضروريا ولا غنى عنه، وقد أملت الحكومة فى أن تتضاءل إلتزاماتنا العسكرية حالما تنتهى الحرب، ولكن لم تكن هذه هى الحال، فنحن على ما يبدو سنبقى بعض الوقت فى منطقة البندقية وفى اليونان، وكانت فلسطين تحيا فى حالة من الاضطراب الذى يبعث على القلق، ومصر فى غليان بسبب التأخر الذى طرأ على مفاوضات المعاهدة، وهناك اضطرابات تهدد المنطقة البترولية فى الخليج الفارسى، ويتظر نشوب منازعات داخلية فى الهند. ولم يكن التطوع ليوفر أعداد الجنود التى نريدها، فالخدمة فى الجيش لم تكن يوما عملا ذا شعبية وخصوصا على أثر إنتهاء حرب من الحروب.

ولدى عودتى من أمريكا فى سبتمبر ١٩٤٦، خلصت إلى أن التفاهم مع الحكومة بشأن مسألة أعداد الجنود كلها أصبح أمرا لابد منه، ويجب أن يشمل هذا التفاهم الخدمة العسكرية الإجبارية، العملية والإحتياطية، ومقدار سرعة التسريح فى المستقبل، ولم يكن زميلاي فى لجنة رؤساء أركان الحرب يهتمان بهذا الموضوع إهتماما كافيا حتى يدرسناه.

على أن هذا لم يشبط من عزيمتى، فقدمت فى أكتوبر ١٩٤٦ إلى لجنة رؤساء أركان الحرب دراسة شاملة تثبت حاجة الجيش الملحة إلى الخدمة العسكرية الإجبارية

فى زمن السلم، وبعد مناقشات كثيرة رفعت دراستى إلى الحكومة مع ملاحظة تقول إنه على الرغم من أن هذه الدراسة لا تتناول إلا الجيش البرى، فإن مبدأ الدعوة إلى الخدمة يجب أن يطبق بصورة متساوية فى الأسلحة الثلاثة، ومهتت الحكومة المشروع بموافقتها.

وفى مطلع مارس ١٩٤٧، أودعت الحكومة مكتب المجلس مشروع القانون القاضى بالخدمة الوطنية، وهو يجسد كل مقترحات وزارة الحرية، وقد أقر البرلمان مشروع الخدمة الوطنية، واقرن هذا المشروع بالموافقة الملكية فى يوليو ١٩٤٧، ودخل حيز التنفيذ فى أول يناير ١٩٤٩، فمنذ هذا التاريخ كان يجب على جميع المدعويين للخدمة العسكرية أن يقوموا بها مدة سنة ثم يقضوا ستة أشهر فى الإحتياطى أو فى القوات الإضافية مع فرض فترات من التدريب عليهم، ويقضى القانون بأن تخفض بالتدريج مدة خدمة المدعويين بين أول يناير ١٩٤٨ وأول يناير ١٩٤٩ من ستين إلى سنة واحدة، وقبلت وزارة الحرية بكل هذا بشرط قيام سلام كامل.

لكن مع الأسف جاء شتاء ١٩٤٧ - ١٩٤٨ يحمل تعقيدات خطيرة فى الموقف الدولى بلغت ذروتها بحصار برلين الغربية الذى بدأ فى ٢٤ يونيو ١٩٤٨، وأصبح واضحاً أن شرط السلام الكامل لن يتوفر قبل وقت طويل، وقد يستمر إختيار القوة على كل حال طوال السنة المقبلة على الأقل.

فما العمل إذن بأزمة أعداد جنودنا؟

لقد كان جواب الحكومة على هذا السؤال أنها إقترحت أن تتوقف جميع التسريحات مدة ستة أشهر.

وفى رأى أن هذا لابد أن يؤدى إلى موقف غير معقول، فمن غير المنطقى أن نفرض هذا التدبير، وأن نطبق فى الوقت نفسه فى أول يناير ١٩٤٩ قانون الخدمة

الوطنية، فمن الناحية القانونية يترتب على المواطن الذى يدعى للخدمة فى ٣١ ديسمبر ١٩٤٨، أن يقوم بها سنتين، بينما لا يترتب على المواطن الذى يدعى بعد يوم واحد، أى فى أول يناير ١٩٤٩، إلا خدمة سنة واحدة.

والطريقة العملية الوحيدة لحل مشكلة الجيش هى ربط التسريعات بدورة مدتها ستان من خدمة العلم الوطنية إلى أن يتسنى لنا أن نرى الأمور بوضوح أكثر، وقلت لرئيس الوزراء أن ما يريده الجيش قبل كل شىء هو الاستقرار، فمسألة أعداد الجنود لا يمكن أن تحل بصورة مرضية كليا إلا بإنشاء خدمة وطنية مدتها ستان ابتداء من أول يناير ١٩٤٩، فيتحتم على الحكومة أن تعدل قانون الخدمة الوطنية وفقا لذلك.

وقد خلصت إلى الاعتقاد بأننا لن نتوصل إلى حمل الحكومة على القبول بأن ترفع مدة خدمة العلم الوطنية إلى سنتين، وإنما نستطيع أن نقدم مشروعا يحدد هذه المدة بثمانية عشر شهرا فلا يمكن الاعتراض عليه، ونسعى لإقراره.

وفى ٩ أكتوبر ١٩٤٨، جمعت الأعضاء العسكريين فى مجلس الجيش وسألتهم إن كانوا مستعدين للإستقالة من وظائفهم كجسم واحد أكون أنا على رأسه، إذا قررت الحكومة أن تكون مدة خدمة العلم الوطنية أقل من ثمانية عشر شهرا؟ فوافق الجميع على ذلك، وأبلغت ذلك لوزير الحرية، المستر «إيمانويل شنويل»، الذى بدا عليه القلق بعض الشىء، وكان عليه بالطبع أن يبلغ رئيس الوزراء أنه فى سبيل خسارة مجلس جيشه، وكان الأمر ملحا، إذا أن قانون الخدمة الوطنية سيدخل حيز التنفيذ بعد أكثر من شهرين بقليل، وقد راهنتى أحد أعضاء أركان حربى على شلنين ونصف، على أن الحكومة ستتخذ قرارها فى أول نوفمبر، وكان على فى هذا التاريخ أن أترك وزارة الحرية لأترأس لجنة القواد العاملين للإتحاد الغربى، وكنت أعتقد أن الحكومة ستتظر ذهابى وتقرر عندئذ فترة السنة الواحدة للخدمة الوطنية

لعلمها أن الأميرالية ووزارة الطيران لن تثيرا على ذلك إلا قليلا من الاعتراض، وقد ربح الشلن ونصف الشلن، إذ لم تتخذ الحكومة قرارها إلا في آخر نوفمبر، لكن في هذه الأثناء وضعت بين يدي خليفتي «بيل سليم» كل معطيات المشكلة فاستطاع أن يحصل على قرار يجعل مدة الخدمة ثمانية عشرة شهرا، ولا أعلم أن كان قد هدد بالاستقالة من منصبه.

أما وقد قلنا هذا كله، فمن الإنصاف أن نمتدح شجاعة حكومة العمال التي قدمت في زمن السلم مشروع القانون بإنشاء الخدمة الوطنية على الرغم من المعارضة القوية التي كانت تظهر في قلب حزب العمال نفسه، فلقد استطاع «إتلي» و«بيفن» أن يقرأ المشروع من أجلنا.

في مطلع شهر أغسطس ١٩٤٧ أعلن وزير الدفاع المستر «الكسندر»، أن رئيس الوزراء يرغب في أن تبحث على الفور إمكانية تخفيض أعداد الجنود في أجهزتنا المقاتلة، وكان رئيس الوزراء يقول إن النفقات الإجمالية لتدابير الدفاع يجب أن تنخفض إلى ٦٠٠ مليون جنيه استرليني، وقد شجبت وزارة الحربية بقوة هذه الطريقة في التخفيضات الاعتباطية، وقلت: إننا لا نستطيع في أية حال قبول هذا الأسلوب في تخفيض مجموع النفقات.

ومع ذلك فإن وزارة الدفاع أمرتنا بأن ننصرف إلى العمل على أساس أنه من المحتمل أن يكون الحد الأقصى لمجموع نفقات القوات المسلحة ٦٠٠ مليون جنيه، وأن علينا أن نتأكد من أن تجاوز هذا الحد المالي يتضمن مجازفات كبيرة.

وعلى هذا الأساس تقيد رؤساء أركان الحرب بهذه التوصيات مع الإحتجاج الشديد.

وبلغ الوضع درجة من الخطورة رأيت معها أنه لا بد من إعادة تكييف الجيش البريطاني والعمل على أساس فكرة الجيش الوطني، والجيش النظامي والجيش البري

يجب أن يشتمل كلاهما على جنود يأتون من الجيش المحترف والجيش الوطني، مع عنصر متطوع فيما يتعلق بالجيش البري، وما ينقص الجيش العامل يؤمنه له الجيش البري عند التعبئة، فيجب أن يصهر الجيشان بحيث يشكلان معا جيشا وطنيا متوازنا. وكان المستر «شنويل» قد جاء إلى وزارة الحربية، حيث جرى التعديل الوزاري في أكتوبر ١٩٤٧، وكانت التوصية بشأن هذا الجيش النموذجي الجديد أول توصية قدمتها إليه، فقبلها.

وفي مطلع يناير ١٩٤٨، وزع وزير الدفاع مذكرة ذكر فيها أن مجموع موازنة الدفاع لعام ١٩٤٩ - ١٩٥٠ سيكون ٦٠٠ مليون جنيه، وطلب أن يخول توزيع هذا المبلغ وفقا للأفضليات التي سبق أن عرضها في البرلمان في ٢٧ أكتوبر ١٩٤٧. وقد احتججت بشدة على هذا التمييز طالبا ألا تستعمل كلمة أفضلية عندما يتصل الأمر بتوزيع المخصصات بين الأسلحة الثلاثة، وقد ربحت القضية في هذا الصدد، إلا أن وزير الدفاع أنبأني في ١٤ يناير أن حصة الجيش من المبلغ الإجمالي هو ٢٢٢ مليون جنيه، وأن أعداد الجنود ستكون كما يلي:

١٨٥٠٠٠ جندي في الجيش المحترف، بمن فيهم النساء.

١٠٥٠٠٠ جندي في الخدمة الوطنية.

وقد استتبع هذا عمليات بتر جديدة حادة في نظام وحدات الجيش، ورفضنا قبول الرقم ١٨٥٠٠٠ الإجمالي للجنود النظاميين، ذاهبين إلى أنه يجب أن يكون ٢٠٠ ألف، فتمت الموافقة على ذلك، ونشر كتاب أبيض لوزارة الدفاع في شباط ١٩٤٨، وكان علينا عندئذ أن نضع تصميم الجيش للعام ١٩٤٩ - ١٩٥٠ والسنوات اللاحقة على أساس الأرقام المذكورة أعلاه.

وفي خلال الفترة الممتدة من شهر أغسطس ١٩٤٧ إلى شهر فبراير ١٩٤٨، كنت أحتج على الدوام مظهرا استحالة حصولنا على جيش يبعث على الرضا

بالاعتمادات والأعداد المخصصة، نظر لالتزاماتنا، فنحن سائرون إلى وضع لن يسمح للبلاد بأن تكون لها قوة مقاتلة فعالة ذات حجم كبير إذا تطلبت الأحداث ذلك، والجيش يتدهور تدريجيا، ففي أول يناير ١٩٥٠ لن يكون ثلث الجنود في الجيش العامل إلا في الثامنة عشرة من العمر، مع أقل من سنة من الخدمة في ظل العلم، وستضعف الوحدات المقاتلة إلى حد بعيد بانضمام جنود غير ذوى علم كاف إليها، وكان هذا وضعاً لا يمكن قبوله على الإطلاق.

وفي أشهر عام ١٩٤٨ الأولى، ساء الوضع الدولى بالتدريج وباستمرار، وبدأ حصار برلين الغربية في ٢٤ يونيو كما سبق أن ذكرت.

يبد أن الحكومة أقرت بأنه يمكن اتخاذ ترتيبات لجعل القوات المسلحة في أفضل وضع ممكن في حالة الحرب، بشرط ألا تتضمن هذه الترتيبات أية دعاية ولا تستتبع مضاعفات جدية على اقتصاد البلاد، وكان هذا أمراً لا يمكن تطبيقه، إذ لا يمكن عملياً أن يتحقق شيء دون دعاية أو دون نفقات إضافية في النقود وفي المواد.

عندما جئت إلى وزارة الحربية في يونيو ١٩٤٦، لم ألبث أن اكتشفت أن لجنة رؤساء أركان الحرب لم تعد ذلك الجهاز الفعال الذى كان فى الماضى، فذهب الجنرال «إيسماي» والسير «آيان جاكوب»، وأعضاء بارزين عديدين من أركان حربهما قد أضعف أمانة سر تلك اللجنة إضعافاً كبيراً.

فقد أظهر المستر الكسندر «أولا»، على الرغم من أنه كان وزير البحرية زمناً طويلاً، أنه غير قادر كلياً، على الاضطلاع بمهام وزير الدفاع، لقد كان وجهها تافهاً فى البرلمان خلال المناقشات التى دارت حول قانون الخدمة المدنية، ولم يعط فى أى وقت من الأوقات الانطباع بأنه يفهم مشاكل الدفاع الامبراطورى وطريقة معالجتها.

أضف إلى ذلك أنه لم يكن بين رؤساء أركان الحرب أنفسهم أى انسجام ولا أية ثقة متبادلة، وكان الذنب ذنبى إلى حد كبير، فقبل أن أتسلم مهام عملى وبعد أن تسلمت منصبى، قمت برحلات كثيرة وزرت نقاط الاضطراب وبحثت المشاكل الأساسية، وشرحت كل ما بدا لى مغلوطا، وأبرقت إلى معاونى فى وزارة الحرية بالتعليمات الضرورية لكى يعالج الأمر على الفور فى هوايتسهول، ولم تكن هذه الطريقة طريقة زميلى، بل كانا يكتفيان بترك الأمور تجرى فى مجراها بهدوء ولا يهتمان إلا بالمشاكل التى تحيلها إليهما أمانة سر وزارة الدفاع، ثم يتقيدان، بعد الدرس، برأى هيئة أركان الحرب المشتركة للأسلحة الثلاثة، وبما أن هذه الهيئة مؤلفة من مدراء التصميم فى الوزارات الثلاث، الحرية والبحرية والطيران، فقد كانت التقارير التى تسفر عن ذلك تضمن دائما توصية قائمة على تسوية، وكانت نتيجة مثل هذا الإجراء اعطاء هيئة أركان الحرب المشتركة صلاحية ليست لها ولا يمكن أن تكون لها، فأحيانا كان يطلب إلى أعضاء هذه الهيئة حل مشاكل كان رؤساء أركان الحرب أنفسهم عاجزين عن أن يصلوا بشأنها إلى اتفاق.

وكان ضميرى يثور ضد هذه الطريقة فى العمل، وأخشى أن أكون قد أظهرت ذلك بجلاء، ولم يكن زميلاي يبديان أفكاراً جديدة، إلا فى النادر، بل كانا يتظران أن تأتیهما هذه الأفكار من أمانة السر، ولذلك لم يكونا يتقبلان الأفكار التى أتقدم بها بقبول حسن، ولم يخفف من استيائهما أن مقترحاتى كانت فى نهاية المطاف تقبل غالبا.

وقد درجت على عادة الإصرار بأن ترفع كل مسألة أراها هامة بالفعل إلى رئيس الوزراء لاتخاذ قرار نهائى بشأنها، وكان هذا القرار فى أكثر من حالة يجىء متفقا مع توصيتى.

وعندما أعود بالذاكرة إلى تلك الفترة، أستطيع أن أذكر ثلاثة أسباب رئيسية كانت هي وراء افتقار لجنة رؤساء أركان الحرب إلى الإنسجام والفاعلية:

١ - وجود وزير دفاع تافه.

٢ - وجود أمانة سر ذات مستوى أدنى من مهمتها في الوزارة.

٣ - عدم توافق أمزجة رؤساء أركان الحرب الثلاثة.

وفي مارس ١٩٤٨، خلصت إلى الاقتناع بأن الموقف أخطر من أن يسمح بأى تأخير جديد، فكتبت مذكرة أوصيت فيها بأن تدرس لجنة وزارية تنظيمنا المتعلق بالدفاع في هوايتهول، وأرسلت منها نسختين بصورة غير رسمية إلى رئيس الوزراء وإلى وزير الدفاع، وطلبت منهما الإذن بتقديم هذه المذكرة إلى لجنة رؤساء أركان الحرب، فقد كان من شأنها أن تحدث ضجة في هوايتهول، ولم أشأ أن تكون مفاجأة للحكومة، فأجابني المستر «إتلى» في اليوم نفسه موافقا على ما طلبت.

والمذكرة مؤرخة في ١٦ مارس ١٩٤٨، وهذه هي:

١ - إننى أرفع الآراء التالية بشأن لجنة رؤساء أركان الحرب وبشأن تنظيم جهاز الدفاع الذى نعتمده.

٢ - أن لجنة رؤساء أركان الحرب، وهى لجنة فرعية منشقة عن لجنة الدفاع الامبراطورية قد أنشئت عام ١٩٢٤ بغرض تسيه الحكومة تسيها جماعيا وأفراديا.

وبعد عشر سنوات أثبتت أنها أداة مفيدة لإجراء استشارات مشتركة بين الأسلحة الثلاثة على مستوى عال، فى وقت الأزمة، ولبحث الشؤون اليومية الأقل أهمية، ولكنها خييت، بشكل ظاهر، الآمال الكبار المعلقة عليها.

٣ - والعلاج الذى اقترحه اللورد «ترنشارد» فى عام ١٩٣٥ يتلخص فى وضع شخصية وزارية بصورة دائمة على رأس لجنة الدفاع الامبراطورية، تتأس

بانتظام اجتماعات لجنة رؤساء أركان الحرب الفرعية، على أن يكون لهذا الوزير سكرتير دائم للجنة الدفاع الامبراطورية، وهيئة أركان حرب مستقلة تتألف في معظمها من ضباط لهم مستقبل يؤخذون من الأسلحة الثلاثة، وهذه الاقتراحات لم تقبل على ما أعلم، رغم أنه ظهر فيما بعد أن من الضروري تعيين وزير مكلف على الأخص بتنسيق تدابير الدفاع ومخول بأن يدعو إلى الاجتماع من حين لآخر لجنة رؤساء الأركان الفرعية للاستشارة.

٤ - إن نظام تعيين وزير مكلف بتنسيق تدابير الدفاع استمر خلال الحرب حتى أبريل ١٩٤٠، حين أقيمت على عاتق المستر «تشرشل» وزير البحرية مسئولية خاصة مع صلاحية إعطاء توجيهات للجنة رؤساء الأركان، ودعوتها لهذا الغرض في أي وقت للاستشارة، وقد عدلت هذه الترتيبات عندما أصبح المستر «تشرشل» رئيسا للوزراء، إذ أصبح أيضا وزيرا للدفاع، وبهذه الصفة أخذ يترأس اجتماعات لجنة الدفاع التي يحضرها بانتظام وزراء الأسلحة الثلاثة ورؤساء أركان الحرب، وكان وزير الدفاع يترأس أيضا في زمن الحرب اجتماعات رؤساء أركان الحرب، وكان له في هذه اللجنة ممثل خاص.

٥ - ما من شك في أن الترتيبات التي اعتمدها المستر «تشرشل» في زمن الحرب كانت فعالة، فكانت شئون الإستراتيجية العليا وخط سير العمليات تعالج بسرعة دون أن يسعى رؤساء أركان الحرب إلى إزالة الاختلافات الأساسية.

والكتاب الأبيض الصادر في تشرين الأول ١٩٤٦ يعترف بهذا بوضوح، مع إظهاره نقائص النظام الذي استمر في زمان السلم وحتى نيسان ١٩٤٠، وغرض

هذا الكتاب الأبيض الحز على إنشاء نظام لزمان السلم يكفل توحيد سياسة الدفاع، ولذلك دعا إلى تعيين وزير دفاع مستقل، تشبه علاقاته مع رؤساء الأركان، تلك التي كان المستر «تشرشل» قد حددها في نيسان ١٩٤٠.

٦ - والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو ما إذا كانت الترتيبات التي دعا إليها الكتاب الأبيض عام ١٩٤٦ وطبقت قد أدت غايتها الرئيسية التي هي ضمان توحيد سياسة الدفاع؟، أما أنا فلا أتردد في التأكيد أن هذه الغاية لم تتحقق، وسأعرض فيما يأتي أسباب هذا الفشل.

٧ - وأبدأ بالحقيقة البديهية السافرة التي تقول إن الحرب والسلم أمران مختلفان، وإن كان السلم في الواقع حرباً باردة، ففي زمن السلم تكون حاجات الأسلحة الثلاثة من الرجال والمال والعتاد، حاجات محدودة بالضرورة وعلى الرغم أنه من البديهي القول إن مبلغاً أدنى لنفقات الدفاع الوطني يجب أن يكون أول ما تقتطعه الدولة من مواردها، فإنه ليحدث في حالات نادرة جداً أن تعطى الأسلحة الثلاثة مجتمعة ما تعتبره منفردة كحد أدنى لا بد منه، ويحدث هذا على الأخص حين لا يكون لدى الدولة ما يكفي من المواد الأولية، واليد العاملة والموارد الآتية من الخارج لتحافظ على سير حياتها، وهذا التضيق يتجلى أقل بكثير في زمن الحرب، لأن حاجات الدفاع حيث يجب أن يكون لها الأفضلية على جميع الحاجات الأخرى باستثناء حد أدنى من المواد الغذائية والملابس للمحافظة على حياة السكان المدنيين وصحتهم وإنتاجهم، ومن المحتمل إذا اعتمدت بريطانيا فقط على مواردها الخاصة وخصوصاً تلك التي ترددها من صادراتها، ألا تكون قادرة أبداً على خوض الحرب بالمقدار الذي نريده من الزخم والعزم والشدة.

ولكننا في الحربين الأخيرتين الكبيرتين تلقينا مساندة ضخمة هي مساندة قوة الولايات المتحدة الإنتاجية وعزمها الصادق، ولذلك يمكننا القول أن القليل من

طلباتنا العسكرية قد صرف عنه النظر منذ البداية باعتباره غير مبرر، وفي هذه الظروف أمكن لرؤساء أركان الحرب أن يتوصلوا بسهولة إلى الاجماع بإقرارهم صحة طلبات زملائهم، ولم تختلف آراؤهم إلا بشأن أى من هذه الطلبات تكون له الأفضلية.

٨ - فى الفترة التى توجد فيها تحديدات منذ البداية تسود اعتبارات مختلفة جدا، فرؤساء الأركان الثلاثة هم - مهياً - على رأس أسلحتهم الخاصة، أنهم ليسوا فقط مستشارى الحكومة فيما يتعلق بالاستراتيجية والتكتيك، ولكن كلا منهم هو أيضا المدافع عن مصالح سلاحه الحاضرة والمقبلة وحامى آفاق المستقبل لأعضاء هذا السلاح إلى حد ما، فكل منهم يكافح بصورة طبيعية لقضيته الخاصة ولا يتنازل عن شىء، وأحد الثلاثة هو رئيس اللجنة، وهى مهمة عاكة لرئيس أركان حرب، إذ مطلوب منه أن يكون رئيسا حياديا عما هو بشريا مستحيل لأنه يميل إلى فرض رأيه الخاص على الآخرين.

٩ - وهكذا نصل إلى الوضع الذى وصفه اللورد «ترنشارد» عام ١٩٣٥، وأنى أرى أن هذا الوصف ينطبق حرفيا على وجه التقريب على الظروف الحالية.

١٠ - ومع ذلك فأنا لا أرى أن العلاج موجود فى اقتراح اللورد «ترنشارد»، أى فى تعيين شخصية وزارية تترأس على الدوام لجنة رؤساء أركان الحرب وإنما أرى أن ما نحتاج إليه هو اعتماد طريقة تزود وزير الدفاع برئيس أركان حرب لا يكون ضابطا بالضرورة، فمثل هذا التدبير يدفعنا خطوة كبيرة إلى الامام نحو هدفنا النهائى، ورئيس أركان حرب وزير الدفاع هذا يكون حكما الرئيس الدائم للجنة رؤساء أركان الحرب.

١١ - إن ما يحتاجه وزير الدفاع هو أن تقدم إليه هيئة رؤساء أركان الحرب خطة

دفاع منسجمة يدرسها ثم يوصى بها الحكومة، وهذه الخطة يجب أن:

أ - تبقى فى حدود الموارد التى تكون الحكومة على استعداد لتخصيصها للدفاع.

ب - تحدد بوضوح ودون إلتباس الحصة التى تعود إلى كل من الأسلحة الثلاثة والهيئات المدنية المتصلة بها.

ج - تكون متلائمة فى عناصرها المختلفة.

على أن وزير الدفاع لا يمكنه فى الوقت الحاضر أن يحصل على شىء من اللجنة فيما يتعلق بوجوه سياسة الدفاع الأبعد مدى، لأن آراء رؤساء أركان الحرب الثلاثة مختلفة إلى حد أنهم يلجأون إلى موقف الامتناع دون أن يضعوا أى تقرير، أو يقدموا توصيات لا طعم لها ولا تؤدى إلى أية غاية.

وكان يمكن الوصول إلى نتيجة ما لو أن رؤساء أركان الحرب يقدمون إلى وزير الدفاع بياناً مشتركاً يعرض خلافاتهم، ولكن الحاجة إلى أكثر من هذا، فوزير الدفاع يحتاج إلى الإنتهاء من المناقشات العقيمة فى لجنة رؤساء الأركان، وعليه أن يحصل على خطة تقف على قدميها وتكون قابلة للتحقيق ويسهل شرحها للرؤساء الذين سيتخذون بشأنها القرار.

وإذا كان لوزير الدفاع رئيس أركان حرب هو فى الوقت نفسه رئيس للجنة رؤساء أركان الحرب لأمكنه فى كل الأحوال الحصول على الأمرين التالين:

أ - عرض بعيد عن الهوى لجميع وجهات النظر المتعارضة.

ب - خطة تأخذ بعين الاعتبار حدود الموارد، خطة معقولة ومتوازنة ولا تتعارض إلا بأقل قدر ممكن مع توصيات كل من الأسلحة الثلاثة.

١٢ - إننى أدرك أنه ليس من السهل العثور على رئيس أركان الحرب المثالى
لوزير الدفاع، ولكن هذا لا يؤثر فى المبدأ بأية صورة، إن علينا أولا أن
نقرر إن كنا نقبل المبدأ وإن كان مثل هذا التعيين ضروريا، ويمكننا فيما بعد
أن نجد الرجل، ويكفى لكى يؤدي المهمة التى تقع على عاتقه أن تكون له
خبرة عملية واسعة بالحرب الحديثة، وأن يكون قد تولى قيادات عليا، وأن
يتقبل الأفكار الجديدة.

١٣ - إننى مقتنع بأن علينا أن نبدأ بالقيام ببعض التقدم نحو إيجاد توازن لقواتنا،
وقريبا ينقضى على انتهاء الحرب العالمية الثانية ثلاث سنوات، فنحن لم نتلكأ
عن التقدم فحسب، بل كان لدينا ميل إلى أن نرجع القهقرى.

١٤ - لقد أنشأ كل سلاح فى داخله نظاما يحتاط للإختصاص الذى يحتاج إليه
ويضمن وحدة الاتجاه بصورة عامة، ولكن الواقع أننا لم نتوصل إلى أن
نوجد للأسلحة الثلاثة مجتمعة نظاما شبيها بالذى أوجده كل سلاح لنفسه،
إن الاختصاص قائم، هذا صحيح، ولكن ما ليس موجودا هو هذا
الترباط على مستوى أعلى، وهو وحده الذى يؤمن لنا الحذق الاستراتيجى
الذى نسعى إليه.

١٥ - إن هناك أسبابا كثيرة يجب علينا من أجلها ألا نتسامح فى استمرار هذا
الوضع.

أولا: إن مهمات الأسلحة الثلاثة ليست متباعدة إلى الحد الذى إعتدنا أن نظنه،
فالأسطول لديه طائرات، وسلاح الجو يوجه جزءا كبيرا من جهوده نحو تخطيط
جيش العدو ونحو نقل جيشنا، والأسلحة الثلاثة تخوض العمليات باسم واحد حين
يكون الموضوع موضوع غزو.

ثانياً: إن تقدم الإكتشافات العلمية أوجد أفكاراً وأسلحة لا تتفق مع صورة الأسلحة الثلاثة مستقلة بعضها عن بعض، إنها تجنح إلى توحيد العمليات الحربية، وقد أصبح من المهم أكثر من أى وقت مضى أن تتولى عقول موضوعية تطبيق العلم على الحرب.

ثالثاً: إن أمتنا فى موقف عصيب جداً، ولا نستطيع أن نسمح لأنفسنا وقتاً أطول بممارسة ترف الجمع بين أعمال متعددة، ولا بالتبذير الناشئ عن إضافة طلبات الأسلحة الثلاثة بعضها إلى بعض.

١٦ - إننا بحاجة إلى تصميم موحد للدفاع، وليس الأمر فقط أن ليس لدينا مثل هذا التصميم الآن، بل ليس لنا أى أمل بأن يكون لدينا تصميم فى ظل نظامنا الحالى.

١٧ - إننا بحاجة إلى تحقيق تقدم فيما يتعلق بجعل قواتنا الوطنية متوازنة، ونحن لم نحقق أى تقدم.

١٨ - إننا بحاجة إلى نظام فعال للقيادة، وللإشراف على مختلف الميادين فى زمن السلم يجعلنا قادرين على توثيق جهودنا وتنمية إمكانياتنا إلى الحد الأقصى دون أن نخشى أن يتخلخل هذا النظام بالتعديلات الناشئة عن الأخطار الخارجية، وليس لدينا الآن مثل هذه النظام.

١٩ - إننى أوصى بأن تدرس لجنة وزارية الموضوع فى مجمله ودون تأخير. وفى اجتماعات مختلفة ناقشت هذه المذكرة مع زميلى ، وسرعان ما اتضح أن أية مناقشة داخل لجنة رؤساء أركان الحرب لن تؤدي إلى تسوية الخلافات فى رأى القائمة حول هذا الموضوع، وكنت الوحيد الذى يريد أن يدرس تنظيم الدفاع، أما رئيساً الأركان الآخرين ورئيس أركان وزير الدفاع ، فقد كانوا ضد مثل هذا الدرس، أو ضد أى تعديل للنظام، واتفقنا أخيراً على أن

يرفع رئيس أركان الطيران بوصفه رئيسا للجنة، المسألة إل وزير الدفاع لاتخاذ قرار فيها، ففعل فى ١٤ أبريل ١٩٤٨ .

وجاء رد الوزير بعد خمسة أيام، وقد احتوى وراء الرأى الذى أعرب عنه وزير البحرية ورئيس أركان الطيران، وهكذا انتهت محاولتى للحصول فى هوايتهول على تنظيم سليم للدفاع الوطنى، ولكنتى نجحت على الأقل فى طرح الموضوع والدفع إلى درسه وفى تسجيل القرار رسميا.

وفى عام ١٩٥٥، شرعت حكومة «إيدن» فى تحسين جهاز هيئة الدفاع الوطنى بعض الشئ، لكن لم يعط يومئذ لوزير الدفاع حق التقرير الذى هو صلاحية أساسية ولم يكن له أبدا رئيس أركان حرب، ولم يقبض على زمام الأمر بقوة إلا فى عام ١٩٥٧، ففى يناير من هذا العام أعطت حكومة «ماكميلان» توجيهات واضحة لوزير الدفاع الجديد حددت له فيها ما يجب عليه عمله وأعطته صلاحيات مطلقة لذلك.

وأخيرا صار لوزير الدفاع رئيس أركان حرب مسئول إزاءه، ورئيس أركان الحرب هذا أصبح رئيسا للجنة رؤساء الأركان.

* * * *

الفصل الحادى والثلاثون بداية التعاون الدفاعى فى أوروبا

لدى مجيئى إلى وزارة الحرب فى يوليو ١٩٤٦، لا حظت أنه ليست هناك فكرة واضحة عما يمكن أن تكون الإستراتيجية البريطانية فى حرب كبرى، وأن زميلى فى لجنة رؤساء أركان الحرب لم يكن من رأيهما أن علينا أن نحرر فى ذلك الحين مذكرة فى هذا الصدد، ولم أكن على اتفاق معهما، فنشأت عن ذلك مناقشات بيننا، وأخيرا وضعت وزارة الحرب مذكرة تحدد الإستراتيجية.

وفى ٢٥ يوليو، أحلت هذه المذكرة إلى لجنة رؤساء أركان الحرب، وأهم ما تضمنته هذه المذكرة أن علينا أن نوطد قوة حلفائنا الفعليين فى أوروبا وإنشاء كتلة غربية متينة على هذا النحو تحمينا جميعا ضد غزو يأتى من الشرق، وعلينا نحن أن نكون مستعدين ومنظمين للقتال إلى جانب حلفائنا على أرض القارة الأوروبية بكل ما يقتضيه ذلك.

وفى عام ١٩٤٧، تبدل المشهد، فقد اشترك وزراء خارجية الدول المحتلة لألمانيا فى مؤتمر إنعقد فى لندن بشأن هذه البلاد - ألمانيا - وأصبح واضحا أنه لا يمكن الوصول إلى أى اتفاق مع روسيا.

وعندما عدت من جولتى فى أفريقيا، استدعانى «أرنست بيفن» فى ٢٣ ديسمبر ١٩٤٧ ليقول لى إنه اقترح على وزير الخارجية الفرنسى أن الوقت قد حان للإهتمام بتشكيل اتحاد أو مجموعة أوروبا الغربية، وحث الأمريكيين على الإشتراك فيها، وأضاف أن على بريطانيا وفرنسا أن تتفقا أولا على استراتيجية ما، وأن محادثات أركان حرب يجب أن تجرى فى هذا الصدد.

وبمبادرة من وزارة الخارجية، دعى الجنرال ريفير، رئيس أركان حرب الجيش الفرنسى، لزيارة لندن وجرى لى معه حديث طويل حول مجمل المشكلة، وفى هذه الأثناء كان المستر «بيفن» يدفع إلى الأمام بمشروع إقامة إتحاد غربى.

ورحب الجنرال مارشال، وزير الخارجية الأمريكى، بحرارة بفكرة إنشاء اتحاد سياسى واقتصادى لبلدان الغرب الأوروبى والمتوسط فى الخط المشار إليه، وتشجع بيفن بهذه الموافقة، فاقترح أن تبدأ محادثات غير رسمية مع الأمريكيين، إنطلاقاً من فكرة أنهم قد ينضمون أخيراً إلى تحالف أوسع، على أن الأمريكيين لم يقبلوا هذا إذ لم يكونوا مستعدين لمواجهة الكونغرس فى ذلك الحين بشأن التقيد بالتزام بالقتال فى أوروبا.

وكانت وجهة نظرى فى جميع هذه الأمور أن علينا أولاً، وقبل البدء بالحديث مع الآخرين، صياغة أفكارنا الخاصة بشأن استراتيجية المملكة المتحدة فى حال نشوب حرب فى أوروبا قد تؤدى إلى حرب شاملة، وكنت أقول إن على رؤساء أركان الحرب تقديم مذكرة فى هذا الموضوع نشترك جميعاً فى كتابتها، وكنت مستعداً لأن أقوم بالبادرة الأولى بتقديم مذكرة فورية تحمل رأى وزارة الحربية، ولكن هذا لم يقبل، وكان ضباط الأسلحة الثلاثة المكلفون بوضع خطة منهمكين فى إعداد مذكرة يرفعونها إلى رؤساء الأركان، وكنا نحن نتظرها، وجاءتنا هذه المذكرة فعلاً، وقد أشارت إلى ثلاثة طرق للعمل فى أوروبا:

١ - استراتيجية جوية.

٢ - استراتيجية قارية.

٣ - استراتيجية نصف قارية، تشتمل على الحفاظ على أسبانيا والبرتغال وتحرير أوروبا عن طريق هجوم يشن عبر جبال البرانس.

وقد استبعدت المذكرة الاستراتيجية القارية ببضعة أسطر، تاركة الخيارين الاستراتيجية الجوية واستراتيجية جبال البرانس.

وقمت بإحداث ضجة قائلا إننى لا أوافق كليا على استنتاجات التقرير، فماذا يعنى القول: إن أفضل استراتيجية هى الاستراتيجية الجوية على ما يبدو؟ إن علينا أن ندافع عن أوروبا لا أن نحضرها، فإذا تركنا الشرق يجتاحها فلن يبقى شئ تقريبا لتحريره.

وقلت إن هذه الدراسة تظهر مرة أخرى كم هو غير مجد ترك هذا الفريق الممثل للأسلحة الثلاثة يححر المذكرات حول مواضيع ذات أهمية حيوية من غير أن يتلقى مسبقا توجيهات من رؤساء أركان الحرب، وأضفت أننى سأقدم فى اليوم التالى مذكرة تلخص وجهة نظرى الخاصة، وقد قلت فى هذه المذكرة المؤرخة فى ٣٠ يناير ١٩٤٨:

إن علينا الإقرار بأن دول الإتحاد الغربى مضطرة إذا هى هوجمت، لأن تصد الهجوم فى أبعد مكان ممكن إلى الشرق، وعلينا أن نعلن بوضوح أن بريطانيا العظمى ستقوم بقسطها الكامل من مسئوليات هذه الاستراتيجية المشتركة وأنها ستدعم النضال بكل ثقل قوتها البرية والجوية والبحرية.

وما لم يتم إقرار بريطانيا لهذه النقطة الأساسية فى استراتيجيتنا وموافقتها عليها بكل صدق، فلن يكون للإتحاد الغربى أى أمل بالحياة، وستجد بريطانيا نفسها عندئذ فى خطر كبير.

وتناقشنا أنا وزميلائى فى هذه المذكرة فى ٢ فبراير، ولم يوافقا كما توقعت، وانتهى الاجتماع فى غموض، لكن بعد أن توصلت إلى الموافقة على أن ترفع مذكرتى إلى رئيس الوزراء.

وانعقد المؤتمر مع رئيس الوزراء فى ٤ فبراير ١٩٤٨ ، فقلت إنه سيكون أمرا بالغ الصعوبة تحقيق إتحاد غربى فعال إذا نحن لم نتمكن من تقديم مساندة برية فى حال الحرب ، فعارض رئيس الوزراء عندئذ معارضة شديدة تقيدنا بأى التزام بأن نرسل جيشنا إلى القارة الأوروبية .

ورددت بأن لدينا الآن جيشا هناك ، هو جيش ، الراين البريطانى ، فهل يقترح رئيس الوزراء أن نسحبه ، عن طريق دنكرك ، إذ قام الروس بهجوم ؟ إن مثل هذه الفكرة غير معقولة .

وعندئذ قام «أرنست ييفن» بهجوم مضاد على أتلى ، وكذلك فعل المستر «الكسندر» ، فأيدنى كل منهما على طريقته ، واتفقنا أخيرا على درس مقتضيات الاستراتيجية التى أدعو إليها ، بما فيها مضاعفاتها فى حال إقرارها على بنية قواتنا المسلحة وإتساعها ، وهكذا هزمت على كل حال أصحاب استراتيجية البرانس ،

وعندئذ بدأ نشاط كبير واستمر خلال شهرى مارس وأبريل ١٩٤٨ ، وواصلت شرح آرائى للجميع دون إستثناء والتأكيد على الإيمان ، بالاتحاد الغربى ، وكنت مقتنعا بأنه لا مفر من حملة فى أوروبا الغربية ، وأن الأزمة ستحدث عام ١٩٤٨ ، أو بعد عشر سنين أو حتى عشرين سنة ، فالذى لم يكن منه إذن بد هو درس الطريقة التى يجب أن تتبع لمواجهة هذه الأزمة .

وقد انطلقت من الفكرة الآتية : إن فرنسا ودول البنلوكس ليس لها فى الوقت الحاضر إلا قيمة عسكرية محددة ، إذ يجب أن يعاد تنظيم قواتها ، وخصوصا قواتها البرية ، وأن تنفخ فيها روح مقاومة العدوان ، وهذا لا يمكن أن يحدث إلا إذا اتبعت حكومات الإتحاد الغربى نهجا واضحا يؤكد أنه مهما جرى فإن أى اعتداء روسى سيلاقى مقاومة تجابهه بكل القوة والوسائل المتوفرة ، وعلى كل منا أن يقاتل بكل ما يملك ، ومع الوقت ستعاضم الطاقات العسكرية لدى الدول الغربية ، أما إذا لم يتم

إقرار مبدأ المقاومة الفعالة الكلية لآى تهديد روسى ضد أوروبا الغربية، فإن بإمكان الإتحاد الغربى أن يقفل أبوابه .

وواضح أننا بحاجة إلى المساعدة الأمريكية، لكن ما دامت الولايات المتحدة غير مقتنعة بأننا سنقاتل جميعا مهما كان الموقف، فلن نحصل على مساعدتها، ولن نكون جديرين بهذه المساعدة.

وكانت حجتى أنه إذا ارتابت فرنسا ودول البنلوكس فى أن القوات البريطانية المرابطة فى ألمانيا ستسحب فى حال الحرب، فلن يكون هناك أمل فى حشها على أداء دورها، إن بلدان أوروبا الغربية قد إحتلها الألمان خلال الحرب وهى الآن تكافح لتنهض ، وأشد ما هى بحاجة إليه زعامة ملهمة.

إن على بريطانيا العظمى أن تضع قدمها فى أوروبا وتؤمن هذه الزعامة، وإذا بقينا مبتعدين، فإن فرنسا ودول البنلوكس وألمانيا الغربية أيضا ستتهار تحت الضغط الشيوعى المتزايد الآتى من الشرق فنخسر عندئذ السلام، وفى اجتماع عقد فى ١٠ مايو ١٩٤٨ مع وزير الدفاع توصلت إلى الموافقة على الضرورة الجوهرية للقتال فى أوروبا الغربية، بكل ما يشتمل عليه هذا القرار وكان هذا إنتصارا كبيرا.

وتبدل الموقف فى أوروبا بسرعة خلال النصف الأول من عام ١٩٤٨، وتوصلت إلى الإقرار بأن نحارب فى أوروبا إذا لزم الأمر، وكان هذا حاصلا نضال شديد إستمر أكثر من أربعة أشهر، وقد أصبحنا نحتاج الآن إلى أكثر من هذا، إلى تنظيم يعتمد بصورة ملائمة لقيادة القوات التى ستخوض هذه الحرب والإشراف عليها، وحقائق الحرب القاسية تفرض أن نصاب بكوارث إذا لم يكن لدينا مثل هذه التنظيم، والتنظيم الجيد فى ميدان القيادة سيتيح لنا أيضا حل مشاكل

أخرى كتنمية روح القتال وإنشاء أجهزة وطنية تعمل على إيجاد القوات المطلوبة، وكان لا يزال هناك أسئلة كثيرة دون جواب، منها مثلاً:

* من يتولى قيادة القوات البرية فى أوروبا؟

* من يقرر كيفية تجمع الجيوش بالنظر إلى طبيعة الأرض الجغرافية؟

* من يقرر المكان الذى يستند إليه الجناح الأيسر أو الجناح الأيمن، والمكان الذى يجب أن يعزز فيه الموقف، وأين يمكن تجربة الحظ؟

* من يقرر القوة التى يجب أن تحفظ فى الإحتياطى من أجل القيام بهجوم مضاد؟

* من الذى يمزج جيوش الغرب ليجعل منها آلة حرب فعالة؟

لقد كان الجواب على كل هذه الأسئلة واحداً، وهو أنه لم يكن هناك أحد يقوم بكل ذلك، وفى أول يونيو ١٩٤٨، لفت نظر زميلى إلى هذه النقاط، ولكنهما أجابانى إجابات متهربة، وأخيراً رفع الأمر للتحقيق إلى الفريق الممثل للأسلحة الثلاثة والمكلف بوضع التصميم، وكان الوقت مضى، وفى ٢٣ يونيو، كنا ما نزال نتناقش دون نتيجة، وقد مالت الأكرية نحو إيجاد سلطة فى لندن، تكلف بوضع التصميم وتكون شبيهة بهيئة كوساك القديمة.

وقد أعربت عن رأى بقوة معلنا دون لبس أن المسألة يجب أن تكون مسألة جهاز محدد بسيط مخصص لقيادة قوات الإتحاد الغربى، والإشراف عليها إشرافاً فعلياً، وأن هذا الجهاز يجب أن يوجد على الفور.

وفى ٢٤ يونيو ١٩٤٨ بدأ الروس حصار برلين الغربية، وكان رد الفعل فى لندن سريعاً، وفى ٢٨ يونيو، أعلن رؤساء أركان الحرب للحكومة أن أجد سبل لإقناع الروس وإقناع دول أوروبا الغربية أيضاً بعزمنا وتصميمنا، هو تعيين قائد أعلى

حليف لقوات الإتحاد الغربى، ولكن فى اجتماع لاحق ذهب وزير البحرية إلى أن اقتراح تعيين قائد أعلى حليف ليس إلا بادرة سياسية ذات صلة بأزمة برلين التى أخذت - كما قال - تظهر منها أمارات التضاؤل وألح من جديد على إنشاء نوع من هيئة كوساك.

ومع ذلك فقد أخذت «تدر» رئيس أركان الطيران بعد الاجتماع على انفراد، وقد سبق أن واجهنا معا خلال الحرب عددا كبيرا من المعارك القاسية، فأقر معى بأن إنشاء هيئة صالحة للقيادة، قد أصبح الآن مسألة جدية ملحة.

وعقدت بضعة اجتماعات أخرى، وفى ٩ يوليو وافقت الحكومة على أننا بحاجة إلى:

أ - لجنة دفاع للإتحاد الغربى مؤلفة من وزراء الدفاع.

ب - لجنة رؤساء أركان الحرب للإتحاد الغربى.

ج - هيئة قيادة تقرر بنيتها فيما بعد.

وهكذا ربحت معركة أخرى فى هوايتهول، لكن ذلك لم يحدث إلا بعد تدخل الروس المباشر فى برلين.

وفى ٢٠ سبتمبر ١٩٤٨، استدعانى وزير الدفاع فى الساعة ١٢,٤٥، وعرض المستر «الكسندر» علىّ تعيين رئيسا للجنة القواد العاميين للإتحاد الغربى. وفى ٢٧ أيلول وافق وزراء الدفاع فى دول الإتحاد الغربى الخمس المجتمعين فى باريس، بالاجتماع على تعيينى، وأعلن هذا التعيين فى الصحف فى ٣ أكتوبر.

وهكذا توصلنا إلى ما كافحت من أجله كثيرا، أى إلى قرار يقاتل الجيش البريطانى بموجبه على أرض القارة الأوروبية فى حال الحرب، وإلى شىء ملموس فيما يتعلق بتنظيم القيادة، لكن ذلك إقتضى جهدا شاقا إستمر عدة أشهر، وها أنا الآن مضطر للعناية بالتفاصيل.

الفصل الثانى والثلاثون

وحدة الغرب

لكى نفهم المحاولات التى بذلت خلال السنوات التى أعقبت الحرب من أجل تحقيق الوحدة والتعاون فى أوروبا الغربية، يجب علينا أن نعود إلى عام ١٩٤٥ . فعندما إنتهت الحرب مع ألمانيا فى مايو من ذاك العام، أخذت الدول الأوروبية تفضل السبيل شيئاً فشيئاً، ومع ذلك فقد عقد بعد ذلك عدد من المعاهدات التى سجلت بداية الأمن الجماعى فى أوروبا، وأولى هذه المعاهدات معاهدة «دنكرك» التى عقدت فى مارس ١٩٤٧ بين فرنسا وبريطانيا، وكانت تستهدف صد أى عدوان ألماني جديد، أما المعاهدة الأخيرة، وهى أهمها، فمعاهدة شمالى الأطلسى المعقودة عام ١٩٤٩ .

وفى ربيع ١٩٤٥، كانت دول أوروبية كثيرة فى وضع اقتصادى سيء، وسرعان ما اتضح أنه لا بد من مساعدة خارجية، وأن الحاجة إلى هذه المساعدة ملحة، إذ أن الشيوعية الروسية كانت قد بدأت فى الانتشار نحو الغرب، حيث توجد تربة ملائمة لنمو هذا الشر الخفى المخادع.

وقد تحقق ذلك فى الولايات المتحدة، ففي ٥ يونيو ١٩٤٧ ألقى الجنرال مارشال فى جامعة هارفرد خطابه الشهير عن مساعدة أوروبا، الذى عرف منذ ذلك الحين باسم مشروع مارشال، وقد قبل «أرنست بينفن» هذا العرض بسرعة، ونظم مؤتمراً يعقد فى باريس فى شهر يوليو بغية تحديد التفاصيل، وفى هذا المؤتمر أعلن الروس أنهم لا يرغبون فى مساعدة مشروع مارشال لأنفسهم، ولا لآى بلد من البلدان الدائرة فى فلكهم.

ومع ذلك فعلى الرغم من الرفض الروسى اكتسب مشروع مارشال الصفة الشرعية فى الولايات المتحدة فى ٣ أبريل ١٩٤٨ ، وأنشئت اللجنة المكلفة بتنفيذ المشروع فى يونيو ١٩٤٨ برئاسة «أفريل هاريمان» ، وأن دول أوروبا الحرة لمدينة أكبر الدين للولايات المتحدة لهذه المساعدة، التى قدمت إليها بكل حرية، وساهمت أكبر مساهمة فى نهوضها.

وعندما رفض الروس عام ١٩٤٧ مشروع مارشال ، إشتدت الحرب الباردة التى كانت مستمرة آنذاك منذ بعض الوقت، وأخذ القلق يستبد بمجموعة من دول أوروبا الغربية لهذا التهديد المتعظم الآتى من الشرق، وتجلت الحاجة إلى الوحدة بغية التمكن من صد هذا التهديد، وكان البلوكس - إتحاد بلجيكا وهولندا ولوكسمبورج - أول منظمة أنشئت، وكان اتفاق هذه البلدان الثلاثة فى البدء منحصرا فى التدابير الاقتصادية، ثم ظهرت ضرورة قيام منظمة أوسع، فانضمت المملكة المتحدة وفرنسا إلى البلوكس لتشكيل الإتحاد الغربى الذى أنشئ بموجب معاهدة بروكسل الموقعة فى ١٧ مارس ١٩٤٨ ، وقد اقتضت هذه المعاهدة أيضا فى البداية على الشئون الاقتصادية وتقدم المبادئ الديمقراطية وما شابه.

وبعد توقيع معاهدة بروكسل بقليل، باشر الروس فى يونيو ١٩٤٨ حصار برلين الغربية الذى فشل نهائيا بفضل الانتصار الكبير الذى حققه الجسر الجوى، وقد أوجد هذا الحصار توترا كبيرا فى العالم الغربى، الذى اشتد فيه القلق، واعتبر وضع خطة للدفاع عن الغرب أمرا ضروريا، فاجتمع وزراء الدفاع وقادة الأسلحة المشتركة للبلدان الخمسة الموقعة على معاهدة بروكسل لدرس مشاكل الرجال والعتاد، وهكذا تقرر فى سبتمبر ١٩٤٨ ، إيجاد منظمة الدفاع عن الإتحاد الغربى، تعد الخطط لعمل مشترك فى حال حدوث هجوم، وعينت رئيسا دائما للجنة القواد الأعلين للقوات البرية والبحرية والجوية للإتحاد الغربى، وأقمنا مقرنا العام المشترك فى فونتينبلو تحت اسم مختصر هو يونيفورس.

وفى هذه الأثناء كانت تجرى محادثات على الجانب الآخر من الأطلسى حول مقدار ملائمة إقامة جهاز وحيد للدفاع المشترك يتضمن معاهدة بروكسل ويحل محلها، فقد أدرك المسئولون فى الولايات المتحدة وكندا أنهم إن كانوا يستهدفون الأمن الكامل فعلى هاتين الدولتين وغيرهما من بعض الدول أن تشترك فى الأمر كى يبقى المحيط الأطلسى آمنا إلى حد يسمح بمساعدة أوروبا مساعدة فعالة، وقد بدأت محادثات تمهيدية فى واشنطن فى شهر يوليو ١٩٤٨، بعد حصار برلين الغربية بقليل واستمر طوال العام.

وأخيرا وقعت فى ٤ أبريل ١٩٤٩ معاهدة شمالى الأطلسى التى يتحدث بموجبها إثنتا عشرة دولة فى تحالف دفاعى للحفاظ على السلام والأمن الدوليين، والمساهمة فى استقرار منطقة شمالى الأطلسى وغيرها، وأتخذ هذا التحالف اسم : منظمة معاهدة شمالى الأطلسى التى تعرف بالاسم الموجز «الناتو».

وأصبح واضحا لدى وضع الخطط أن المنظمة العسكرية للاتحاد الغربى يجب أن تمتصها منظمة «الناتو» العسكرية، فتم إجراء ذلك، ثم فى ٢ أبريل ١٩٥١ تولى الجنرال «إيزنهاور» الإشراف العملى على القوات العسكرية للحلف الدفاعى، وفيما بعد دخلت اليونان وتركيا الناتو فى ١٨ فبراير ١٩٥٢، مما رفع عدد الدول المشتركة إلى أربع عشرة دولة، وكانت آخر دولة دخلت الناتو، هى جمهورية ألمانيا الاتحادية، «ألمانيا الغربية»، التى انتسبت إلى الحلف فى مايو ١٩٥٥، وما تزال منظمة معاهدة شمالى الأطلسى «الناتو» تضم حتى اليوم خمس عشرة دولة.

وقد أنشئ مقر القيادة العليا للدول الحليفة فى أوروبا، وذلك فى ٢ أبريل ١٩٥١ فى باريس، وعلى رأسه الجنرال «إيزنهاور» كقائد أعلى، وأصبحت أنا نائب القائد الأعلى.

ومنذ البداية كان «إيزنهاور» مصمما على وجوب أن ينسى جميع ضباط أركان حرب مقر القيادة العليا للدول الحليفة في أوروبا أنهم يتمون إلى دولة معينة أو إلى جيش خاص، فكلهم يجب أن يكونوا دوليين ومن الأسلحة المشتركة.

وفي زمن السلم، يهتم مقر القيادة العليا للدول الحليفة في أوروبا بصورة رئيسية بأن نكون مستعدين للحرب، وهذه الغاية تشمل تنظيم القوات العاملة وقوات الإحتياط التابعة لدول الناتو، وتعبئتها، والإحتياطيات المتعلقة بعتادها وتدريبها ودعمها اللوجستى، وتنظيم المواصلات وتنظيم الدفاع الجوى.

أما فى زمن الحرب، فمقر القيادة العليا يترك للقواد العاملين التابعين له مهمة إدارة المعارك التكتيكية لينصرف هو إلى الإدارة الاستراتيجية ووضع الخطط والاستعلامات واللوجستيا والأشراف على سلاح الجو والصواريخ، ولقد خدمت فى مقر القيادة العليا للدول الحليفة فى أوروبا تحت قيادة أربعة قواد أعليين ، ولا شك أننى الضابط الوحيد الذى أتبع له ذلك.

وكان أول هؤلاء «إيزنهاور»، ثم استقال «إيزنهاور» من الجيش الأمريكى وغادرنا، فقد قرر أن يرشح نفسه للرئاسة.

ووصل الجنرال «ريدجواى» إلى باريس فى ٢٧ مايو ١٩٥٢ وخلف «إيزنهاور» فى ٣٠ مايو، ولقد غادر «ريدجواى» أوروبا فى ١١ يوليو ١٩٥٣، وأصبح «غرونتر» قائدنا الأعلى الجديد، وفى نوفمبر ١٩٥٦ حل محل غرونتر «الجنرال نورستاد»، ضابط سلاح الجو الأمريكى اللامع، وهو صديق أكيد لى، وقد كنت سعيدا بالخدمة تحت قيادته.

ولقد إزدادت قوتنا العسكرية باستمرار تحت قيادة إيزنهاور وخلفائه، أضف إلى ذلك أن تقدم العلم زودنا بالأسلحة النووية بكميات متزايدة على الدوام، ومنذ ذلك الحين أخذ عاملان يؤثران فى استراتيجيتنا، أولهما أن السلاح النووى زودنا

بإمكانية التدمير بأحجام لم تكن نعرفها من قبل، وهذه الإمكانية قد تصبح سلاحاً هجومياً بالغ القوة إلى حد أصبح واضحاً أن أية دولة لن تستطيع الاستفادة من الحرب، فالمعتدى قد يلحق أضراراً مرعبة بالحضارة الغربية، ولكنه سيصاب هو أيضاً بأضرار مساوية لها أو تفوقها.

والعامل الثانى، أن دول «الناتو» أوجدت قوات تقليدية بقصد كسر الهجوم المعادى، وكان يبدو لى واضحاً أننا إذا اعتمدنا فقط على مثل هذه القوات فلن نتمكن أبداً من أن نضاهى القوة التى قد تجابهنا، فلكى نضمن ذلك تلزمنا قوات متزايدة، مما سيضخم ميزانيات الدفاع تضخيماً ليست الدول مستعدة لمواجهة، والبديل الوحيد هو أن نعلن صراحة أننا إذا هوجمنا فنستعمل ضد المعتدى جميع الموارد التى فى حوزتنا بما فيها السلاح النووى، حتى لو لم يستعمل هذا السلاح ضدنا أولاً.

إن إقامة تنظيمنا الدفاعى على أساس السلاح النووى قد أدت إلى تعديل كبير فى مفاهيمنا، لكن كان لابد من إجراء هذا التعديل، واعتقد أننى لعبت دوراً ما فى تحقيقه، فلقد كنت دائماً أذهب إلى أن الروس قرروا منذ البداية ألا يتورطوا فى حرب إلا بأقل المجازفات، وتكتيكنا يجعل الحرب الآن غالية جداً بالنسبة إليهم، إذ أنهم سيصابون بأضرار كبرى وخسائر جسيمة فى الأرواح، كما سىصاب نحن، ولذلك لن يهاجمونا ما دمنا أقوياء وقادرين على الرد فوراً بأسلحتنا النووية.

وليس هناك بديل آخر لهذه الاستراتيجية إلا الإتفاق على نزع السلاح، وهذا ما لم نتوصل إليه، ولدينا الآن الرادع، وهذا شىء حسن، فقد حال دون حرب شاملة، ولكن ليس من المؤكد أنه أيضاً أداة دفاع جيدة.

أما وقد تحقق لنا الآن الهدف الرئيسى الذى هو الدفاع الحائل دون الحرب، فقد حان الوقت لإعادة نظر كاملة فى منظمة «الناتو» كلها، وعلينا أن نبدأ بأن نعلن دون

أى تحفظ أن مساهمة «الناتو» فى ضمان أمن العالم الحر كانت مساهمة عظيمة، وهناك منظمتان إقليميتان آخريان هما «حلف بغداد» و«معاهدة جنوب شرقى آسيا».

وفى عام ١٩٥٨، أدخلت الأسلحة الذرية فى نظامنا الدفاعى وأنشأنا رادعا نوويا قويا ضد الهجوم، ومن جهة أخرى أصبحت ألمانيا الاتحادية، فى عام ١٩٥٥، عضوا فى «الناتو» وشرعت تتسلح من جديد، وبات الهجوم المباشر الآن على (أوروبا الناتو) غير محتمل الوقوع على الإطلاق، فالخطر إنما يوجد فى غير هذا المكان.

إن على الزعماء السياسيين أن يدركوا الفروق فى المفاهيم الراسخة فى المناطق الرئيسية الثلاث المحيطة بالكتلة الشيوعية، فروسيا بما تستهدفه من السيطرة العالمية، المتحققة بواسطة الشيوعية الدولية، هى العدو فى أوروبا الغربية وفى مجمل منطقة الناتو على العموم، أما بالنسبة لدول الشرق الأوسط العربية، فالعدو المباشر ليس روسيا بل إسرائيل، وليس لدى العرب نية التعاضد لمحاربة الشيوعية، بل هم ينوون التعاضد فقط لمحاربة إسرائيل ومنع توسع الدولة اليهودية، وأما فى الشرق الأقصى، فلتن كانت الدول تخشى من خطر خارجى، فإنما هو الخطر الذى تمثله الصين لا روسيا.

إن الزعامة العالمية فى جميع هذه الأمور هى الآن من نصيب الولايات المتحدة الأمريكية، وهذه الدولة لم تكن دائما فى مثل هذا المركز، فقد إضطلع البريطانيون زمنا طويلا بالزعامة وعالجوا المشاكل العالمية خلال عدة قرون، أما الولايات المتحدة فليس لها إلا خبرة بعض العقود، على أن العالم الغربى يجب أن يدرك أن الحلف الغربى ينهار بدون الولايات المتحدة الأمريكية، وعلى الولايات المتحدة من جانبها

أن تمارس بطريقة مقنعة كفاءاتها كزعيمة للعالم الحر فى الميادين السياسية والاقتصادية والعسكرية.

وكثيرا ما رأيت أن سياسة الولايات المتحدة الخارجية غير منسجمة، ففى الأمم المتحدة تبدو لها سياسة وعندما تكون مصالحها الوطنية الخاصة فى الميدان تكون لها سياسة أخرى، إنها تدعم الدول الاستعمارية السابقة فى أوروبا الغربية، ولكنها تعمل لتحطيم نفوذ هذه الدول وقوتها فى آسيا وفى أفريقيا، إن سياسة الولايات المتحدة هذه غير المنسجمة قد ساهمت كثيرا فى إضعاف مركز الغرب الاستراتيجى، وقد تؤدى إذا هى استمرت إلى إنهيار الحلف الغربى.

إن خبرتى كجندى دولى علمتنى أن على الغرب، إذا أراد أن يبقى أن ينمى أهدافه المشتركة ومسئوليته المشتركة إلى درجة أعلى بكثير مما فعل حتى اليوم، إنه أحوج إلى تعاون أوثق فى ميادين أوسع من ميدان الدفاع وحده عن الأراضى القومية، ولذلك يجب أن يستند الحلف الغربى إلى الوحدة والأمل والشجاعة، وأن تحكم لحمة القوة المتفاعلة الموحدة، قوة نحو أربعمئة مليون نسمة.

إن الوحدة الغربية هى الشئ الوحيد الذى يخشاه الروس، وكل خططهم مبنية على هذا الهدف الأساسى، الذى هو منع هذه الوحدة، إن وحدة الغرب يجب أن تقام بأى ثمن.

* * * *

الفصل الثالث والثلاثون

خواطر أخرى

ها قد بلغت نهاية هذا الحديث، ولقد سررت بلا شك في كتابته، وإنى لأشعر الآن أننى - حين كنت تلميذا صغيرا وربما مراهقا أيضا- لم أكن أرى الرؤية الصحيحة إلا فى النادر، ولم تكن لى الرؤية الكاملة أبدا، ولم أكن أفرق على العموم بين ما هو مهم وما هو تافه، لكن مع تقدمى فى السن أخذت أتعلم أمورا كثيرة، ومن الممكن أن يكون ما قد أفادنى أكبر الإفادة فى حياتى قدرتى على تبسيط أية مشكلة واكتشاف العنصر الجوهرى الذى يجب أن يكون فى أساس كل عمل، فأحصر همى به تاركا التفاصيل لإركان حربى.

وتعلمت أيضا أن أنظم حياتى، وألا أبالغ فى نشاطاتى الاجتماعية، وألا أقلق نفسى أبدا، وهاهنا أيضا اقتضانى بعض الوقت أن أتعلم أن الشخصية ذات أهمية كبرى فى هذه الحياة، فطريقتك الخاصة فى أن تكون سعيدا، واسلوبك فى الخدمة الصافية الصادقة، ويد النجدة تمدها، إلى الآخرين، واهتمامك بكسب ثقة الذين تعاملهم، هذا كله هو المهم على الخصوص.

ولقد شرحت فى الفصل الأول كيف تعلمت قبل أن أترك المدرسة أن بين الصفات المتعددة الضرورية للنجاح صفتين أساسيتين هما العمل الحثيث الدائب والتجرد المطلق، وأرغب الآن أن أضيف صفة ثالثة هى الشجاعة، وأقصد الشجاعة المعنوية التى بفضلها لا يخشى المرء أن يقول أو يفعل ما يعتقد صوابا.

وعندما يتحمل المرء مسئوليات مخيفة، ليس من السهل دائما أن يكيف حياته وفقا لهذه المثل العليا، وأخشى أن أكون فى أحيان كثيرة قد بقيت أقل مما كان يجب على أن أكون.

ولقد كنت أشعر أيضا بقلق فكرى إزاء وجوه القيادة التكتيكية للحرب العالمية الثانية، كما كان يعذبني التفكير بأن الشعب البريطانى اضطر لهذا السبب أن يتحمل آلامه زمنا أطول مما كان يجب مع كل ما يقتضيه ذلك من خسائر فى الأرواح.

وعندما يكون المرء مشدود الأعصاب على هذا النحو، يصعب عليه أن يظهر دائما بمظهر المبتهج، وقد يساق إلى إفراغ استيائه على شخص من الأشخاص، وهذا الشخص كان هيئة أركان حربى الشخصية، وأخشى أن يكون هذا قد ألمها أحيانا.

وأظن أننى قد اكتسبت بعض الشهرة فى الوقت الذى أترك فيه الحياة العسكرية العاملة، ولكننى تعلمت أن الطريق الذى يقود إلى ذلك طريق شاق ملىء بالحجارة، وتعلمت كم هو صعب الطريق لبلوغ القمة.

ولقد استحوذت مشكلة القيادة على جزء كبير من حياتى، فالسلطة اليوم يجب أن تمارس بحكمة ومنطق.

ولقد دعيت غير مرة إلى الإشتراك فى الصراع السياسى، ولكننى رفضت الدعوة دائما، فأنا لا أعتقد أننى أستطيع أن أكون سياسيا جيدا.

إن معظم الكتب تبدأ بتوجيه الشكر إلى الذين ساهموا فى إخراجها وقد فعلت ذلك فى مقدمة هذا الكتاب، ولكن على أيضا واجب الشكر والعرفان لبعض الأشخاص، فأنا حين ألقى نظرة على الماضى أذكر دائما إلى أى حد أثر أربعة أشخاص فى حياتى: والدى فى سنى صباى، والفيلد مارشال «ألن بروك» خلال حياتى العسكرية، والسير «نستون تشرشل»، والجنرال «إيزنهاور».

ومنذ أخذت أقوم برحلات إلى الخارج، أى منذ خريف ١٩٤٨، حظيت بشرف معرفة رؤساء حكومات الدول الغربية ووزرائها، ومن بين أصدقائى شخصيات

تختلف كل الاختلاف كقداسة البابا والمارشال «تيتو» الذى كثيرا ما كنت أزوره،
وأقدر كل التقدير صداقة الدكتور سالازار رئيس وزراء البرتغال.

لقد تركت الجيش العامل فى سبتمبر ١٩٥٨، بعد خمسين سنة من تأدية
الواجب دون أى عجز فى خدمة ملكى، ومنذ عام ١٨٥٥ - وهو التاريخ الذى
ألغى فيه مجلس العتاد الحربى وأنشئت وزارة الحربية - لم يخدم أى ضابط أطول
من هذه المدة.

وفى اللحظة التى أترك فيها الجيش أود أن أوجه تحية إلى الجندى البريطانى،
صديقى ورفيق سلاحى طوال هذه السنوات الأخيرة كلها.

والجندى البريطانى ليس على الإطلاق فى المرتبة الثانية من مراتب المحاربين،
وقد يكون جنود آخرون أكثر منه إندفاعا وأكثر انتظاما، ولكن ما من جندى آخر
يفوقه فى مختلف المزايا.

ولقد كان الجندى البريطانى الأمل الأخير للعالم الحر فى أحيان كثيرة، فصمد
بقوة فى وجه الظلم والطغيان.

إننى أعرف أكثر من أى شخص آخر أى مستوى يستطيع الجندى الإنجليزى أن
يبلغه، إن عظمته هى على قدر الخلق البريطانى، ولقد شاهدت مزايا جنسنا تبرز
أحيانا كثيرة فى ميدان القتال.

أما وقد أذنت شمس حياتى بالأفول، فإننى أضع جانبا كثيرا من الإنطباعات
ولكن الإنطباع الذى أحفظ به فوق كل شىء وكأنه كثر، هو صورة الجندى
البريطانى وإخلاصه وقوة بأسه فى حالة الشدة واعتداله فى حال النصر. إنه الرجل
الذى كانت الأمة، دائما وأبدا، مدينة له بسلامتها وشرفها.

الفهرس

الموضوع	صفحة
مقدمة	٣
مقدمة المؤلف	٥
الفصل الأول: السنوات الأولى	٧
الفصل الثاني: أيامى الأولى فى الجيش	١١
الفصل الثالث: بين الحربين	١٩
الفصل الرابع: بريطانيا تدخل الحرب العالمية الثانية	٢٣
الفصل الخامس: الجيش فى إنجلترا بعد دنكر ك	٣١
الفصل السادس: عقيدتى فى القيادة	٣٥
الفصل السابع: الجيش الثامن	٤١
الفصل الثامن: معركة علم حلفا ٣١ أغسطس - ٦ سبتمبر ١٩٤٢	٤٧
الفصل التاسع: معركة العلمين ٢٣ أكتوبر - ٤ نوفمبر ١٩٤٢	٥١
الفصل العاشر: من العلمين إلى تونس ٥ نوفمبر ١٩٤٢ - ٧ مايو ١٩٤٣	٥٩
الفصل الحادى عشر: حملة صقلية ١٠ يوليو - ١٧ أغسطس ١٩٤٣	٧١
الفصل الثانى عشر: حملة إيطاليا ٣ سبتمبر - ٣١ أكتوبر ١٩٤٣	٧٣
الفصل الثالث عشر: فى إنجلترا قبل يوم الغزو ٢ يناير - ٦ يونيو ١٩٤٤	٧٩
الفصل الرابع عشر: معركة نورماندى ٦ يونيو - ١٩ أغسطس ١٩٤٤	٩١
الفصل الخامس عشر: إستراتيجية الحلفاء فى شمال السين	٩٧
الفصل السادس عشر: معركة أرnhem ١٧ - ٢٥ سبتمبر ١٩٤٤	١١٣
الفصل السابع عشر: قبل معركة الأردن	١١٧

١٢٥	الفصل الثامن عشر: معركة الأردن ١٦ ديسمبر ١٩٤٤ - ١٦ يناير ١٩٤٥
١٢٧	الفصل التاسع عشر: إنتهاء الحرب فى أوروبا
١٣٣	الفصل العشرون: إستسلام ألمانيا
١٣٧	وثيقة استسلام جميع القوات الألمانية المسلحة
١٣٩	الفصل الحادى والعشرون: خواطر حول القيادة العليا فى زمن الحرب
١٤٣	الفصل الثانى والعشرون: الرقابة على ألمانيا بعد الحرب
١٤٩	الفصل الثالث والعشرون: بدء المتاعب مع الروس
١٥٧	الفصل الرابع والعشرون: النضال لإنهاض ألمانيا
١٦٧	الفصل الخامس والعشرون: أيامى الأخيرة فى ألمانيا
١٧٣	الفصل السادس والعشرون: قبل العمل فى هوايتهم
١٨٣	الفصل السابع والعشرون: أيامى الأولى فى هوايتهم
١٩١	الفصل الثامن والعشرون: رحلاتى فيما وراء البحار فى عام ١٩٤٧
١٩٧	الفصل التاسع والعشرون: غيوم سوداء فى سماء فلسطين
٢٠١	الفصل الثلاثون: أصبحت مصدر إزعاج فى هوايتهم
٢١٧	الفصل الواحد والثلاثون: بداية التعاون الدفاعى فى أوروبا
٢٢٥	الفصل الثانى والثلاثون: وحدة الغرب
٢٣٣	الفصل الثالث والثلاثون: خواطر أخرى
٢٣٧	الفهرس



مذكرات قادة الحرب العالمية الثانية

- جوبلز ■ ديجول
- مونتجمري ■ آيزنهاور
- تشرشل ■ موسوليني
- رومل ■ أدولف هتلر

Bibliotheca Alexandrina



0640177

I.S.B.N. 977-436-074-5



9 789774 360749

مكتبة النافذة